بحوث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الملك سعود
King Saud University

بحوث

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
بقلم رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر
سمو الأمير الدكتور سعود سلمان بن محمد آل سعود

الحمد لله رب العالمين، كتب على نفسه الرحمة، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، الذي أرسله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

أما بعد:

فإن النهج الذي تنتهجه هذه البلاد الطاهرة، المملكة العربية السعودية، وما سارت عليه منذ عهد الإمام محمد بن سعود رحمه الله ثم في عهد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -طيب الله ثراه- وسار على ذلك من بعده بنوه البررة إلى هذا العهد الزاهر الميمون: عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز -حفظه الله- من نهج اعتمد فيه تطبيق الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وهيأت كل سبيل أو وسيلة أو طريقًا يخدم قضايا المسلمين في كل مكان، ولا سيما ما يتعلق بنشر تعاليم هذا الدين.

وإدراكًا من قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود لواجبه الشرعي والعلمي، وتحقيقًا لرسالته، فقد ارتأى عقد مؤتمر (الرحمة في الإسلام ليؤكد على المعاني والمقاصد السامية للرحمة في الإسلام.

من خلال النصوص الشرعية في القرآن والسنة والمتمثلة في الشعائر التعبدية والتكاليف الشرعية مع التعرف على جوانب الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، ورصد التطبيقات العملية للرحمة في الشريعة الإسلامية.

ويعد هذا المؤتمر إضافة مهمة، ويحقق جزءًا من أهداف قسم الدراسات الإسلامية من خلال نشر تأصيل خلق الرحمة في الإسلام، ويصحح الصورة المغلوطة عن خلق الرحمة في الإسلام من خلال التركيز على الجوانب العملية لخلق الرحمة في الإسلام.

وهذا الأبحاث المقدمة للمؤتمر والتي تعد معلمة للرحمة في الإسلام نظرًا لأهميتها، ولما لها من قيمة كبرى في موضوعها على اعتبار أنها بحوث عميقة محكمة مراجعة علميًا وشرعيًا، كما أن مضامين هذه الأبحاث مادة عميقة تتناول الرحمة في الإسلام.

وفي الختام نسأل اللّه تعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل به على هدي الكتاب الكريم والسنة النبوية. إنه نعم المولى ونعم المعين.

رئيس اللجنة الإستشارية بقسم الدراسات الإسلامية

د. سعود سلمان بن محمد آل سعود

تقديم
بقلم عميد كلية التربية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبِه أجمعين، أما بعد: فمن خصائص الشريعة الإسلامية الرحمة، فقد وصف الله نفسه بصفة الرحمة في آيات كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢] .

كما وصف رسول الله ﷺ ربه بصفة الرحمة في جملة من الأحاديث، منها ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي" صحيح البخاري ج ٣/ ص ١١٦٦- صحيح مسلم ج٤/ص ٢١٠٧ .

والسيرة النبوية مليئة بالرحمة، فالرسول ﷺ من أرحم الخلق، رحيمًا بالطفل والمرأة والضعيف، وبلغت رحمته الطير وسائر الحيوان، بل تعدت إلى النبات والجماد.

وهذا المؤتمر المبارك، مؤتمر الرحمة، يسلط الضوء على هذا الأمر المهم، من خلال إبراز المعاني والمقاصد السامية للرحمة في الإسلام، وتأصيل خلق الرحمة، وبيان رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، ورحمة رسوله ﷺ

بأمته في الشعائر التعبدية، وفي سائر أمور حياتهم؛ كما يهدف المؤتمر إلى التعرف على جوانب الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، ورصد التطبيقات العملية للرحمة في الشريعة الإسلامية.

ونعتز بأن تحتضن كلية التربية، ممثلة بقسم الدراسات الإسلامية، هذا المؤتمر المهم انطلاقًا من دورها في تأصيل القيم التربوية الإسلامية في المجتمع.

وقسم الدراسات الإسلامية عُرف عنه تلمسه لاحتياجات المجتمع، وما يشغله من قضايا، ويسعى لمعالجتها بما مكَّنه الله من قدرات علمية.

وفي الختام: أسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أهل العلم والإيمان، ومن أهل الفضل والإحسان، وأن يجعلنا مباركين حيثما كنا.

عميد كلية التربية

أ. د. يوسف بن عبدالرحمن الشميري

تقديم
بقلم رئيس قسم الدراسات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد القائل: "من لا يَرحم لا يُرحم"، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمن معالم هذا الدين الرحمة التي وصف الله نفسه بها في آيات كثيرة في القرآن الكريم، ووصف بها نبيه ﷺ.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر].

أما السنة النبوية: فقد استفاضت بنصوصها الداعية إلى الرَّحْمَة، الحاثَّة عليها، المرغِّبة فيها: إمَّا نصًّا أو مفهومًا.

من ذلك قوله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق

العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». صحيح البخاري ١١٦٦/٣- صحيح مسلم ٢١٠٧/٤ وقوله ﷺ: «جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه». صحيح البخاري ٢٢٣٦/٥

وعملًا بهذه النصوص الشرعية الصريحة وغيرها من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وتحقيقًا لأهداف قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك سعود.

فقد سعى قسم الدراسات الإسلامية إلى عقد مؤتمر عالمي بعنوان: (**الرحمة في الإسلام**) في رحاب جامعة الملك سعود، لنشر قيمة الرحمة في الإسلام من خلال:

- إبراز المعاني والمقاصد السامية للرحمة في الإسلام.
- تأصيل خلق الرحمة في التعامل من خلال النصوص الشرعية في القرآن والسنة.
- بيان الرحمة بالخلق في الإسلام من خلال الشعائر التعبدية والتكاليف الشرعية.
- التعرف على جوانب الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ.
- رصد التطبيقات العملية للرحمة في الشريعة الإسلامية.

وقد مثلت هذه الأهداف في خمسة محاور للمؤتمر، وهي:

المحور الأول: تأصيل خلق الرحمة في الإسلام

- الرحمة في القرآن الكريم.

- الرحمة في السنة النبوية.

المحور الثاني: الرحمة بالخلق في الإسلام من خلال العقائد الإيمانية.

- المعرفة بأسماء الله وصفاته ومحابه ومراضيه، والتقرب إليه بذلك، وطلب رحمته ورضوانه.
- المنهج الشرعي في التعامل مع الحقائق الغيبية، وبيان أوجه الرحمة فيها.
- منهج الصحابة رضي الله عنهم في الترغيب بما أعده الله لعباده من الرحمة والتحذير من ضده.

المحور الثالث: الرحمة بالخلق في الإسلام من خلال الشعائر التعبدية، والتكاليف الشرعية

- أوجه الرحمة في تشريع العبادات الشرعية.
- المقارنة بين رحمة التشريع الإلهي والتشريعات الكتابية المحرفة أو التشريعات الوضعية.
- الرحمة بالخلق في تطبيق الشعائر التعبدية، بلا إفراط ولا تفريط.

المحور الرابع: الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ ورحمته بأمته

- رحمة الرسول ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم.
- رحمة الرسول ﷺ بأمته وطلبه من ربه التخفيف في الشرائع.
- رحمة الرسول ﷺ بأمته من بعده.
- رحمة الرسول ﷺ بالمخالفين.
- رحمة الرسول ﷺ بالحيوانات والطير وسائر الخلق.

المحور الخامس: نماذج وتطبيقات المسلمين للرحمة مع المسلمين ومع غير المسلمين.

- نماذج لرحمة المسلمين بعضهم بعضًا.
- تطبيقات المسلمين للرحمة مع المخالفين لهم في أثناء دعوته إلى الإسلام.
- تطبيقات المسلمين للرحمة في إغاثة الملهوف ونجدة المكروب.

ومنذ صدور الموافقة على تنظيم هذا المؤتمر والإعلان عنه وعن أهدافه ومحاوره، قدمت للمؤتمر في مرحلة قبول الملخصات أكثر من خمس مئة وثمان وستين ملخص بحثي في جميع محاور المؤتمر، وبعد تحكيم الملخصات تم تقديم ما يقرب من مئتي بحث، قبل منها مئة وثمان وثلاثين بحثًا، مقدمة من مناطق مختلفة من العالم، وأخضعت هذه الأبحاث لقواعد ومعايير التحكيم العلمي المعتاد في مثل هذه المناسبات، وهي إضافات تستحق الإشادة، ويدل ولله الحمد على أهمية هذا المؤتمر والحاجة الماسة إلى انعقاده.

وبتوفيق الله وتسديده وفضله ومنته، وبعد استكمال الاستعدادات اللازمة، تم طبع أبحاث المؤتمر التي تعد موسوعة علمية لأبحاث الرحمة في الإسلام، ومرجعًا في هذا الجانب الدقيق. وتشرف بشرف موضوعها، ومتعلقها، وما يؤمل منها من نشر مفهوم الرحمة في الإسلام.

وفي الختام أشكر إخواني المشاركين في المؤتمر، الذين قدموا أبحاثهم العلمية، وكذلك المدعوين على إجابتهم الدعوة وحضور المؤتمر.

والشكر موصول لجميع الإخوة العاملين في لجان المؤتمر ورؤساء الإدارات على ما بذلوا من جهد، لإنجاح هذا المؤتمر في جوانبه العلمية،

وما أنجزوا من عمل في جوانبه الإدارية والتنظيمية، وأسأل الله بمنه وكرمه أن يبارك في الجهود ويسدد الخطى، وأن يجعل ذلك خالصًا لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

رئيس قسم الدراسات الإسلامية

نائب رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر

أ. د. عبدالعزيز بن سعود الضويحي

مضامين الرحمة
في القرآن الكريم

إعداد:
د. سلطان بن مسفر بن مبارك الصاعدي
معلم بوزارة التعليم - المملكة العربية السعودية
عضو رابطة المتخصصين في الدراسات القرآنية

ملخص البحث

أهداف البحث:

يهدف البحث للأهداف التالية:

- الوقوف على مفهوم الرحمة وسياقاتها في القرآن الكريم.
- بيان المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم.
- تسليط الضوء على المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم.
- إيضاح المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم.

منهج البحث:

اتبع البحث المنهج الوصفي

خطة البحث:

تشمل خطة البحث مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

مقدمة، وتشمل أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجه، وخطة البحث.

المبحث الأول: الرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم.

خاتمة البحث، وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

أهم نتائج البحث:

١. القرآن الكريم كتاب رحمة، وقد وردت كلمة الرحمة فيه أكثر من ثلاث مائة مرة في سياقات وبمعانٍ متعددة.

٢. للرحمة مضامين تربوية متعددة، مثل الرفق واللين، والتربية على الفأل وحسن الظن، ومعرفة النفس البشرية.

٣. تشمل المضامين الاجتماعية على الرحمة الأسرية، والرحمة بالأقارب والأرحام، والرحمة بعموم المؤمنين.

٤. يتمثل خلق الرحمة في دعوات المرسلين في الرحمة الدعوية بالوالد والرحمة بالولد، والرحمة بعموم الأمة.

أهم التوصيات والمقترحات:

١. إنشاء كرسي للرحمة في الإسلام يعنى بنشر ثقافة الرحمة، ويهدف لدعم مسيرة البحث العلمي.

٢. إطلاق "جائزة" عن الرحمة للإنتاج العلمي والإعلامي على المستوى المحلي والدولي.

٣. الاهتمام بطلاب الجامعات المحلية وبالمبتعثين للدراسة في الخارج من خلال دورات ولقاءات عن خلق الرحمة.

المقدمة

يواجه العالم اليوم موجة عنف أتت على الأخضر واليابس، في تسارع محموم، وتزايد غير مسبوق، تغيب فيه بوادر الانفراج، وتموج فيه الأفهام والأفكار، وتكثر فيه الخصام واللجاج، يتولى كبرها فئام من الناس غيرُ ذوي أفهام، غُذّوا بسم زعاف، ويحسبونه سلسبيلًا وسلامًا.

تقابل هذه الموجة عاصفة رعدية غير مطيرة من وسائل اتصال وإعلام، منها محرض، ومنها مؤجج، ومنها مشير بأصابع اتهام، وكأن خصمها اللدود دين الرحمة والسلام، يقابلها جانب خافت على استحياء: إما لهول الصدمة، أو لاضطراب الفكر والأفهام، وإما لقلة علم أو عدم امتلاك وسائل إعلام مماثلة في القوة مغايرة في الاتجاه، تقارع بالحجة، وتكون على المحجة.

في ظل ذلك كله ينصع كتاب ربنا بالحق والبيان، ويبعث حياة الرحمة والأمان، في بيان بديع يبهر الفكر ويأخذ بالألباب، محفوظ من الزيادة والنقصان، هداية ورحمة لأولي الألباب، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]، كتاب ميسر، قريب من الأفهام: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

ولقد أحسن المنظمون لهذا المؤتمر العالمي في اختيار هذا العنوان لبيان رحمة الإسلام، وتسليط الضوء على شيء من معاني الرحمة ومضامينها في كتاب اللّٰه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعليه ومنه انبثق عنوان هذا البحث، لبيان الرحمة ومضامينها من كتاب اللّٰه عز وجل، راجيًا من اللّٰه التوفيق والسداد.

مشكلة البحث:

الرحمة خلق رباني، ومطلب شرعي وإنساني للإنسانية، وتكمن مشكلة البحث في عدم بيان المفهوم والمدلول القرآني للرحمة، ومضامينها التربوية والاجتماعية والدعوية.

أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من خلال النقاط التالية:

- عِظم خلق الرحمة في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.
- وجود مادة علمية واضحة المعالم عن الرحمة في السياق القرآني، والتطبيق النبوي.
- الهجمات الشرسة لتشويه دين الرحمة، ووصفه بالعنف والإرهاب.
- ضعف واضح في تطبيق خلق الرحمة في الميدان التربوي والاجتماعي والدعوي.

أهداف البحث:

- الوقوف على مفهوم الرحمة وسياقاتها في القرآن الكريم.
- بيان المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم.
- تسليط الضوء على المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم.

- إيضاح المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم.

منهج البحث:

المنهج الذي سار عليه الباحث في هذا البحث هو المنهج الوصفي، والذي يعتمد على جمع المعلومات من المصادر والمراجع المرتبطة بموضوع الدراسة، ووصفها، وتوظيفها لخدمة موضوع البحث.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، موزعة على النحو التالي:

مقدمة البحث، وتشمل مشكلة البحث، وأهدافه، ومنهجه، وخطة البحث.

المبحث الأول: الرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم.

خاتمة البحث، وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول
الرحمة في القرآن الكريم

وردت لفظة (الرحمة) في القرآن الكريم بجميع اشتقاقاتها، مفردة ومضافة أكثر من ٣٠٠ مرة[١]، وقد وردت على عدة ألفاظ، منها:

١. رحمة والرحمة، وقد ورد في القرآن (٦٦) مرة.

٢. رحمة ربك ورحمة ربي ورحمة ربه ورحمتك ورحمته، وقد ورد في القرآن (٣٥) مرة.

٣. الرحمن والرحيم والراحمين وأرحم الراحمين ورحيمًا، وقد ورد في القرآن (١٨٢) مرة.

٤. يرحم وترحمون وترحمنا وترحمني ويرحمكم وسيرحمكم وارحمنا، وقد ورد في القرآن (٢٠) مرة.

ولفظ الرحمة أكثر صفات الخير والبر شيوعًا في القرآن الكريم، حيث وردت على النحو التالي مقارنة ببعض الصفات[٢]:

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٨١ – ٤٨٦.
(٢) موقع نبي الرحمة: رابط (www.mercyprophet.org/mul/ar/3301)، تاريخ التصفح ٢٠١٥/٧/١٤م.

ورد صفة الرحمة في القرآن الكريم أكثر من ٣٠٠ مرة		
	الصفة	مرات التكرار في القرآن
	الصدق	١٤٥
	الصبر	٩٠
	العفو	٤٣
	الكرم	٤٢
	الأمانة	٤٠
	الوفاء	٢٩

وفي المطالب التالية يتم تناول معنى الرحمة من خلال بيان معانيها في الاستعمال القرآني، وأيضًا من خلال بيان اللفظات المضادة، والمقارنة للرحمة في القرآن الكريم.

أولًا: معاني الرحمة في الاستعمال القرآني.

كما أن معاني الرحمة تعددت في الاستعمال القرآني للفظة الرحمة، وجاءت الرحمة على عدة معانٍ منها:

١. القرآن، وصف الله ﷻ كتابه بالرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف]، وسبب تخصص الهداية والرحمة بالمؤمنين: "لأنهم المنتفعون منه، وإن كان من جهة أخرى رحمة للعالمين"[(١)].

٢. النبوة والرسالة، قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف]، جاء عند النسفي (ورحمة رَبِّكَ) "أي النبوة، أو دين الله، وما يتبعه من الفوز في المآب"[(٢)].

(١) شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٤/٢٧١.
(٢) أبو البركات عبدالله بن أحمد النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣/٢٧١.

٣. الجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران]، وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين(١).

٤. المطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف]، جاء عن الطبري رحمه الله تعالى تأويل الرحمة بالمطر(٢).

٥. الإحسان والتوفيق، "وأكثر ما ورد في القرآن يتصل بمعنى الإحسان"(٣)، قال تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام]، ومعنى (فقد رحمه) أي: قد أنجاه الله مما يخاف، وأكرمه بما يحب، وأدخله الجنة دار كرامته(٤).

٦. النعمة والرزق، ومن شواهده، قول الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء]، وجاء في معنى الآية: لو تقدرون على مفاتيح رزق ربي لبخلتم، وامتنعتم عن الصدقة، مخافة الفقر. وكان الإنسان قتورًا، أي ممسكًا بخيلا(٥).

ثانيًا: أضداد لفظة الرحمة في الاستعمال القرآني.

و قد جاءت لفظة الرحمة في مقابل عدد من الكلمات، مما يوحي بتعدد معاني الرحمة في الاستعمال القرآني، منها:

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٤٢.
(٢) ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ٤٩٢/١٢.
(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٨١.
(٤) محمد الأمين بن عبدالله الشافعي: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، (٢٣٧/٨).
(٥) نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي: بحر العلوم، ٣٣٠/٢.

١. الرحمة في مقابل العذاب، قال تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف].

٢. الرحمة في مقابل الهلاك، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾ [الملك].

٣. الرحمة في مقابل الضر، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس].

٤. الرحمة في مقابل السوء، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [الروم].

٥. الرحمة في مقابل الشدة والغلظة، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩].

ثالثًا: اقترانات لفظة الرحمة في الاستعمال القرآني.

وقد جاءت لفظة الرحمة أيضًا مقرونة ببعض الألفاظ، منها:

١. الرحمة والمغفرة، قال الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف].

٢. الرحمة والرأفة، و"الرأفة مودة ورحمة"[1]، وهي أشد الرحمة[2]، وجاء في محكم التنزيل: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد].

(١) عبدالله بن أحمد النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤٤٢/٣.
(٢) محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٠٢/٢٣.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

٣. الرحمة والمودة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]، وجاء في تفسير المودة في الآية بالرحمة، والرحمة بالشفقة[١].

٤. الرحمة والذكرى، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، أي: رحمة به من فضل الله، وتذكيرًا لغيره ممن يعبدوننا، ليصبروا كما صبر، ويطمعوا في رحمة الله كما طمع نبي الله[٢].

٥. الرحمة والصلوات، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]، والمراد بالصلوات من الله في هذه الآية المغفرة[٣]، فجمع الله لهم بين المغفرة والرحمة.

٦. الرحمة والتخفيف، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨].

٧. الرحمة والفضل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٤].

كما أن الرحمة جاءت في وصف الباري ﷻ، فهو الرحمن، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء]، وهو سبحانه الرحيم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ

(١) وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير الوسيط، ٣/١٩٩٣، ومحمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، ٢/٤٣٨.
(٢) لجنة من علماء الأزهر: المنتخب في تفسير القرآن، ص ٤٨٣.
(٣) ابن أبي زمنين المالكي: تفسير القرآن العزيز، ١/١٩٠.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٥٢﴾ [النساء]، وجمع الله بينما في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة].

المبحث الثاني
المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم

يتضمن مصطلح التربية عدة دلالات لغوية، فالتربية إصلاح ورعاية، يقول رسول الله ﷺ: «لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ»[1]. والمربي ساعٍ في إصلاح من يتولى تربيته.

والتربية نماء وزيادة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

كما يقصد بها النشأة والترعرع[2]، يقول الله تعالى على لسان فرعون مخاطبًا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

و«أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية»[3] هي كلمة التزكية، وهي لفظة قرآنية، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ

(١) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم ٦٤.
(٢) ابن منظور: لسان العرب، ١/٣٩٩.
(٣) محمد الغزالي: نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، ص ١.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

والله سبحانه وتعالى رب العالمين، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، قال البيضاوي: "الرب في الأصل بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا"(١)، وجاء عند الأصفهاني: "الرب في الأصل، التربية وهو انشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام"(٢).

وعليه فالتربية "تنشئة الانسان شيئًا فشيئًا في جميع جوانبه ابتغاء سعادة الدارين، وفق المنهج الإسلامي"(٣)، القائم على التصور الصحيح لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وفي هذا المبحث ذكر شيء من مظاهر الرحمة في التربية في التقسيمات التالية.

أولًا: الرفق واللين في التربية.

جاء في وصف المؤمنين أنهم رحماء بينهم، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وهذه الرحمة التي يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين تتجلى في تعامل تربوي قائم على الرفق واللين واليسر والسماحة، بعيدًا عن الفظاظة والغلظة، داع للألفة والمحبة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد وصف الله نفسه بالرحمة في غير ما آية، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة]، ورحمته بالمؤمنين سبقت غضبه، قال تعالى: ﴿هُوَ

(١) عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٣.
(٢) الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ١٤٨.
(٣) خالد الحازمي: أصول التربية الإسلامية، ص ١٩.

ﵟٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ﵞ [الأحزاب].

وهي رحمة بالمحسنين والمذنبين، قال تعالى: ﵟوَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ﵞ [النساء]، وتشريعاته ﷻ في كتابه وسنة رسوله رحمة، قال تعالى: ﵟوَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ﵞ [آل عمران]، وقال تعالى: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ﵞ [النساء].

وهذه الرحمة كانت حاضرة في تعامله ﷺ في جميع شؤونه، فها هو النبي ﷺ يضرب لنا أعظم الأمثلة في تربيته لأصحابه بالرفق واللين، فهذا معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه يتكلم في الصلاة؛ فلم يُعنفه ﷺ أو يُوبخه بل قال له بكل رفق: «إنَّ هذه الصلاةَ لا يَصلُحُ فيها شيءٌ من كلام الناسِ، إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآنِ»، يقول معاوية: "فبِأَبي هو وأمِّي! ما رأيتُ مُعَلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه، فـواللّهِ! ما كهَرَني ولا ضرَبَني ولا شتَمَني"[1].

والرحمة بالمخطىء والمذنب والمجانب للصواب تستلين قلبه، وتكبح جماح نفسه، وتطفىء نار الشهوة والشبهة في قلبه، فالله ﷻ يدعو عباده المذنبين، بل المسرفين على أنفسهم بخطاب العبودية، ويفتح لهم باب الرحمة، ويذكرهم بأنه هو الغفور الرحيم، قال تعالى: ﵟقُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ﵞ [الزمر].

إن القول اللين والكلام من قلب مشفق مفتاح من مفاتيح القلوب، وهي وصية الله لنبيه موسى عليه السلام في دعوته لمن أدعى الربوبية، وطغى وتجبر

(١) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم ٥٣٧.

وعادي أولياء الله، وحارب شريعته في الأرض، رجاء التذكرة والموعظة، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

ثانيًا: التربية على الفأل وحسن الظن.

إن تربية الفرد على التفاؤل وعدم اليأس أو القنوط أمر محمود في التربية، قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر]، فالقنوط ضلال يتبعه في الدنيا والآخرة، ومن لم تسعه رحمة الله فلن تسعه الدنيا وعشرة أمثالها وإن طويت بيمينه، والخسارة كل الخسارة أن لا تكتب ممن شملتهم رحمة أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة].

وهذه التربية تربية ربانية، داعية لحسن الظن مع الجد في العمل، وعدم التواني أو التكاسل فيه، فحسن الظن ليس مدعاة للتكاسل والبطالة، جاء عن الحسن البصري: (إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل)[1].

ثالثًا: معرفة طبيعة النفس البشرية واستعداداتها.

إن فهم النفس البشرية واستعداداتها الخلقية والنفسية والعقلية أمر مهم في تحقيق التربية السليمة، وقد راعت الشريعة الربانية تلك الطبيعة في تشريعات كثيرة، فهي من لدن حكيم خبير، وهذه الرحمة دائرة لا محالة مع التشريعات الربانية، علمنا بذلك أو خفي عنا، فالشريعة الربانية كلها رحمة، إذ فيها النجاة والسلامة والسعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة].

(١) رواه أحمد في كتاب الزهد، ص٣٤٨.

فالله سبحانه وتعالى خفف في القصاص من القاتل تخفيفًا على المؤمنين ورحمة بهم، فالنفس تنشد البقاء وتسعى للحياة، وفي القصاص حياة للمؤمنين بردع المعتدي، ولكن التشريعات جعلت من العفو عن القاتل تخفيفًا عليه ورحمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة].

ومن طبيعة النفس البشرية الشح والبخل والتقتير وخشية الإنفاق مما تملك، وعليه لا بد من مراعاة ذلك في التربية، فلا نكلف النفس ولا من نقوم بتربيتهم الإنفاق المجحف، بل نتدرج معهم بالترغيب والترهيب في الإنفاق المقسط، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء].

وبعض النفوس البشرية مجبولة على الطغيان، ولا تنفع معها التربية ولا الترويض، فلا تملك تلك النفوس مقومات الهداية والرشاد، بما وقر في قلوبها من العلو والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون]، فهي حالهم، وإن أخذوا بالعذاب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ [المؤمنون].

المبحث الثالث
المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم

خلق الإنسان اجتماعيًّا بطبعه، يألف الجماعة ويكره الانفراد، وخُلُق الرحمة داعٍ للتآلف والاجتماع، نابذ للتنافر والفرقة، ولا يمكن لمجتمع لا تسوده الرحمة أن يرتقي بأفراده، وأن يكون خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى عن أمة الرحمة أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

وهذه الخيرية لهذا المجتمع حصلت بالإيمان بالله الرحمن الرحيم، وبالأمر بالمعروف الجامع لكل خير ورحمة، وبالنهي عن المنكر الجالب لكل بلية ونقمة، وهذا الطريق طريق الرحمة لا يزال بالمؤمن حتى يكون ممن ابيضت وجوههم، وفازوا برحمة الله في الآخر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

وفي هذه المبحث يمكن تناول العلاقات الاجتماعية على دوائر ثلاث: دائرة الأسرة، ثم دائرة الأقارب، وأخيرًا دائرة عموم المؤمنين.

أولًا: الرحمة الأسرية.

العلاقة بين الزوجين علاقة مودة ورحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم]، فالرحمة في العلاقة الزوجية رحمة مقصودة لتستقر الحياة الزوجية وتستمر ويسعد بها أفرادها.

والأبناء والذرية من أسباب الرحمة، وبعضهم أقرب للرحمة والتزكية من بعض، قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف]، لذا كان السعي في طلب الولد والسعي في صلاحه مطلب الصالحين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان].

وتستمر الرحمة الأسرية لتشمل رحمة الأبناء بالوالدين، رحمة يردّون بها معروف التربية ويؤجرون عليها، رحمة تستوجب خفض الجناح والدعاء لهم، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء].

ثانيًا: الرحمة بالأقارب والأرحام.

الأرحام من الرحم، والرحمة موصولة بمن وصل حقهم، وراع قرابته، قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا اللّه، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها إسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»[1]، ونهى سبحانه وتعالى عن قطع الرحم، وقرنها بالفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [محمد].

والأرحام حقهم عظيم، كانت تعظمه العرب في الجاهلية، وأوصى الإسلام بحفظ حقهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء].

كما حذر سبحانه وتعالى من الركون للأرحام، والاتكال على القرابة والنسب وعدم

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، برقم (١٩٠٧)، والطبراني في الأوسط، ٣/٤٣٠.

الاستعداد لليوم الآخر بالعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة].

ثالثًا: الرحمة بعموم المؤمنين.

جاء في وصف الرسول محمد ﷺ والمؤمنين بأنهم رحماء بينهم، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] فالرحمة دائرة بينهم، حالة في كل حال كانوا عليه، وهي رحمة تستوجب جمع الكلمة، والرفق بالصغير، واحترام الكبير، وجلب الخير للغير، ودفع الضر عنه.

وهذه الرحمة هبة ربانية، يجعلها الله في قلوب أتباع أنبيائه، كما قال تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

والمجتمع المؤمن مجتمع الرحمة والسلام، تولى أمرهم أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤]، وجنبهم ولاية المفسدين والطاغين في الأرض، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

والمجتمع المؤمن مجتمع تتراحم فيه القلوب وتتآلف، تسري فيهم الرحمة كما يسري الدم في العروق، لتحيا وتبقى، ويوصي بعضهم بعضًا

بالمرحمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧﴾ [البلد]، فهي مرحمة ورحمة تحقق الإيمان في القلوب، وتتدثر بدثار الصبر والاحتساب.

وقد وصف رسول الله ﷺ هذا المجتمع بالجسد الواحد، الذي تسري فيه الرحمة من القلب، لتتصل بكل عضو من أعضاء الجسد، وتتداعى فيه الأعضاء لمواساة صاحب الشكوى والضر والألم، قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

إن مجتمعًا يتخذ من الرحمة شعار التلاقي والتآخي، لمجتمع تتربع الرحمة فيه على قلب كل فرد من أفرادها، كيف لا، وتحية المؤمنين إذا التقوا الدعاء بالسلامة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء]، فلا تزال به هذه الرحمة حتى تجعله يمشي على الأرض هونًا، ومنطقه إذا خاطبه الجاهلون منطق الرحمة والسلام، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ٦٣﴾ [الفرقان].

وأهل الإحسان هم أهل رحمة الله، ولا يجتمع الإحسان والفساد في قلب واحد إلا أخرج أحدهما الآخر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف]، ومن صور الإحسان السعي في الأرض بالإصلاح، ولا إصلاح بلا رحمة.

(١) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٢٥٨٦.

المبحث الرابع
المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم

الدعوة لله مهمة الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده، جعل الله أهلها أهل الفلاح، قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران]، فازوا بالخير والفلاح، ونجوا من الخسران والتحسر والندامة.

وفي هذا المبحث نبين رحمة أنبياء الله صلوات الله عليهم أجمعين في دعوة قومهم حتى نهتدي بهديهم ونستن بسنتهم، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام].

وهذه الرحمة نعمة الله على عباده، أنزلها في قلوب أنبيائه، حتى تصل دعوتهم وتأَلّفُهُم القلوب، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران].

وهذه النماذج دائرة في مجالات عدة من الدعوة، فمن دعوة الوالد ولده كـ(نوح عليه السلام مع ابنه)، ومن دعوة الولد والده كـ(إبراهيم عليه السلام مع أبيه)، ومن دعوة الفرد قبيلته وأمته كـ(محمد ﷺ مع أقاربه وأمته)[1]، وعليه جرى التقسيم على النحو التالي:

(١) وهم عليهم السلام في ذلك كله أنبياء ودعاة توحيد وملة حسنة، وهم حجة على أهل زمانهم، والتقسيم هذا لأغراض البحث والتقصي، ولبيان القدوة في مجالات الدعوة المختلفة.

أولًا: إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام كان أمة قانتًا لله حنيفًا ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]، وكان عليه السلام صديقًا نبيًا، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم]، وأوتي ملة حنيفية سمحة، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد تمثلت الرحمة في شخصه ودعوته عليه السلام، كما حكى القرآن عن رحمته مع أبيه، وكيف كانت دعوته إياه بالتلطف والتودد، لكن ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص].

إن رحمة إبراهيم عليه السلام بأبيه رحمة جمعت رحمة الطامع في الإجابة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم]، ورحمة المشفق عليه من العذاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم].

وهذه الرحمة لم تنقطع حتى بعد عدم قبول الدين والتوعد بالرجم، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم]، بل تجسدت في صورة أخرى من صور الرحمة، ألا وهي الدعاء له بالمغفرة، فتولى إبراهيم عليه السلام، وألقى على أبيه السلام عنوان التراحم والسلامة ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧]، ثم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم:٤٧].

إن هذه الرحمة من النبي الكريم عليه السلام لم تكن لتجعل إبراهيم يداهن في الحق أو يكتم أمرًا أنزله الله إليه، أو يكون معهم في شركهم وعبادتهم، كلا وحاشاه، بل اعتزلهم وشركهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم]، وهذه -والله- معيار

الرحمة الصادقة المستمدة ممن كتب على نفسه الرحمة، تفضلًا وإنعامًا، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

ثانيًا: نوح عليه السلام.

المطالع في دعوة نوح عليه السلام لقومه يرى فيها الصبر والرحمة، تتجلى في أبهى صورة، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم لتوحيد الله، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، فما استجابوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وفي دعوته عليه السلام تطالعك رحمة الوالد بولده، فبعد أن أوحى له ربه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]، وبعد أن شاهد عذابه بالمكذبين ونجاته للمصدقين في الفلك ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢]، أخذته شفقة الأب بابنه ورحمته إياه، وطمع في مغفرة أرحم الراحمين، فكان أن ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

وهذه الرحمة التي قذفها الله في قلوب عباده، لا تحيد ولا تميل بالنبي الكريم عن قول الحق، وبيان طريق الهدى والرشاد، فبين لابنه طريق العصمة من عذاب الله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، في الرد على ابنه عندما بحث عن طريق النجاة وأضله هواه وما هداه: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٤٣].

ثم إن فصول الرحمة في دعوة هذا النبي الكريم لابنه تستمر حتى بعد حصول العذاب وهلاك الظالمين: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود]، فما إن استقر نوح عليه السلام واستوى به فلك النجاة، حتى نادى ربه ودعاه لابنه، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود].

إنها رحمة فطرية، لا تثريب عليه فيها، ولكن لا ينفع العبد عند ربه لا نسب ولا قرابة إلا العملُ الصالح، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود].

وعندها علم نوح أن ابنه ليس من الناجين فاستغفر ربه وسأله الرحمة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود]، وذكره عليه السلام للرحمة هنا ذكر للسبب الداعي لمناجاة ربه في نجاة ابنه، وبيان أن نجاة العبد برحمة ربه، وخسارته بحرمانه منها.

ثالثًا: محمد ﷺ.

لقد امتن اللّه على هذه الأمة ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام الرؤوف الرحيم، فقال اللّه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة]، فحرصه ﷺ على أمته وشفقته عليه بما وقر في قلبه من الرأفة والرحمة بهم.

وهذه الرحمة شملت المؤمنين كلهم القريب منهم والبعيد، الحاضر منهم والغائب، قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة].

بل كان مبعثه ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، "فاللّه أرسل نبيه محمدًا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن اللّه هداه به، وأدخله الإيمان به وبالعمل بما جاء من عند اللّه الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله"[1]، وفي هذا إمهال

(١) ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٥٤/٥.

له للتوبة والإنابة، ومن تاب تاب الله عليه، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفرقان].

وصور الرحمة في دعوته ﷺ كثيرة ومجالاتها متعددة، ولعلنا في التعريج على بعض الأمثلة يتجلى خلق الرحمة في دعوته ﷺ، وقد أجمل الله خلقه فقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ [القلم].

وهي رحمة جمعت القلوب تحت كنفه، فكانت لا تُرى إلا بنوره، ولا تَستنير إلا بهداه، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران].

وهي رحمة للمؤمنين وبالمؤمنين، لامست قلوب أصحابه، فاستضاءت برحمة من الله وفضل، وحصل بها التراحم بينهم، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح].

ومن صور رحمته بأمته أن نصح لهم، وبين لهم شرائع دينهم، وتركهم على المحجة البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وشهد بذلك رب العالمين في كتابه المبين، فقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣].

ومن رحمته ﷺ بأمته أجمعين أنه خَبَّأَ دعوته المستجابة وإدخرها لتكون شفاعة لهم يوم القيامة، وقد قال ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»(١).

(١) محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة،

وكان ﷺ الرحمة المهداة إذا رأى الريح والغيم في السماء تغير وجهه خوفًا وشفقة ورحمة بأمته، فإذا أمطرت سري عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عُرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك، قالت عائشة: فسألته فقال: «إني خشيت أن يكون عذابًا سلط على أمتي»(١).

حديث رقم (٦٣٠٤).

(١) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، حديث رقم (٨٩٩)

الخاتمة

أولاً: نتائج البحث.

١. القرآن الكريم كتاب رحمة وهداية، وقد وردت كلمة الرحمة فيه أكثر من ثلاث مائة مرة في سياقات وبمعانٍ متعددة.

٢. للرحمة معان كثيرة، تدل في مجملها على الفضل والنعمة والسعة والتخفيف.

٣. تقابل الرحمة في الاستعمال القرآني ألفاظ عديدة، مثل الضر والعذاب والهلاك والسوء.

٤. تقترن لفظة الرحمة في الاستعمال القرآني مع ألفاظ مختلفة، مثل المغفرة والرأفة والرحمة والمودة.

٥. للرحمة مضامين تربوية في الاستعمال القرآني، مثل الرفق واللين في التربية، والتربية على الفأل وحسن الظن، ومعرفة طبيعة النفس البشرية.

٦. تشمل المضامين الاجتماعية للرحمة في الاستعمال القرآني: الرحمة الأسرية، والرحمة بالأقارب والأرحام، والرحمة بعموم المؤمنين.

٧. يتمثل خلق الرحمة في دعوات المرسلين على اختلاف البيئات

والحالات، فهناك الرحمة الدعوية بالوالد، والرحمة الدعوية بالولد، والرحمة الدعوية بعموم الأمة.

ثانيًا: التوصيات والمقترحات.

١. العمل على إصدار موسوعة علمية عن الرحمة في الإسلام، تجمع بحوث المؤتمر، ويستكتب لها المتخصصين من أصحاب الكفاءات.

٢. ترجمة بحوث الرحمة في المؤتمر للغات الحية، ونشرها على مواقع الشبكة العالمية، وفي شبكات التواصل الاجتماعي.

٣. إنشاء كرسي للرحمة في الإسلام، يعنى بنشر ثقافة الرحمة، ويهدف لدعم مسيرة البحث العلمي عن الرحمة في الإسلام، والرد على شبهات المشككين في دين الرحمة.

٤. إطلاق "جائزة" عن الرحمة للإنتاج العلمي والإعلامي على المستوى المحلي والدولي.

٥. الاهتمام بطلاب العلم في الجامعات المحلية وبالمبتعثين للدراسة في الخارج من خلال دورات ولقاءات عن خلق الرحمة في التعامل مع النفس والغير.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. ابن أبي زمنين المالكي: تفسير القرآن العزيز، دار الفاروق الحديثة- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٢. ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ. تحقيق أحمد محمد شاكر.
٣. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
٤. أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد الشامي: المعجم الأوسط، دار الحرمين - القاهرة. تحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني.
٥. أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، دار النهضة العربية - القاهرة، طبعة عام ١٩٨١م. تحقيق محمد جلال شرف.
٦. الأصفهاني، الحسن بن علي: المفردات في غريب القرآن، دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ. تحقيق صفوان عدنان الداودي.
٧. خالد الحازمي: أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب - بيروت، ١٤٢٠هـ.
٨. شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. تحقيق علي عبدالباري عطية.
٩. عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ. تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي.

١٠. عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ. تحقيق عبدالرحمن معلا اللويحق.
١١. عبدالله بن أحمد النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكلم الطيب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ. تحقيق يوسف علي بديوي.
١٢. محمد الأمين بن عبدالله الشافعي: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ. مراجعة هاشم محمد علي ابن حسين مهدي
١٣. لجنة من علماء الأزهر: المنتخب في تفسير القرآن، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر، الطبعة ١٨/١٤١٦هـ.
١٤. محمد الغزالي: نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، ضمن بحوث ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية المنعقدة في جامعة أم القرى في مكة المكرمة خلال الفترة من ١١-١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، مركز البحوث التربوية والنفسية.
١٥. محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
١٦. محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ. تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبدالباقي.
١٧. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار الصابوني – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١٨. مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

١٩. مجموعة مؤلفين: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية – مصر، ١٤٠٩هـ.
٢٠. نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي: بحر العلوم، دار الكتب العلمية – بيروت.
٢١. وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير الوسيط، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

- المواقع الإلكترونية:

١. موقع نبي الرحمة: رابط (www.mercyprophet.org).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم

إعداد:
أ. حمدان بن لافي بن جابر العنزي
المحاضر في قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الحدود الشمالية

مقدمة

إن الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد:

فإن اللّه سبحانه وتعالى جمع لنبيه ﷺ أنواع الفضائل، وجميل الأخلاق والشمائل، ووصفه بصفات الكمال، وأبعد عنه صفات النقص والمعايب، ومن أخص صفاته التي وصفه بها وله منها الحظ الأوفى، صفة الرحمة؛ فإن اللّه سبحانه وتعالى أرسله لذلك، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

ولإبراز هذه الرحمة التي وصف اللّه بها سبحانه وتعالى نبيه في آيات من كتابه؛ رأيت الكتابة عنها في هذ البحث المختصر الذي جعلت عنوانه: «رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم»؛ كأحد البحوث المقدَّمة إلى المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام؛ والذي سيعقد في رحاب جامعة الملك سعود في مدينة الرياض، خلال الفترة ٢٨-٣٠/٤/١٤٣٧هـ.

فما كان فيه من صواب فمن اللّه وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، واللّه ورسوله بريئان.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. التعرف على الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة في القرآن الكريم.

٢. تأصيل خلق الرحمة من خلال الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، سواء أكان من خلال الألفاظ التي وردت فيها، أم من خلال المعاني التي تضمنتها.

٣. إخراج دراسة قرآنية تجلي صفة الرحمة عند نبي الرحمة ﷺ؛ ليأخذ منها القارئ الكريم الدروس والعبر.

مشكلة البحث:

تتمثل في أنه وردت عدة آيات وصف بها الله نبيه ﷺ بالرحمة، بألفاظ متنوعة، وبأساليب مختلفة، مما يستلزم معه جمع تلك الآيات، ومحاولة التعرف على تلك الألفاظ، وتلك الأساليب التي وردت في تلك الآيات، وتأصيل وبيان دلالتها على الرحمة.

حدود البحث:

سأقتصر في هذا البحث على دراسة الآيات، التي وصف الله فيها نبيه ﷺ بالرحمة في القرآن الكريم، وهي أربع آيات[١]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

(١) اقتصرتُ على موضع الشاهد من الآية؛ وسيأتي ذكر الآية بتمامها في موضعها من البحث.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

أهمية البحث وأسباب اختياره:

دفعني لاختيار الموضوع الأسباب التالية:

١. شرفه؛ لكونه متعلقًا بالقرآن الكريم، وبنبي الرحمة ﷺ.

٢. اشتمال عدد من آيات القرآن الكريم على وصف النبي ﷺ بالرحمة؛ مما يستدعي جمع تلك الآيات، وإفرادها في بحث مستقل.

٣. أن هذا البحث من أقل الواجب تجاه نبي الرحمة ﷺ؛ هذا من حيث العموم، فكيف إذا سمعنا من ينتقص منه ﷺ، ويصفه ﷺ ودينه بالغلظة وعدم الرحمة.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

خطة البحث:

وقد قسمتُ هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس علمية، على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: أهداف البحث، ومشكلة البحث، وحدود البحث، وأهمية البحث وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطة البحث، وإجراءات البحث.

التمهيد: ويشتمل على ما يلي:

أولًا: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

ثانيًا: إنعام الله ﷻ وتفضله على نبيه ﷺ بالرحمة.

المبحث الأول: الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها، وتحته ثلاث مطالب:

المطلب الأول: لفظ اللين الموصوف به ﷺ.

المطلب الثاني: الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ.

المطلب الثالث: الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه ﷺ.

المبحث الثاني: أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في القرآن الكريم، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: رحمته ﷺ للعالمين.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ للمؤمنين خاصة.

الخاتمة.

فهرس المصادر والمراجع.

إجراءات البحث.

يمكن تلخيص إجراءات البحث في التالي:

١. جمع الآيات التي تتعلق بموضوع رحمة النبي ﷺ، وتوزيعها حسب خطة البحث.

٢. دراسة موضوع رحمة النبي ﷺ في تلك الآيات، دراسة تحليلية مقارنة، وذلك من خلال جمع كلام المفسرين وغيرهم على تلك الآيات، ومحاولة تأصيل خلق الرحمة من خلال ذلك.

٣. عزو الآيات وترقيمها؛ بذكر اسم السورة مع رقم الآية، ووضعها بين قوسين، وذلك بعد نهاية الآية المنقولة، وسأعتمد في نسخ نص الآية على مصحف المدينة.

٤. تخريج الأحاديث الواردة في البحث، ونقل أقوال العلماء في الحكم عليها تصحيحًا أو تضعيفًا؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين.

٥. إيضاح الكلمات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

٦. ختم البحث بخاتمة فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

٧. تزويد البحث بالفهارس التالية: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

أولًا: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

أ. تعريف الرحمة في اللغة:

تدور مادة: (ر ح م) حول معنى الرقَّة، والعطف.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحمة بمعنًى»(١).

وقال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة: الرقة والتعطف...، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه»(٢).

ب. تعريف الرحمة في الاصطلاح:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات، مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم الله فلانًا»(٣).

(١) مقاييس اللغة، مادة رحم (٣/٣٩٨).
(٢) لسان العرب (١٢/٢٣١).
(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة (رحم) (١٩١).

وقال الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان»(١).

وقال الشيخ عبدالرحمن الدوسري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم»(٢).

وعرفها بعض الباحثين بقوله: «رقة يجدها المخلوق في قلبه، تحمله على العطف والإحسان إلى سواه، ومواساته، وتخفيف آلامه»(٣).

هذا ما يتعلق بتعريف الرحمة في حق المخلوق.

وأما الرحمة بالنسبة للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له جل جلاله، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وهي أيضًا صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال جل جلاله، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال جل جلاله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣](٤).

ثانيًا: إنعام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتفضله على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منته على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن جعله رحيمًا رؤوفًا بالمؤمنين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩](٥)؛ فأسند الرحمة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه المتفضل بها؛ ولأن إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة(٦).

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَنبَّه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]

(١) الكليات (ص٤٧١).
(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (٤/٣٨٧).
(٣) الرحمة في القرآن الكريم لموسى عسيري (ص٢١، ٢٢).
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن (١/٢٤).
(٥) انظر: بحر العلوم (١/٢٨٥).
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم (٢/٣٦٢).

على نعمته على النبي ﷺ أولًا، وعلى أمّته ثانيًا، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]. الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]»(١).

فبسب الرحمة العظيمة التي أنزلها على قلبه وخصه بها، كان على جانب عظيم من اللين واللطف بصحابته، بحيث لم يروا منه توبيخًا ولا تعنيفًا، بل تجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق رسوله ﷺ، بحيث عمت جميع المؤمنين، ولا شك أن اللّه منحه رحمة عظيمة بجانب ما حصل منهم يوم أُحُد(٢).

وقد جاء في آيات أخر ما يؤيد هذا الإنعام والتفضل من اللّه ﷻ على نبيه بهذه الرحمة؛ وذلك بما أوحاه اللّه إليه من الوحي؛ فكان ذلك رحمة من اللّه له ولأمته، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٦].

فبعثة الرسول بما أوحاه اللّه إليه من الوحي رحمة من اللّه له ولهم(٣)؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة اللّه به للعباد(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦].

فالآية تذكير لنعمه ﷻ على رسوله، وأنه ﷻ رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاؤه(٥)، فالاستثناء في ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يرجو أن يبعثه اللّه بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد

(١) تفسير الراغب (٢/٥٩٠).
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٤/٣٨٧).
(٣) انظر: جامع البيان (١٩/٥٨٦).
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٦١٧).
(٥) انظر: البحر المحيط (٧/١٣٢).

رحمة من الله ﷻ به واصطفاء له[١]، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[٢].

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤).
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٦٢٥).

المبحث الأول
الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها

ورد في الآيات التي وصف الله فيها نبيه ﷺ بالرحمة ألفاظ مقاربة للرحمة في معناها: كلفظي اللين والرأفة، وأخرى مُقَابِلة لها: كلفظي الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ، وسأعرض لمعاني تلك الألفاظ ودلالتها على الرحمة من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول
لفظ اللين الموصوف به ﷺ

جعل الله لين نبيه ﷺ مصاحبًا لرحمة أودعها فيه[١]، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] واللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني[٢].

وعبر بالفعل الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾؛ للدلالة على أن ذلك وصف تقرر

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤٥/٤)
(٢) المفردات، مادة (لين) (ص٤٥٧).

وعرف من خُلُقِه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله، إذ خلقه كذلك، والله أعلم حيث يجعل رسالته(١).

أثنى الله ﷻ في هذه الآية على نبيه باللين للمؤمنين(٢)؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط في القول معهم، ولم يسرع إليهم فيما كان منهم يوم أُحُدٍ(٣).

قال الطبري رحمه الله: «﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي لأتباعك وأصحابك، فسُهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمَه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك، ففارقك ولم يتَّبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم»(٤).

ومنشأ هذه الرحمة أن الله العليم الحكيم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هو الذي أعلمه بسلامة صدورهم، وأن ما حصل منهم ليس عن خيانة لدين الله ورسوله، وإنما حصل بسبب ملابسات شيطانية، منها الغرور بالانتصار بادىء الأمر؛ مما حدا ببعضهم إلى الطمع في الغنيمة وهم أهل الثغر، ثم صيحة الشيطان بقتل رسول الله ﷺ، وما حصل عليهم من الإرجاف من جهة المنافقين(٥).

ومعاملته لهم ﷺ بذلك؛ يدل على أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينًا ليتعرض لرحمة الله ﷻ؛ فهذا رسول الله ﷺ سيد قومه بل سيد الأمة جميعًا، فألَانه الله لهم(٦).

قال ابن سعدي رحمه الله: «فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤٥/٤)
(٢) انظر: أضواء البيان (١٣٦/٢).
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب (١٧/٦).
(٤) جامع البيان (١٨٦/٦).
(٥) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٣٨٧/٤).
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم (٣٦٧/٢)، والعذب النمير (٢/ ١٧٦).

الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله»[1].

المطلب الثاني
الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ

من رحمة الله في حق نبيه ﷺ أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩][2].

جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه ﷺ، كما في هذه الآية الكريمة، وهو أيضًا ما جاء في صفته ﷺ في الكتب السابقة للقرآن؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أنه رأي صفة رسول الله في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا سَخّاب[3] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[4].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: هو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] »[5].

واستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ والنساء حوله: فأذن

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥٤).
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٣٨٨/٤، ٣٨٧).
(٣) السّخَب والصّخَب: بمعنى الصياح. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة سخب (٨٨٤/٢).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٧٤٧/٢)، ح (٢٠١٨).
(٥) فتح الباري (٥٨٦/٨).

له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله[1]، قال: عجبتُ من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن، ثم قال: أي عَدُوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»[2].

وفي سر الجمع بين الفظاظة والغلظة في الآية الكريمة، وفي الحديث الشريف رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن الفظاظة والغلظة بمعنىً واحد، وجمع بينهما للتأكيد.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما الغليظ القلب فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظة والغلظة وإن كانا بمعنىً واحد توكيدًا»[3].

وهذا ما ذكره بعض أهل العلم أيضًا في سر الجمع بين الفظاظة والغلظة، فيما وصف به النساء عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «قلن: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله»، الفظ والغليظ بمعنى، وهو عبارة عن شدة الخلق وخشونة الجانب»[4].

الرأي الثاني: أن الفظاظة والغلظة ليسا بمعنى واحد، والجمع بينهما ليس للتأكيد.

وهذا يستدعي عرض أقوال أهل العلم في المراد بكل منهما، فأقول وبالله التوفيق:

---

(١) قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ««قوله: أضحكِ الله سنك»: لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك؛ بل لازِمُه، وهو السرور، أو نفي ضد لازمه وهو الحُزن» فتح الباري (٧/٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صَحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العَدَوِيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٣/١٣٤٧)، ح (٣٤٨٠) ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، (٤/١٨٦٣)، ح (٢٣٩٦).

(٣) زاد المسير (١/٤٨٦). وانظر: النكت والعيون (١/٤٣٣)، والبحر المحيط (٣/١٠٤).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٥/١٦٥).

أمَّا قوله: ﴿فَظًّا﴾.

فيقول ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفاء والظاء كلمةٌ تدلُّ على كراهة وتكرُّه. من ذلك الفَظ: ماءُ الكَرِش. وافتُظَّ الكرش، إذا اعتُصر، قال بعضُ أهل اللُّغة: إنَّ الفَظاظةَ من هذا. يقال رجلٌ فظٌّ: كريه الخُلُق. وهو من فَظِّ الكَرِش، لأنه لا يُتناول إلاَّ ضرورةً على كراهة»[١].

والفظاظة في الآية راجع إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق؛ وهو ما ذكره المفسرون بقولهم: الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلا[٢].

وأمَّا قوله: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾.

فيقول ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغِلْظُ والغِلْظُ: ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك، ورجل غليظ: فيه غلظة وفظاظة وقساوة وشدة. وفي التنزيل: ﴿فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾»[٣].

فالمراد بقوله: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسي القلب. وعلى هذا القول جمهور المفسرين[٤].

إن التفريق بين الفظاظة والغلظة في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد[٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفظ الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلامِ؛ قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألاَن جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم»[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، مادة فظ (٤/٤٤١).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (١/٥٣٣)، والبحر المحيط (٣/١٠٤)، وإرشاد العقل السليم (٢/١٠٥).
(٣) لسان العرب، مادة غلظ (٧/٤٤٩).
(٤) انظر: جامع البيان (٥/١٥١)، وتفسير القرآن للسمعاني (١/٣٧٢)، والكشاف (١/٤٥٩).
(٥) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (٢ /٤٧٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/١٤٨).

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفظاظة: الجفوة في العِشْرَة قولًا وفعلًا، والغِلْظُ: قساوة القلب، وهذا أحسن مِنْ قول من جعلهما بمعنىً، وجمع بينهما تأكيدًا»(١).

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] لا يعارض قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣، والتحريم:٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض شرحه لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفَظٍّ ولا غليظ»: «قوله: «ليس بفَظٍّ ولا غليظ»: هو موافق لقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولا يعارض قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]؛ لأن النفي محمول على طبعه الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة للمؤمنين والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين، كما هو مصرح به في نفس الآية»(٢).

وكذلك في قول النساء لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله» فإنه يفهم منه الاشتراك بين النبي ﷺ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أصل الفعل، وهو الفظاظة والغلظة، وهذا أيضًا يعارض قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ «قوله: «أنت أفظ وأغلظ» صيغة أفعل التفضيل من الفظاظة والغلظة؛ وهو يقتضي الشركة في أصل الفعل، ويعارضه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ إنه يقتضي أنه لم يكن فظًّا ولا غليظًا، والجواب: أن الذي في الآية يقتضي نفي وجود ذلك له

(١) الدر المصون (٣/٤٦٣).
(٢) فتح الباري (٨/٥٨٦).

صفة لازمة فلا يستلزم ما في الحديث ذلك، بل مجرد وجود الصفة له في بعض الأحوال وهو عند إنكار المنكر مثلًا -والله أعلم-»[1].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لحديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وفي هذا الحديث فضل لين الجانب والحلم والرفق ما لم يفوت مقصودًا شرعيًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨]»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]: "«وقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان]، وكقول بعض الصحابيات لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ»"[3].

وحمل ابن عطية غلظة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على الشدة في دين الله، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الجواري لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ»؛ الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إنما كانت مستعملة منه آلة لعضد الحق، والشدة في الدين»[4] -والله تعالى أعلم-.

فرحمة النبي ﷺ لا يقاربه فيها أحد من الخلق، وهذه الرحمة ظهرت آثارها في معاملته للخلق، ولا تنافي قوة القلب وصبره، فقد كان أصبر الخلق وأشجعهم وأقواهم قلبًا مع كمال رحمته، فقوة القلب من آثارها الصبر والحلم والشجاعة القولية والفعلية، والقيام التام بأمر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورحمة القلب من آثارها: الشفقة والحنو والنصيحة،

(١) فتح الباري (٨/٥٨٦).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/١٦٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٦٢).
(٤) المحرر الوجيز (٣/٣٩٦).

وبذل الإحسان المتنوع، فأي أخلاق تقارب هذه الأخلاق السامية الجلية. فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور، ورحمته تنفي القسوة والغلظة والشراسة(1).

المطلب الثالث
الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه ﷺ

كانت سورة التوبة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرًا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه، فجاءت خاتمة هذه السورة بتذكير المؤمنين بالمنة ببعثة محمد ﷺ، ومن مظاهر الرحمة التي جعلها اللّه سبحانه وتعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]؛ أن جاء بما يزيل الحرج من قلوب الذين نزلت فيهم آيات الشدة، وعوملوا بالغلظة، تعقيبًا للشدة بالرفق، وللغلظة بالرحمة، فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة](2).

وصف اللّه سبحانه وتعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣] وهذا نهاية الكرامة(3).

وجمهور أهل العلم على أن الرَّأفة أخص من الرحمة، ومما ذكروه على هذا المعنى قولهم:

---

(١) انظر: فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (ص١١٤).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧٠/١١).
(٣) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (٣٦٣/٢)، والجامع لأحكام القرآن (٤٤٢/١٠).

الرَّأفة: أشد الرحمة(١)، أو الرَّأفة: أعلى معاني الرحمة(٢)، أو الرَّأفة: ألطف الرحمة وأرقها(٣).

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»(٤).

فالرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها(٥).

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو ﷺ يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم(٦).

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصًّا وهو قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(٧)؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين، فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم(٨).

قال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتخصيص رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين - لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته ﷺ، ولكن منهم من قبلها، ومنهم من ردَّها، وقد بينَّا

(١) انظر: مجاز القرآن (٥٩/١)، وتفسير القرآن للسمعاني (٣٧٩/٥)، ومعالم التنزيل (١٢٤/١).
(٢) انظر: جامع البيان (١٨/٢)، والمحرر الوجيز (٢٢١/١).
(٣) انظر: مدارج السالكين (٥١٨/١).
(٤) تفسير أسماء الله الحسنى (ص٦٢).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (٤٢١/٢٧).
(٦) انظر: روح المعاني (٥٢/١١).
(٧) انظر: البحر المحيط (١٢٠/٥).
(٨) انظر: التحرير والتنوير (٧٣/١١).

في تفسير ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:٧٣] أنه إنما أُمر بذلك ﷺ، لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]»[١].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في معنى رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين.

فقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بغيرهم[٢].

والظاهر تعلق الصفتين بجميع المؤمنين دون تخصيص[٣].

قال الآلوسي رحمه الله: «وزعم بعضهم أن المراد: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رءوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، وقيل: رؤوف بمن يراه، رحيم بمن لم يره، ولا مستند لشيء من ذلك»[٤].

-والله تعالى أعلم-.

(١) تفسير المنار (٧٢/١١).
(٢) انظر: الكشف والبيان (١١٤/٥)، والبحر المحيط (١٢٢/٥).
(٣) انظر: البحر المحيط (١٢٢/٥).
(٤) روح المعاني (٥٣/١١، ٥٤).

المبحث الثاني
أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في القرآن الكريم

تنوعت الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في الآيات التي وردت فيها، وسيكون الحديث عنها من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول
رحمته ﷺ للعالمين

إرسال النبي ﷺ من أعظم النعمة على الخلق، وفيه أعظم حكمة للخالق، ورحمة منه لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء][1].

اشتملت هذه الآية بوَجَازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ، ومدح مُرسله سبحانه وتعالى، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله سبحانه وتعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه[2].

والرحمة على عمومها[3] في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٩٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٥).
(٣) وذهب عبدالرحمن بن زيد إلى أن المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، فهو رحمة للمؤمن. انظر معالم التنزيل (٥/ ٣٥٩). قال الشوكاني رحمه الله: «﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] أي: =

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته[1]؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين، حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته»[3].

الوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة[4].

= وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس...، وقيل المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، والأول أولى؛ بدليل قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال:٣٣]» فتح القدير (٣/٥٨٧).

(١) وهو الذي رجحه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: جامع البيان (١٨/٥٥٢).

(٢) انظر: بحر العلوم (٢/٤٤٥).

(٣) جلاء الأفهام (ص٢٨٩، ٢٨٨).

(٤) وهذا الوجه رجَّحه ابن كثير، والشنقيطي، وابن سعدي -رحمهم الله-. انظر: تفسير القرآن العظيم (٥/٣٨٥)، وأضواء البيان (٤/٢٨٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص٥٣٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض»(1).

وقال ابن جُزي رحمه الله: «فإن قيل رحمة للعالمين عموم، والكفار لم يرحموا به؟ فالجواب: أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم»(2).

وقال الشنقيطي رحمه الله: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة:61] «في هذه الآية سؤال معروف؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ فقيد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين.

والجواب عنه: أن الله جل جلاله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يَحُزْها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يَحُزْها.

وضرب العلماء لهذا مثلًا، قالوا: لو أن سلطان البلد مثلًا -ولله المثل الأعلى- أرسل لجميع سكان البلد إنعامًا كثيرًا كأن أجرى لهم المياه تأتيهم، وأجرى عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ، فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض الناس قبل من الله فضله، وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضل عليهم ببعثه صلى الله عليه وسلم»(3).

(1) جلاء الأفهام (ص289).
(2) التسهيل لعلوم التنزيل (34/3).
(3) العذب النمير (601/5، 600). وانظر: الكشاف (139/3)، وتفسير القرآن العظيم (385/5)، وأضواء البيان (288/4).

فالرحمة صفة متمكنة من إرساله ﷺ، كما أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾؛ وكما أخبر ﷺ عن نفسه بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة»(١).

وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، ولهذا خص الله محمدًا ﷺ في سورة الأنبياء بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم (٢).-والله تعالى أعلم-.

المطلب الثاني
رحمته ﷺ للمؤمنين خاصة

كان النبي ﷺ يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين، مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة].

وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه ﷺ عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم(٤)؛ فإنه لو أمره الله ﷻ أن يعاملهم بما يُخْفُون من الكفر، لكان ذلك أمرًا بقطع رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك [(١/٩١)، ح (١٠٠)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٤٦٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/١٦٥).
(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٦/٩٤).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٣).

يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله وتأييده لرسوله وللمؤمنين[1].

وخص المؤمنين في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر، وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم[2].

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ من اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه؛ لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته[3].

ولذا قال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قواه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ في السر والعلانية»[4].

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ يدل على أن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه، وهو العذاب الشديد الإيلام[5].

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم المنافقون[6].

وكونه رحمة لهم؛ لأنه قَبِل منهم الإيمان الظاهر، لا تصديقًا لهم، بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين[7].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٦٤). وانظر: العذب النمير (٥/٦٠١).
(٢) انظر: البحر المحيط (٥/٦٤).
(٣) انظر: جامع البيان (١٨/٥٥٢). وهو الذي رجَّحه ابن عاشور، ومحمد رشيد رضا وانتصر له. انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤)، وتفسير المنار (١٠/٤٤٨)
(٤) بحر العلوم (٢/٦٩)
(٥) انظر: تفسير المنار (١٠/٤٤٩).
(٦) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤).
(٧) وهو الذي اختاره: الزمخشري، وأبو السعود، والشوكاني، والآلوسي. انظر: الكشاف (٢/٢٧١)،

ويؤيد هذا أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف[1].

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي ﷺ إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم[2].

وأما قولهم: أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيرا ًما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي[3].

وأما تفسيرهم كونه رحمة بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمة لهم، وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي ﷺ إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال، حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟[4] -والله تعالى أعلم-.

وإرشاد العقل السليم (٤/ ٧٧)، وفتح القدير (٤٢٩/٢)، وروح المعاني (١٢٧/١٠).

(١) انظر: تفسير المنار (٤٤٨/١٠).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٣٤١)، وتفسير المنار (٤٤٨/١٠)، وتفسير المراغي (١٤٨/١٠)، والمنافقون في القرآن الكريم (ص٤١٩).

(٣) انظر: تفسير المنار (٤٤٨/١٠).

(٤) انظر: المنافقون في القرآن الكريم (ص٤١٩).

الخاتمة

أحمد الله ﷻ الذي مَنَّ عليَّ بإتمام هذا البحث، وفيما يأتي أوجز ما توصلت إليه من نتائج:

١. الرحمة في اللغة: هي الرقَّة، والعطف.

٢. الرحمة في الاصطلاح: هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم.

٣. الرحمة بالنسبة لله ﷻ صفة من صفاته الذاتية الثابتة له، وهي أيضًا صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

٤. امتن الله ﷻ على نبيه ﷺ بالرحمة، ورَحَمَ أمته به كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وفي إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة.

٥. اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني.

٦. ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينًا ليتعرض لرحمة الله

ﷻ؛ فهذا رسول الله ﷺ سيد قومه، بل سيد الأمة جميعًا فألانه الله لهم.

٧. من رحمة الله في حق نبيه ﷺ أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال ﷻ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

٨. جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه ﷺ، والفظاظة راجعة إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق، والغلظة قساوة القلب.

٩. وصف الله ﷻ رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا نهاية الكرامة.

١٠. الرَّأفة: أعلى معاني الرحمة.

١١. تقديم الرأفة على الرحمة في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني.

١٢. الظاهر تعلق الصفتين في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] بجميع المؤمنين دون تخصيص.

١٣. الرحمة على عمومها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] وهذا العموم يحتمل وجهين: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق. وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير

العذاب، والوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّهَا وجحدها خسر في الدنيا والآخرة

١٤. الرحمة صفة متمكنة من إرساله ﷺ، وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته؛ ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم.

١٥. خص الله المؤمنين بالرحمة في قوله: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم.

١٦. ثبوت رحمة النبي ﷺ للمنافقين أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وأما حمل الرحمة في قوله: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦١]، على المنافقين، وأنه ﷺ رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين؛ فلم يرتضه عدد من أهل العلم؛ وأن الرحمة في الآية الكريمة للمؤمنين دون غيرهم.

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي أبو السعود، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، ط١، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
٣. بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت: بدون.
٤. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سُحنون للنشر والتوزيع، تونس: بدون.
٦. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، ط١، دار الكتاب العربي، لبنان: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٧. تفسير أسماء الله الحسنى، إبراهيم بن محمد بن سهل الزجاج، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق: ١٩٧٤م.
٨. تفسير الراغب الأصفهاني من سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (١١٢) من سورة النساء، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشدي، ط١، مدار الوطن، الرياض: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩. تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، دار الوطن، الرياض: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٠. تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المنار، القاهرة: ١٣٣٦هـ/١٩٤٧م.

١١. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط٢، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٢. تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)، محمد بن صالح العثيمين، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٣. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٤. تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط١، دار العاصمة، الرياض: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٧. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد ابن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٨. الرحمة في القرآن الكريم، موسى عبده عسيري، ط١، مكتبة الرشد، الرياض: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

١٩. جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن سلمان، ط٣، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمي الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخرَّاط، ط١، دار القلم: دمشق: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٢١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبدالله الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.
٢٢. زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٤هـ.
٢٣. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٤. صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٦. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، ط١، دار المغني، الرياض: ١٤٢٥هـ.
٢٧. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: د. خالد بن عثمان السبت، ط٢، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
٢٨. فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرزاق البدر، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت: ١٣٧٩هـ.
٣٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، ط٢، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
٣١. قواعد الترجيح عند المفسرين -دراسة نظرية تطبيقية-، حسين بن علي بن حسين الحربي، ط١، دار القاسم، الرياض: ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.
٣٣. الكشف والبيان، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٣٤. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٥. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري،، ط١، دار صادر، بيروت: بدون.
٣٧. مجاز القرآن، معمر بن المثنى التميمي، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٣٨. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم، ط٢، بدون.
٤٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٤١. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م
٤٢. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة، الرياض: ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م.
٤٣. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
٤٤. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٤٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط٦، دار المعرفة، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٤٦. المنافقون في القرآن الكريم د. عبدالله الحميدي، ط١، دار المجتمع، جدة: ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م.
٤٧. النكت والعيون علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت: بدون.

٤٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٤٩. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.

خُلُق الرحمة، ومنهج القرآن الكريم في الترغيب فيه

إعداد:
د. خلود شاكر فهيد العبدلي
أستاذ القرآن الكريم وعلومه المساعد
قسم القراءات – كلية الشريعة
جامعة الطائف

المقدمة

الحمد للّه الغني ذي الرحمة الواسعة، كتب على نفسه الرحمة، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، والصلاة والسلام على من أرسله اللّه رحمة للعالمين، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وصحابته الرحماء، ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الجزاء، أما بعد:

فقد عني القرآن الكريم بأمر الرحمة عناية عظمى، ومما يدل على هذه العناية ورود ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم كثيرًا، إذ ربت على الثلاث مائة، وجاءت بصيغ متعددة.

والمتأمل في الترابط بين الرحمة والقرآن يجده ارتباطًا وثيقًا، فنزول القرآن رحمة، وإنزاله مفرقًا رحمة، وتنوع علومه من قصص، وأمثال، ونسخ رحمة، والتوسيع بجواز قراءته بأحد الأحرف السبعة رحمة، وأمر القرآن بالإحسان إلى الخلق رحمة، ودعوته إلى التوحيد رحمة، وأصول الشريعة وفروعها مبنية على الرحمة، فالقرآن الكريم بهذا كله رحمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس].

ومن هذا الترابط، وتلكم العناية القرآنية بالرحمة تتأكد دعوة القرآن إلى الرحمة، وإلى التخلق بخُلقها. وبهذا تبرز الحاجة إلى البحث في

هذا الخلق العظيم، واستنباط منهج القرآن في الترغيب فيه من خلال هذا البحث الذي جعلت عنوانه:

(خُلُق الرحمة، ومنهج القرآن الكريم في الترغيب فيه).

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تظهر أهمية هذا البحث، وأسباب اختياره من وجهين:

الأول: ارتباط هذا البحث بالقرآن الكريم، الذي عني بكل خلق كريم فاضل، يحقق السعادة للعبد في الدنيا والآخرة.

الثاني: كونه يبحث في خُلُق قرآني عظيم، له عظيم الأثر في حياة الناس، وتعاملاتهم مع غيرهم من المخلوقين، والبحث بهذا يستمد أهميته من أهمية الرحمة.

أهداف البحث:

١. تأصيل خُلُق الرحمة من خلال بيان عناية القرآن الكريم به، والترغيب فيه.

٢. التأكيد على أن الإسلام دين الرحمة، وأن الرحمة مقصد قرآني.

٣. استنباط منهج القرآن في الترغيب في خُلُق الرحمة.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة أفردت (منهج القرآن في الترغيب في خُلق الرحمة) بالبحث، وإن كانت الدراسات حول الرحمة في القرآن كثيرة[1]، ولها فضل

(١) منها: رسالة ماجستير بعنوان: الرحمة الإلهية (دراسة قرآنية) لعمران عزت بخيت، إشراف: د.محسن الخالدي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، ٢٠٠٩م. ورسالة ماجستير بعنوان: الرحمة في القرآن الكريم لموسى بن عبده العسيري، إشراف: د. صديق عبد العظيم أبو الحسن، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٢هـ/ ١٤٠٣هـ.

على هذا البحث، فقد أفدت منها في جوانب عدة، لكنها لم تدرس المقصود الأول من بحثي هذا، وهو المنهج القرآني في الترغيب في خُلق الرحمة.

مشكلة البحث:

في كل زمن تبرز الحاجة للتراحم، وفي زمن انعكست فيه المفاهيم الأخلاقية، وظهرت آثار الابتعاد عن التخلق بخُلق الرحمة في حياة الناس، تأتي هذه الدراسة لتؤصل هذا الخُلُق القرآني من خلال بيان عناية القرآن الكريم بهذا الخُلُق، وإبراز منهجه في الترغيب فيه.

ويجيب البحث عن هذه الأسئلة:

- ما المقصود بخُلق الرحمة.
- ما منزلة خُلق الرحمة في الأخلاق السلوكية.
- هل الرحمة مقصد من مقاصد القرآن.
- ما المنهج القرآني في الترغيب في خُلق الرحمة.

منهج البحث:

يقتضي المنهج العلمي اتباع جملة من المناهج البحثية:

- المنهج التحليلي: ويتناول جميع مباحث البحث.
- المنهج الموضوعي، والاستقرائي: لجمع مواطن الرحمة في القرآن.
- المنهج الاستنباطي: في استنباط منهج القرآن في الترغيب في خُلُق الرحمة.

هذا، مع عزو الآيات، وتخريج الأحاديث من مصادرها، وتوثيق النقول من مصادرها.

خطة البحث:

انتظم هذا البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وتفصيلها على النحو التالي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.

المبحث الأول: التعريف بخُلق الرحمة، وبيان منزلته في الأخلاق السلوكية. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الخُلُق لغة، واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تعريف الرحمة لغة، واصطلاحًا.

المطلب الثالث: تعريف خُلُق الرحمة.

المطلب الرابع: منزلة خُلُق الرحمة في الأخلاق السلوكية.

المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في الترغيب في خُلُق الرحمة. وفيه عشرة مطالب:

المطلب الأول: اعتبار الرحمة مقصدًا من مقاصد القرآن.

المطلب الثاني: ذكر اتصاف الله سبحانه وتعالى بصفة الرحمة، وتسمية نفسه بالرحمن، والرحيم، والرؤوف.

المطلب الثالث: تكرار الرحمة بتكرار البسملة.

المطلب الرابع: تسمية القرآن الكريم كل ما فيه خير ونفع بلفظ الرحمة أو مشتقاتها.

المطلب الخامس: التنويه باتصاف صفوة خلق الله، وخيرة عباده، وهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام بخُلق الرحمة.

المطلب السادس: امتداح المتخلقين بخُلق الرحمة، والثناء عليهم.

المطلب السابع: الأمر بالتخلق بخُلق الرحمة، وبيان فضل ذلك، وآثاره.

المطلب الثامن: ذكر شمول الرحمة واتساعها، لتعم كل المخلوقات.

المطلب التاسع: ندب القرآن المؤمنين إلى طلب رحمة الله.

المطلب العاشر: ذم من لم يتخلق بالرحمة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

هذا، وأسأل الله الرحيم الكريم أن يمن عليَّ برحمته، وأن يجعل عملي هذا خالصًا متقبلًا، وأن يغفر ما كان فيه من خطأ وزلل، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

المبحث الأول
التعريف بخُلق الرحمة،
وبيان منزلته في الأخلاق السلوكية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول
تعريف الخُلق لغة، واصطلاحًا

تعريف الخُلق لغة:

الخُلُق والخُلْق -بضم اللام وسكونها-: بمعنى الطبع، والدين، والسجية، و(الخاء، واللام، والقاف) أصلان:

أحدهما: تقدير الشيء. والخُلُق مأخوذ من هذا الأصل؛ لأن صاحبه قد قُدِّر عليه، ولأن الخُلُق في الأصل غريزة مقدرة في كل إنسان.

والثاني: مَلاسَة الشيء[1]. والخُلُق مأخوذ أيضًا من الملاسة، بمعنى اللين والنعومة؛ لأن الخُلُق الحسن قائم على اللين وعدم الخشونة[2]، أو

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس ج٢، ص٢١٤، ولسان العرب لابن منظور، ج١٠، ص٨٦.
(٢) المصباح المنير للفيومي، ج٢، ص٢٤٥.

هو من الخلاقة بمعنى الملاسة، فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان، فأصبح عادة له؛ فيكون شاملًا للخُلُق بنوعيه: الحسن والقبيح(١).

تعريف الخُلُق اصطلاحًا:

جاء في معنى الخُلُق في الاصطلاح تعريفات عدة(٢)، أفضلها:

(الخُلُق: هيئة أو قوة في النفس راسخة، تنزع بها في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح، أو شر وجور، وذلك بمعيار الشرع الإلهي، والفطرة السليمة). فإن كان ذلك الفعل الصادر عن القوة الراسخة في النفس موافقًا للشرع الإلهي والفطرة السليمة كان خلقًا حسنًا، وإن لم يكن كذلك كان خلقًا سيئًا(٣).

المطلب الثاني
تعريف الرَّحْمَة لغة، واصطلاحًا

تعريف الرَّحْمَة لغة:

(الراء، والحاء، والميم) أصل واحد، يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رَحِمَه، يَرْحَمه: إذا رق له، وتعطف عليه، والرُّحْم، والمَرْحَمة، والرَّحْمة بمعنى(٤).

تعريف الرَّحْمَة اصطلاحًا:

(الرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم)(٥).

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزبيدي، ج٧، ص٣٢٨.
(٢) وقد تتبع د. أحمد الحداد هذه التعريفات بالنقد، انظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ج١، ص٢٩-٣٢.
(٣) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ج١، ص٣٣.
(٤) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس ج٢، ص٤٩٨، ولسان العرب لابن منظور، ج١٢، ص٢٣٠.
(٥) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص١٩٧.

وقيل: (هي رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه)[١].

وقيل: (الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان)[٢].

وقال ابن القيم: (الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك...)[٣].

رحمة الله صفة حقيقية لا مجازية:

الرحمة صفة حقيقية له سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله، ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها؛ كإرادة الإحسان والإنعام، ونحوه[٤]، إذ من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازًا، ورحمة العبدالضعيفة المخلوقة القاصرة المستعارة من ربه، التي هي من آثار رحمته حقيقة[٥].

ولا يلزم من إثباتها صفة حقيقية لله أن تشبه رحمة المخلوقين، فالرحمة صفة الرحيم، وهي في كل موصوف بحسبه، فإن كان الموصوف حيوانًا له قلب، فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه؛ وإن كان ملكًا فرحمته تناسب ذاته، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة، لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة مخلوق لمخلوق[٦].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، ج٢٦، ص٢١.
(٢) الكليات للكفوي، ص٤٧١.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ج٢ ، ص١٧٤.
(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، ص٧٩.
(٥) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، ابن الموصلي، ج٣، ص٨٧٠.
(٦) انظر: المصدر السابق ج٣، ص٨٦٨، ٨٦٩.

المطلب الثالث
تعريف خُلُق الرحمة

خُلُق الرحمة مركب من: الخُلُق، والرحمة. ولم أقف على تعريف راعى هذا التركيب؛ لذا اجتهدت في تعريف خُلُق الرحمة بالنظر في معنى الخُلُق، وفي معنى الرحمة؛ للوصول إلى تعريف يجمع المعنيين.

وبالرجوع إلى تعريف الخُلُق في الاصطلاح: (هيئة أو قوة في النفس راسخة، تنزع بها في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح، أو شر وجور، وذلك بمعيار الشرع الإلهي، والفطرة السليمة) يمكن تعريف خُلُق الرحمة بأنه:

(رِقَّة في النفس راسخة، تنزع بها في يسر وسهولة إلى الرفق بالمرحوم، والشفقة عليه، والإحسان إليه بسوق الخير له، ومنع الشر عنه، وذلك بمعيار الشرع الإلهي، والفطرة السليمة).

فإذا كان الخُلُق (هيئة أو قوة في النفس راسخة)؛ فالهيئة التي تناسب الرحمة هي الرِّقَّة.

وإذا كانت تلك القوة والهيئة (تنزع بالنفس في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح، أو شر وجور)؛ فإن الرِّقَّة تنزع بالنفس في يسر وسهولة إلى ما تقتضيه من الرفق بالمرحوم، والشفقة عليه، والإحسان إليه بسوق الخير له، ومنع الشر عنه.

ويشترط أن يكون ذلك (بمعيار الشرع الإلهي، والفطرة السليمة)، ليكون خُلُق الرحمة خُلُقًا حسنًا، إذ من الرحمة ما فيه مضيعة لدين اللّه، ومفسدة للمرحوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن دين اللّه طاعته وطاعة رسوله، المبني

على محبته ومحبة رسوله، وأن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن الرأفة والرحمة يحبهما اللّه ما لم تكن مُضيِّعة لدين اللّه)[١]، وقال: (العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة، يصلح اللّه بها مرض القلوب، وهي من رحمة اللّه بعباده، ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء والرجال الجُهَّال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم، وغلمانهم، وغيرهم، في ترك تأديبهم وعقوبتهم، على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم؛ فيكون ذلك بسبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم)[٢].

المطلب الرابع
منزلة خُلق الرحمة في الأخلاق السلوكية

الرحمة من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها، والتنويه بشأنها؛ لما لها من عظيم الأثر في الحياة[٣].

وما من معاملة من المعاملات، أو رابطة من الروابط الاجتماعية أو الإنسانية، إلا وأساسها وقوام أمرها الرحمة.

فمن علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بذويه وأهله، إلى علاقته بمجتمعه المحيط به، إلى معاملته لجميع خلق اللّه من إنسان أو حيوان، كل ذلك مبني على هذا الخلق الرفيع، والسجية العظيمة[٤].

(١) مجموع الفتاوى، ج١٥ ، ص٢٩١.
(٢) المصدر السابق ج١٥، ص٢٩٠.
(٣) انظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، أحمد الحداد، ج٢، ص٦١١.
(٤) انظر: موسوعة الأخلاق، ج١، ص٥٠٤.

والرحمة خُلُق شامل لكل قيم السلوك الفاضل في التعامل، فهي صفة كريمة، وعاطفة إنسانية نبيلة، تبعث صاحبها على كل خير، وتحبسه عن كل شر، فتحمله على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحروم، وكف العَسْف والظلم، ومنع التعدي والبغي، وهي بهذا رأس الأخلاق السلوكية سواء أكانت رحمة غريزية، أم مكتسبة.

قال الشيخ السعدي: -في بيان نوعي الرحمة-: (والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم، فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

النوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجِّل مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك. ويعلم أن الجزاء من جنس العمل. ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانًا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابر)[1].

(١) بهجة قلوب الأبرار، ص٢٧٠.

المبحث الثاني
منهج القرآن الكريم
في الترغيب في خُلق الرحمة

وفيه عشرة مطالب:

المطلب الأول
اعتبار الرحمة مقصدًا من مقاصد القرآن

المقاصد في اللغة:

جمع مَقْصَد، وتدور مادة (قَصَدَ) على معاني الاستقامة، والاعتدال، والتوسط، والاعتماد، وأَمُّ الشيء[1]، والمعنى المتصل بمعنى المقاصد هنا هو الدال على التوجه نحو الشيء وإرادته.

تعريف مقاصد القرآن:

من أفضل التعريفات التي وقفت عليها لمقاصد القرآن أنها: (الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها تحقيقًا لمصالح العباد في العاجل والآجل)[2].

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس، ج٢، ص٩٥-، ولسان العرب لابن منظور، ج٣، ص٣٥٣-.
(٢) مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، عبدالكريم حامدي، ص٢٩.

وللقرآن الكريم مقاصد عامة جامعة، أنزل القرآن لأجل بيانها للناس، وتوجيههم إليها، وحثهم على إقامتها ورعايتها، والرحمة مقصد من تلكم المقاصد، التي جاء التنصيص عليها في القرآن نفسه في آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء][(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧] ما يدل دلالة واضحة على أن الرحمة مقصد من مقاصد القرآن؛ لأن إرسال النبي ﷺ بهذا الكتاب العظيم رحمة، ولا يكون كذلك إلا إن كانت الرحمة من مقاصد القرآن، التي جاء بها ودعا إليها، ويؤكد هذا الأمر كون أصول الشريعة وفروعها مبناها على الرحمة.

والرحمة مقصودة في سور القرآن وآياته، ولنأخذ على ذلك مثالاً سورة الكهف، فقد ظهر لي -والله ﷻ أجل وأعلم- أن معنى الرحمة تكرر فيها في مواطن عدة، ومن تلكم المواطن:

١. إنزال القرآن رحمة، وما فيه من البشارة والنذارة رحمة كذلك، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف:١-٢].

٢. رحمة الرسول ﷺ بقومه، وحرصه على هدايتهم، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦].

٣. أول ما سأل أصحاب الكهف الرحمة من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف:١٠].

(١) انظر: جهود الأمة في مقاصد القرآن الكريم، د. أحمد الريسوني، ص٣-٥.

٤. رحمة الله ﷻ بأصحاب الكهف، حيث نجاهم من قومهم الظالمين، وحفظهم في الكهف، يتقلبون في رحمة الله ونعمه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف:١٦].

٥. أثبت الله ﷻ لنفسه أنه ذو الرحمة، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

٦. قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف:٦٥]، والمقصود الخَضِر آتاه الله رحمة من عنده على خلاف: هل هي النبوة أو النعمة(١).

٧. ما تعجب منه موسى عليه السلام من أفعال الخَضِر في حقيقتها رحمة، فخرق سفينة المساكين كان رحمة بهم، وقتل الغلام كان رحمة بوالديه، وبناء الجدار كان رحمة باليتيمين، قال تعالى: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف:٨١-٨٢].

٨. الرحمة في قصة ذي القرنين، حيث أعان على بناء السد من غير أجر، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف:٩٥]، وكان بناء السد رحمة من الله، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف:٩٨].

٩. ختمت السورة بالأمر بتوحيد الله، وهو رحمة، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٥، ص١٧٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج١١، ص١٨.

كما أن الرحمة مقصودة في الأحكام التشريعية، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، فالشريعة رحمة كلها، قال ابن القيم: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجوَر، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة...)(١)، حتى إنك لترى مقصد الرحمة ظاهرًا ضمن مقاصد العقوبة في القرآن الكريم(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب، وهى من رحمة الله بعباده ورأفته...)(٣).

والقرآن بهذا كله يزرع مفهوم الرحمة في النفوس، ويُعوِّدُها عليه في كل حال.

كما أن تخلق الناس بخُلق الرحمة مقصد من مقاصد القرآن أيضًا، وبيان ذلك: أن ابن عاشور: ذكر من مقاصد القرآن الأصلية، مقصد تهذيب الأخلاق(٤)، وتخلق الناس بخُلق الرحمة، وجه من وجوه تهذيب الأخلاق، بل هو رأسها وعمادها.

المطلب الثاني
ذكر اتصاف الله سبحانه وتعالى بصفة الرحمة، وتسمية نفسه بالرحمن، والرحيم، والرؤوف

وصف الله نفسه بالرحمة، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وهي رحمة واسعة شاملة، قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

(١) إعلام الموقعين، ج٣، ص٣.
(٢) انظر تفصيل هذا في الرحمة الإلهية (دراسة قرآنية)، عمران بخيت، ص١٢٠-.
(٣) مجموع الفتاوى، ج١٥، ص٢٩٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ج١، ص٣٨. وانظر: مقدمة تفسير ابن باديس، ص٤. حيث ذكر هذا المقصد.

وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗ﴾ [مريم:١٣]، ومعنى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾: ورحمة من عندنا(١). وقد تقدم بيان أن الرحمة صفة حقيقية لله على ما يليق بجلاله، ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها(٢).

كما سمى الله ﷻ نفسه بالرحمن والرحيم، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٢-٣]، وهما اسمان كريمان من أسمائه الحسنى، دالان على اتصافه ﷻ بصفة الرحمة، قال ابن القيم: (أسماء الرب ﷻ هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه ﷻ ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم). والاسمان مشتقان من الرحمة، وفي الفرق بينهما قولان:

الأول: الرحمن: ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم: ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، ولكن يشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣](٣).

الثاني: الرحمن دال على الصفة القائمة به ﷻ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذا قول ابن القيم(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٥، ص٢١٢.
(٢) انظر: البحث ص١١.
(٣) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود، ج١، ص٧٨.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، ج١، ص٢٨.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

وسمى الله نفسه الرؤوف، والرأفة أعلى معاني الرحمة[١]، واتفاق الأسماء بين الخالق والمخلوق لا يوجب تماثل المسميات؛ فإن الله سمى نفسه بالرؤوف الرحيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣]، وسمى بعض عباده بالرؤوف الرحيم، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة]، وليس الرؤوف كالرؤوف، ولا الرحيم كالرحيم[٢].

وقد تكرر كثيرًا في القرآن الكريم ورود اسم الرحمن، والرحيم، وكذلك اتصاف الله بالرحمة، وفي هذا التكرار ترغيب للعباد في رحمة الله، وترغيب لهم أيضًا في التراحم بينهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، قال ابن القيم: : وهو سبحانه وتعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم[٣].

والمقصود هنا أن يتصف العباد بمقتضيات صفات الله وأسمائه[٤]، فمن

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري، ج٢، ص٦٥٤.

(٢) انظر: التدمرية، ابن تيمية، ص٢٣.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ج١، ص٤٢٠.

(٤) ولا يقال: (الاتصاف بصفات الله، والتخلق بأخلاق الله وصفاته وأسمائه)، قال ابن القيم: (مراتب إحصاء أسماء الله: المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها، المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها، المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلًا إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة، وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان، وهي التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال، فمراتبها أربعة: أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة، وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء، وهي لفظ القرآن). بدائع الفوائد ج١، ص١٧٢، ١٧٣.
فلا يجوز قول: (التخلق بأخلاق الله) إن قصد الاتصاف بكل صفات الله سبحانه وتعالى، بناء على القاعدة الفلسفية، وتجوز العبارة إن قصد اتصاف العبد بما يناسبه من صفات الله سبحانه وتعالى، كالعلم، والرحمة، والحكمة، ونظائرها، كما في حديث: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا) =

كان من العباد رحيمًا راحمًا رَحِمَهُ اللَّهُ، قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: ... وأحب الخلق إليه من اتصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريم يحب الكريم من عباده، وعالم يحب العلماء، وقادر يحب الشجعان، وجميل يحب الجمال... وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء. إلى أن قال: ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجودًا وعدمًا، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه... ومن عامل خلقه بصفة عامله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه(١).

المطلب الثالث
تكرار الرحمة بتكرار البسملة

إن المكانة العظمى للبسملة في القرآن الكريم آتية بما تتضمنه من أسماء الله الحسنى، حيث تبدأ باسم الجلالة «الله»، ثم تتضمن اسمين آخرين، لهما جذر لغوي واحد، هما الرحمن والرحيم، ففي البسملة الرحمة البالغة، وفي مضمونها الرحمة التامة(٢).

ومن الدلالات الواضحة على أهمية الرحمة في القرآن الكريم أن أولى سور القرآن افتتحت بالبسملة المشتملة على اسمي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الرحمن،

= وحديث: (إن الله جميل يحب الجمال). وتقييد الصفات بما يناسب العبد يخرج الصفات التي لا يجوز للعبد الاتصاف بها، كالألوهية، والكبر، والجبروت، فإن هذه خاصة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يجوز أن يشاركه فيها أحد. انظر: مقالة (لمحة عن عقيدة التخلق بأخلاق الله)، د. عيسى السعدي، ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية.

(١) انظر: الوابل الصيب، ص٥٣، ٥٤.

(٢) من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية، رحمة العلم، رحمة التمكين، من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم، ص١.

والرحيم، فهي آية من هذه السورة، وتكرر ذكرهما في هذه السورة في الآية الثالثة منها؛ لتكون الرحمة أول ما يصل إلى سمع القارئ.

ويتكرر ذكر هذه الرحمة أول كل سورة في القرآن(1)، حيث صُدِّرت كل سوره -عدا سورة التوبة- بالبسملة؛ للتأكيد على أهمية الرحمة.

والقرآن الكريم بهذا يعزز مفهوم الرحمة في النفوس، ويُرَغِّبها في التخلق بهذا الخلق الكريم، إذ إن تكرار الرحمة في أول كل سورة يجعل الرحمة حاضرة في وعي الناس، وفي حياتهم، وأخلاقهم، وتعاملهم مع غيرهم من الخلق.

المطلب الرابع
تسمية القرآن الكريم كل ما فيه خير ونفع بلفظ الرحمة أو مشتقاتها

جاءت الرحمة في القرآن الكريم بمعان مختلفة، بلغت أربعة وعشرين وجهًا(2)، منها:

---

(1) لا نزاع بين العلماء في أن البسملة بعض آية من سورة النمل، ولا نزاع أنها ليست آية من سورة براءة، والنزاع إنما هو في قرآنيتها في كل موضع، كتبت فيه بين سورتين، وللعلماء في ذلك أقوال، هي:
قول الشافعي: هي آية في أول كل سورة، الفاتحة وغيرها.
وقول مالك: ليست آية من القرآن مطلقًا.
وقول أبي حنيفة وأحمد: آية من القرآن مستقلة، ليست من الفاتحة ولا من غيرها، وإنما هي للفصل بين السور.
انظر: المجموع شرح المهذب، ج٣، ص٣٣٤، وأحكام القرآن لابن العربي، ج١، ص١٩، وأحكام القرآن للجصاص، ج١، ص٧، والمغني في الفقه لابن قدامة، ج٢، ص١٥١.
وذهب ابن تيمية إلى أنها من القرآن، حيث كتبت أول كل سورة، وليست من السورة، وقال: وهذا أعدل الأقوال. انظر: الفتاوى الكبرى ج١، ص١٠٢، وانظر بسط جميع الأقوال وأدلتها والقول المختار (أنها آية من القرآن للفصل بين السور) في بحث الخلاف الأصولي في قرآنية البسملة وأثره في الأحكام، د. موسى فقيهي، ص١٧٢-.

(2) انظر: موسوعة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، د. أحمد البريدي، ود. فهد الضالع، ج٢، ص٥٣١-٥٣٥.

١. الرحمة بمعنى الإسلام: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الإنسان:٣١].

٢. بمعنى القرآن: قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨].

٣. بمعنى النبوة: قال تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

٤. بمعنى الجنة: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال تعالى: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ [النساء ١٧٥].

٥. بمعنى النصر والفتح: قال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ [الأحزاب:١٧].

٦. بمعنى العصمة: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣].

٧. بمعنى المطر: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

٨. بمعنى الرزق: قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: من ٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ [الإسراء:١٠٠].(١).

٩. الثبات: قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ [آل عمران:٨](٢).

وفي تسمية القرآن الكريم كل ما هو جليل وعظيم، وكل ما فيه نفع

(١) انظر هذه المعاني وغيرها: الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان، ص٣٩-٤٢، وإصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني، ص١٩٩-٢٠٢، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، ص٣٣١-٣٣٤.

(٢) انظر: موسوعة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، د. أحمد البريدي، ود. فهد الضالع، ج٢، ص٥٣٤.

وخير بلفظ الرحمة أو مشتقاتها، تنبيه إلى كون هذه المعاني الجليلة في أصلها رحمة.

قال ابن عاشور: في تفسير قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢]: (ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يُصطفَى لها، ورحمة للناس المرسل إليهم، جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيارهم من يُختار لها، وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين)(١).

والمتأمل في هذه التسمية تتأكد له عناية القرآن بتعزيز مفهوم الرحمة وتأكيده في النفوس، من خلال ذكر هذه المعاني الجليلة في مواطن عدة بلفظ الرحمة أو مشتقاتها.

المطلب الخامس
التنويه باتصاف صفوة خلق الله، وخيرة عباده، وهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام بخُلق الرحمة

الحديث عن الأنبياء مقرون بالرحمة، فنبوتهم رحمة، ودعوتهم أقوامهم رحمة، وتنجية الله لهم من القوم الظالمين برحمة منه، قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦].

والرحمة سمة من سمات الأنبياء، وعنوان جميع أحوالهم، وعامة أقوالهم وأفعالهم.

(١) التحرير والتنوير، ج٢٥، ص٢٤٤.

ومن أبلغ الدلالات على ترغيب القرآن في التخلق بخُلق الرحمة وصفه أنبياء الله ﷻ بالرحمة، وأمره بالاقتداء بهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، والحديث عن رحمة الأنبياء يطول، ولكن أشير هنا إلى بعض معالم الرحمة في حياتهم، ومن ذلكم:

بعض مظاهر الرحمة عند نبي الله إبراهيم عليه السلام:

١. خلق الرحمة في دعاء إبراهيم عليه السلام، ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٦-١٢٩].

٢. رحمته بقوم لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤]

٣. رحمته عليه السلام بالعاصين: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم:٣٦]. قال الشيخ السعدي: (هذا من شفقة الخليل عليه السلام، حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه)(١).

٤. رحمته بأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٢٧.

رحمة الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم أقوامهم:

جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بيان رحمة الأنبياء بأقوامهم، والمتدبر في دعوة الأنبياء أقوامهم للحق يجد هذه الرحمة من وجهين:

١. إطالة الحوار في دعوتهم أقوامهم: وخذ مثالًا لذلك سورة الأعراف، ففيها بيان طول محاورات الأنبياء أقوامهم رحمة بهم، وحرصًا على نفعهم: كهود عليه السلام، وصالح عليه السلام، وشعيب عليه السلام، وموسى عليه السلام. وفي سورة نوح عليه السلام ما يدل على طول محاورته لقومه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩]، حتى قال قومه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢﴾ [هود:٣٢].

٢. يأتي في دعوة الأنبياء لقومهم بيان خوفهم عليهم، وشفقتهم بهم، ومن ذلك ما كان في دعوة نوح عليه السلام، وهود عليه السلام، وشعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾ [الأحقاف:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾[هود:٨٤].

نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم:

امتدح الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بالرحمة العامة لكل الخلق، فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وأثنى عليه باللين للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وسماه رؤوفًا رحيمًا فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة]، ووصف القرآن حرص النبي ﷺ على هداية قومه، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وحسبك أنه نبي الرحمة، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء؛ فقال: أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»(١).

المطلب السادس
امتداح المتخلقين بخُلق الرحمة، والثناء عليهم

كما أن الرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، وصفة لصفوة خلقه من أنبياء ومرسلين، فإنه سبحانه وتعالى أثبتها لعباده المؤمنين، وأثنى عليهم بها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد:١٧]، قال ابن عاشور: (وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر، وتواصيهم بالمرحمة؛ لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها؛ لأنها لا تخلو من كبح الشَّهوة النفسانية وذلك من الصبر. والمرحمة ملاك صلاح الجماعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩]، والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتصافهم بالمرحمة؛ لأن من يوصي بالمرحمة، هو الذي عَرَف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يُوصي بها)(٢).

(١) أخرجه في كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، رقم: ٢٣٥٥، ج٤، ص١٨٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٣١٩.

وامتدح الله بها صحابة رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح].

كما أثبتها بلازمها لهم، ولمن اتصف بصفاتهم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة] إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم مسببة عن التراحم السائد بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجَل صفات المؤمنين، حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ[1].

وخلَّد القرآن الكريم ذكر بعض أتباع الأنبياء، وما كان من رحمتهم بأقوامهم وحرصهم على إيصال الحق والخير لهم، فقال سبحانه وتعالى عن مُؤْمِن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾ [غافر:٢٨-٣٠]، ثم تكرر نداؤه لقومه ثلاث مرات، وأطال في نصحهم حرصًا عليهم ورحمة بهم.

وذكر الله سبحانه وتعالى -في قصة أصحاب القرية التي أرسل الله إليهم ثلاثة من رسله، فكذبوهم- قصة رجل مؤمن رحيم بقومه[2]، فقال تعالى

(١) انظر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد الحداد، ج٢، ص٦١٤.
(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "اسم صاحب يس حبيب النجار". انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٦، ص٣٣٤.

عنه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس:٢٠-٢٧].

فما زال يدعوهم حتى قتلوه، قال قتادة: (جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به حتى أقعصوه[1]، وهو يقول كذلك، فقتلوه، رَحِمَهُ الله)[2].

وفي ثناء الله على المتصفين بالرحمة، وامتداحه سبحانه وتعالى المتحلين بها ما يُرَغِّب كل أحد على التخلق بها.

المطلب السابع
الأمر بالتخلق بخُلق الرحمة، وبيان فضل ذلك، وآثاره

أولًا: أمر القرآن بالتخلق بخُلق الرحمة:

ما من شيء أدل على أن القرآن رغَّب المؤمنين في التخلق بخُلق الرحمة، من أمره بالتخلق بهذا الخُلق العظيم، ومن ذلكم:

١. أن الله سبحانه وتعالى أمر بالإحسان للوالدين، وقرنه بالأمر بطاعته وبالدعاء لهما بالرحمة؛ فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

(١) أقعصه أي: أجهز عليه، وقتله مكانه. انظر لسان العرب لابن منظور، ج٧، ص٧٨.
(٢) جامع البيان للطبري، ج١٩، ص٤٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٦، ص٣٣٥.

إِحْسَـٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]، فالرحمة المأمور بها نحو الوالدين رحمتان، إحداهما: أن طاعة الوالدين هي في حد ذاتها رحمة بهما، ثانيهما: الدعاء لهما بالرحمة من الله سبحانه وتعالى، فالأولى رحمة لطف ورقة ومحبة ووفاء، والثانية رحمة إحسان لهما من الله سبحانه وتعالى على ما قدماه من تربية حسنة لأولادهما[(١)].

٢. أن الله أمر نبيه بخفض الجناح للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٨]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء:٢١٥]، والمقصود التواضع لهم، والرفق بهم، وإلانة الجانب لهم[(٢)]، ومعلوم أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته ما لم يرد ما يخصصه. قال ابن كثير: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ألن لهم جانبك، كقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨][(٣)].

ثانيًا: بيان القرآن لفضل التخلق بخُلق الرحمة:

مما يدل على فضل التخلق بخُلق الرحمة: أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ امتداح المؤمنين المتبعين لنبي الرحمة ﷺ باتصافهم بصفة الرحمة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ

(١) انظر: من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية، رحمة العلم، رحمة التمكين، عمران نزال، ص٦، ٧.
(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي، ج١٩، ص١٦٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤، ص٦٥٨.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [الفتح].

ويدل على فضله أيضًا ارتباط هذا الخُلق العظيم بالعلم والهدى، فكلما اتسع علم العبد اتسعت رحمته، قال ابن القيم: (ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى؛ كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال سبحانه وتعالى في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ﴾) إلى أن قال: (وهكذا الرجل كلما اتسع علمه؛ اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا ...)[1].

ثالثًا: بيان القرآن لآثار التخلق بخُلق الرحمة:

ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، أثرًا جميلًا من آثار التخلق بخُلق الرحمة، إذ بين الله سبحانه وتعالى أن الاتصاف بالرحمة، ولين الجانب سبب لاجتماع القلوب، ووحدة الصف.

كما أن المتدبر لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان: ٦٣] يمكن أن يستنبط -والله أعلم- أثرًا من آثار التخلق بخُلق الرحمة، فإن الرحمة التي اتصف بها هؤلاء الممدوحون، كان لها أثر في تواضعهم، وسلامة ألسنتهم، وجميل أفعالهم وأقوالهم، يدل على ذلك إضافة العباد لاسم الله سبحانه وتعالى الرحمن، والذي يفهم منه أنهم متصفون بهذه الصفة العظيمة.

وقد أضاف الله هذا الفريق من عباده إلى اسمه الرحمن دون غيره

(١) إغاثة اللهفان، ج٢، ص١٧٣.

من أسماء الله ﷻ في هذا الموضع، للإشارة إلى أن حظهم الأوفر من أسماء الله الحسنى هو من اسمه الرحمن[1]، اتصافًا بصفة الرحمة، ونيلًا لرحمة الرحمن.

وبكل ما تقدم يظهر جليًّا أن القرآن الكريم رغَّب في التخلق بخُلق الرحمة، من خلال الأمر بهذا، وبيان فضل التخلق بخُلق الرحمة، والتنبيه إلى آثاره في الأقوال والأفعال.

المطلب الثامن
ذكر شمول الرحمة واتساعها لتعم كل المخلوقات

الحديث عن شمول الرحمة في القرآن يظهر من جوانب عدة:

أولها: رحمة الله الشاملة لكل شيء، والتي وسعت كل شيء، فقد ذكر القرآن الكريم في مواطن عدة سعة رحمة الله وشمولها لكل المخلوقات، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وجاء ذكر هذه السعة في دعاء حملة العرش من الملائكة، إذ قالت: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧].

ويدل على سعة رحمته -عز وجل- أن رحمته سبقت غضبه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران]. قال الرازي: (ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه، إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب لا على سبيل

(١) انظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن حبنكة، ج٦، ص٦٠٤.

الوجوب، بل على سبيل الفضل والإحسان)[١]. وثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي»[٢].

وهذه الرحمة الشاملة تظهر في إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفي أصول الشريعة وفروعها المبنية على الرحمة، فهداية الخلق جميعًا لما ينفعهم رحمة، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

ومن صور هذه الرحمة الشاملة الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وذوي القربى، واليتيم، والفقير، والمسكين، والأجير، والخادم، والرحمة بين الزوجين، ليتعدى الأمر بالرحمة إلى غير المسلمين من أسير: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨]، وغير مقاتل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة]، إذ المقصود هداية الناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة].

ورحمة الله عز وجل شاملة لكل الخلق، برهم وفاجرهم، الطائع والعاصي؛ ولذا كثيرًا ما يأتي في القرآن الكريم اسم الله الرحيم، والأمر بطلب رحمة الله ﷻ عند ذكر ذنوب عباده وعصيانهم وتقصيرهم؛ ليدل ذلك على أن رحمته ﷻ تشملهم أيضًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

(١) التفسير الكبير، ج٨، ص١٩٣.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء رقم: ٦٩٨٦، ج٦، ص٢٧٠٠.

ورحمته عز وجل تسع المؤمن والكافر، فنعم الله على عباده رحمة بهم، وهي تشمل المؤمن وغير المؤمن، حتى تعم كل حي في الجو والبر والبحر(١)، ولولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم، قال ابن القيم: (فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم، ومع هذا فالذي أظهره من الرحمة في هذه الدار، وأنزله بين الخلائق جزء من مئة جزء من الرحمة، فإذا كان جانب الرحمة قد غلب في هذه الدار، ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر مع قيام مقتضى العقوبة به، ومباشرته له، وتمكنه من إغضاب ربه، والسعي في مساخطته، فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة على ما في هذه الدار تسعة وتسعين ضعفًا)(٢).

كل هذه الرحمات الإلهية مع غناه ﷻ عن خلقه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وفي هذا ما يؤكد مفهوم الرحمة في النفوس، فالله يرحم خلقه مع غناه عنهم، فكيف لا يتراحمون بينهم مع حاجتهم إلى رحمته، وقد بلغهم حديث الرسول ﷺ: «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٣)، وكذا حديث الرسول ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم»(٤).

ثانيها: شمول قرآنية الرحمة من حيث تردد مشتقاتها القرآنية،

(١) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى بن عبده العسيري، ص١٩٠.
(٢) حادي الأرواح، ص٢٧٣.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته"، رقم: ١٢٢٤، ج١، ص٤٣١، وفي كتاب: الأيمان والنذور، باب: قول الله تعالى: ﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، رقم: ٦٢٧٩، ج٦، ص٢٤٥٢، وفي كتاب: التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، رقم: ٦٩٤٢، ج٦، ص٢٦٨٦، وأيضًا في باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، رقم: ٧٠١٠، ج٦، ص٢٧١١. ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت، رقم: ٩٢٣ ج٢، ص٦٣٥.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: ٥٦٥١، ج٥، ص ٢٢٣٥، وأيضًا في باب: رحمة الناس والبهائم، رقم: ٥٦٦٧، ج٥، ص٢٢٣٩. ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم: ٢٣١٨، ج٤، ص١٨٠٨.

ومضامينها الدلالية، وسعتها لكل أنواع المخلوقات. فالقرآن يخاطب بها الناس جميعًا، لا قومًا ولا جنسًا ولا طبقة ولا قبيلة مخصوصة محظوظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس]، إنها رحمة واسعة تسع كل العالمين.

ثالثها: البعد الإيجابي للرحمة في القرآن الكريم، التي تشمل كل خير، أو فضل، أو بر، أو عمل صالح، أو نعمة إلهية، أو توفيق رباني، أو صدقة، أو حسنة، أو طاعة في معروف يسميها القرآن رحمة، أو يعللها بالرحمة، أو يجعل غايتها الرحمة.[1].

المطلب التاسع
ندب القرآن المؤمنين إلى طلب رحمة الله

ندب الله سبحانه وتعالى عباده لطلب رحمته سبحانه وتعالى، فأعلمهم أنه الرحيم، فقال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ [الحجر]، وأنه الرحمن، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه:٩٠]، وأنه هو أرحم الراحمين، فقال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

كما أخبرهم أن أنبياء الله ورسله يسألون الله رحمته؛ ليقتدي بهم في ذلك كل أحد، قال تعالى عنهم: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف].

(١) انظر: الرحمة القرآنية والعالمية الإسلامية مدخلًا للنهوض الحضاري، سلمان بو نعمان، بحث على الشبكة العنكبوتية، موقع: مركز نماء للبحوث والدراسات.

وكذا أخبر عن أتباع الأنبياء أنهم يسألون الله رحمته، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف].

كما علم الله عباده كيف يسألونه رحمته، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وأثنى على السائلين الله رحمته؛ ليُرَغِّب عباده في طلب رحمته، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون:١٠٩].

والمتأمل في (ندب القرآن المؤمنين إلى طلب رحمة الله) يظهر له أن القرآن من خلال هذا الندب رغَّب في التخلق بخُلق الرحمة من وجهين:

أولهما: أن استمرار العبد في طلب رحمة الله في كل حال يرسخ في نفسه أهمية الرحمة الإلهية من وجه، وأهمية الرحمة والتراحم في حياة الخلق جميعًا من وجه آخر.

ثانيهما: أن رحمة العبد بالخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، فمن أراد رحمة ربه فليرحم الخلق، قال السعدي: (رحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النِّعم واندفاع النقم من رحمة الله. فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم)[1].

المطلب العاشر
ذم من لم يتخلق بالرحمة

مر في المطالب السابقة ما يدل على عناية القرآن العظمى بأمر الرحمة من خلال الأمر بها، وبيان مكانتها وأهميتها وآثارها وثمراتها، وامتداح المتصفين بها، ولم تقتصر تلكم العناية على ذلكم فحسب، بل تعدته إلى ذم كل من لم يتخلق بالرحمة؛ ليكون في ذلك مزيد تأكيد على وجوب التخلق بها.

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر في سورة كاملة آثار انتزاع الرحمة من النفوس، وما تُخَلِّفه من شرور كثيرة، فقص علينا في سورة يوسف عليه السلام ما كان من شأن إخوته معه حين غلبت عليهم غيرتهم؛ فأزالت من قلوبهم كل رحمة بيوسف وأبيه عليهما السلام.

وقد ذم القرآن كل نقيض للرحمة؛ فذم القسوة والقساة في غير ما آية[2]، منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ

---

(١) بهجة قلوب الأبرار، ص٢٦٩.

(٢) جاء هذا الذم في ست آيات، آية البقرة الآتي ذكرها، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [الحج:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [الزمر:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد].

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة:٧٤]، كما ذم الغلظة والفظاظة، فقال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ومعنى الغلظ: خشن الجانب، فهي ضد قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء][1].

كل هذا الذم ليُرَهِّب القرآن من هذه الصفات الذميمة، وليُرَغِّب في ضدها من لين ورحمة.

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ص٣٧٦.

الخاتمة

الحمد لله الرؤوف الرحيم الرحمن، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد: فإن خاتمة هذا البحث جاءت متوجة بجملة من النتائج، هي:

أولًا: خُلُق الرحمة خُلُق قرآني عظيم، عني به القرآن، ودعا له، ورغَّب فيه؛ لما له من عظيم الأثر في حياة الناس وتعاملاتهم مع غيرهم من الخلق. وفي عناية القرآن به ما يؤكد أن الإسلام دين الرحمة.

ثانيًا: خُلُق الرحمة خُلُق شامل لكل قيم السلوك الفاضل في التعامل، يحمل صاحبه على كل خير، ويحبسه عن كل شر، وهو بهذا رأس الأخلاق السلوكية.

ثالثًا: يشترط في التخلق بخُلُق الرحمة أن يكون بمعيار الشرع الإلهي، والفطرة السليمة؛ ليكون خُلُقًا حسنًا، إذ من الرحمة ما فيه مضيعة لدين الله، ومفسدة للمرحوم.

رابعًا: للقرآن الكريم منهج في الترغيب في خُلُق الرحمة، وذلك من خلال:

١. اعتبار الرحمة مقصدًا من مقاصد القرآن، فإرسال النبي ﷺ بهذا الكتاب العظيم رحمة، ولا يكون كذلك إلا إن كانت الرحمة من مقاصد القرآن، التي جاء بها ودعا إليها. كما أن مقصد تهذيب الأخلاق من مقاصد القرآن الأصلية، وتخلق الناس بخُلق الرحمة وجه من وجوه تهذيب الأخلاق، بل هو رأسها وعمادها.

٢. تكرار ورود الرحمن، والرحيم، وكذلك اتصاف اللّه بالرحمة في القرآن الكريم كثيرًا؛ ترغيبًا للعباد في رحمة اللّه من وجه، وترغيبًا لهم أيضًا في التراحم بينهم من وجه آخر؛ لأن اللّه يحب أن يتصف العباد بمقتضيات صفاته وأسمائه.

٣. تكرار ذكر الرحمة في أول كل سورة من القرآن، حيث صُدِّرت كل سوره -عدا سورة التوبة- بالبسملة؛ للتأكيد على أهمية الرحمة، ولتعزيز مفهوم الرحمة في النفوس، ولتبقى حاضرة مع كل تلاوة.

٤. تسمية القرآن الكريم كل ما هو جليل وعظيم، وكل ما فيه نفع وخير كالقرآن والتوراة والجنة والنبوة والمطر بلفظ الرحمة أو مشتقاتها.

٥. وصف أنبياء اللّه سبحانه وتعالى بالرحمة، وبيان أنها من أبرز سماتهم، وعنوان جميع أحوالهم، وعامة أقوالهم وأفعالهم، والأمر بالاقتداء بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

٦. امتداح المتخلقين بخُلق الرحمة -كالصحابة وغيرهم- والثناء عليهم بما يُرَغِّب كل أحد على التخلق بها.

٧. أمْرُ القرآن بالتخلق بخُلُق الرحمة، وبيان فضل التخلق به،

وذكر الآثار العظيمة لذلك في أقوال الناس وأفعالهم، واجتماع قلوبهم، ووحدة صفهم.

٨. ذكر شمول الرحمة، فرحمة اللّه الشاملة تظهر في إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفي أصول الشريعة وفروعها المبنية على الرحمة، وفي الرحمة بكل الخلق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وهي رحمة تسع كل أنواع المخلوقات.

٩. ندب القرآن العباد إلى طلب رحمة اللّه، وفي ذلك ترغيب في التخلق بخُلق الرحمة من وجهين:

أولهما: أن استمرار العبد في طلب رحمة اللّه في كل حال يرسخ في نفسه أهمية الرحمة الإلهية من وجه، وأهمية الرحمة والتراحم في حياة الخلق جميعًا من وجه آخر.

ثانيهما: أن رحمة العبد بالخلق من أكبر الأسباب، التي تنال بها رحمة اللّه.

١٠. ذم القرآن كل نقيض للرحمة من قسوة وغلظة وفظاظة؛ ليُرَهِّب من هذه الصفات الذميمة، وليُرَغِّب في ضدها من رفق ولين ورحمة.

هذا، والحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد الحسيني الزبيدي، دار الفكر.

٢. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٣. أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤. أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد الحداد، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٦م.

٥. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، حققه وأصلحه: عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٨٣م.

٦. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ت: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٧. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٨. بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٦ - ١٩٩٦.

٩. التدمرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد السعوي، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١١. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: عبدالكريم آل الدريني، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
١٣. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣١هـ.
١٤. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ، ١٤٢١هـ.
١٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٢٤هـ.
١٦. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط٥، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
١٧. جهود الأمة في مقاصد القرآن الكريم، د. أحمد الريسوني، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، فاس، إبريل ٢٠١١م.
١٨. الخلاف الأصولي في قرآنية البسملة وأثره في الأحكام، د. موسى ابن علي فقيهي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج٢٠، العدد: ٣٢، ذو الحجة ١٤٢٥هـ.
١٩. الرحمة الإلهية (دراسة قرآنية)، عمران عزت بخيت، إشراف: د. محسن الخالدي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس- فلسطين، ٢٠٠٩م.
٢٠. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١. الرحمة في القرآن الكريم، موسى بن عبده العسيري، إشراف: د. صديق عبدالعظيم أبو الحسن، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٢هـ/ ١٤٠٣هـ.

٢٢. الرحمة القرآنية والعالمية الإسلامية مدخلًا للنهوض الحضاري، سلمان بو نعمان، بحث على الشبكة العنكبوتية، موقع: مركز نماء للبحوث والدراسات.

٢٣. شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، دار الهجرة، ط٤، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٢٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ودار اليمامة، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦. الفتاوى الكبرى، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٢٧. الكليات، أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٨. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر، ط١، بيروت.

٢٩. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبدالحميد ابن باديس الصنهاجي، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٣٠. المجموع شرح المهذب، محيي الدين بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

٣١. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن محمد ابن عبدالكريم المشهور بابن الموصلي، تحقيق: الحسن بن عبدالرحمن العلوي، أضواء السلف، ١٤٢٥هـ.

٣٢. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم النجدي، وابنه محمد، مكتبة المعارف.

٣٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٣٤. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٣٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد المقري الفيومي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٣٦. معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٢١هـ.

٣٧. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، ط٣، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٣٨. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالله التركي، ود. عبدالفتاح الحلو، دار هجر، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

٣٩. مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، عبدالكريم حامدي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٩هـ.

٤٠. مقالة: (لمحة عن عقيدة التخلق بأخلاق الله)، د. عيسى السعدي، ملتقى أهل التفسير، بتاريخ: ٣/١٠/١٤٣١هـ.

٤١. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٤٢. من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية، رحمة العلم، رحمة التمكين، عمران نزال، مجلة المعرفة، وزارة التربية والتعليم بالمملكة العربية السعودية، ١٤٣١هـ، على الشبكة العنكبوتية.

٤٣. موسوعة الأخلاق، القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف الشيخ علوي السقاف، الدرر السنية، ط٢، الظهران، ١٤٣٥هـ.
٤٤. موسوعة الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، د. أحمد البريدي، ود. فهد الضالع، دار التدمرية، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
٤٥. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٤٦. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود، مكتبة الإمام الذهبي، ط٣، الكويت، ١٤٢١هـ.
٤٧. الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٤٨. الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: أ.د. حاتم الضامن، مركز جمعة الماجد، ط١، دبي، ١٤٢٧هـ.

خطاب الرحمة

في القرآن الكريم

مقاربة في الأبعاد والدلالات

إعداد:
أ.د. محمد زرمان
جامعة باتنة ـ1ـ الجزائر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرحمة قيمة إنسانية عظيمة، وخلق رفيع، وخصلة حميدة من خصال الخير، ومقام كبير حازه السعداء من الخلق، وحرم منه القساة الأشقياء، ولكل مخلوق في أعماق تركيبه نصيب من الرحمة، زرعها الله في فطرته، ليتواصل بها مع بني جنسه. قال رسول الله ﷺ: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة في الأرض، فبها يتراحم الخلق، حتى إن الفرس لترفع حافرها، والناقة لترفع خفها، مخافة أن تصيب ولدها، وأمسك تسعة وتسعين رحمة عنده ليوم القيامة» [رواه البخاري]. وتشير معاجم اللغة إلى أن الرحمة تعني الرقة والعطف، وفي الاصطلاح: فضيلة تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، وهي اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته جل جلاله. وهي في بني آدم كمال في الخُلُق، تجعل الإنسان يرق لآلام الناس، ويسعى لإزالتها، وتقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العباد.

أهمية الموضوع:

والرحمة مصطلح قرآني بامتياز، فقد تكرر ذكره ٣٣٢ مرة بصيغ الاسم

والفعل المختلفة، وبمعانٍ متباينة، فالرحمة صفة من صفات الله عز وجل إذ هو مصدر الرحمة كلها، ورحمته واسعة لا تحدها حدود، ولا تنتهي عند غاية، ومعانيها تتغيّر بتغيّر السياق الذي وردت فيه، فقد تأتي بمعنى الجنة، أو بمعنى النبوة، أو بمعنى القرآن، أو بمعنى الغيث، أو بمعنى الرزق، أو بمعنى المغفرة والعفو، وغيرها من المعاني والأبعاد الكثيرة، التي استنبطها المفسرون، والتي تشمل كل خير ونفع، يعم الإنسان في الدنيا والآخرة.

ولهذه الرحمة الربانية الشاملة تجليات كثيرة، تضمنها الخطاب القرآني، منها إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومنها تسخير جميع الكائنات لمنفعة الإنسان، ومنها رفع البلاء وتفريج الكرب، ومنها إنزال المطر، ومنها رفع الحرج في أحكام الشريعة، ومنها قبول التوبة. ويندرج هذا البحث في إطار التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وتكمن أهميته في أن القرآن الكريم قد اهتم بموضوع الرحمة اهتمامًا لافتًا وبارزًا، وهذا البحث محاولة للكشف والإحاطة بمختلف الجوانب المتعلقة بمقام الرحمة في الخطاب القرآني.

مشكلة البحث:

من أبرز ما يلفت الانتباه في واقعنا الراهن ما شاع عن الإسلام من أنه دين العنف والإرهاب، وأن تعاليمه مبنية على الكراهية وإقصاء الآخر، ومما كرَّس هذه الشبهات ورسّخها أيضًا انتشار مظاهر التطرف والغلو، المفضي إلى العنف بين المسلمين، وهو ما يؤكد أن خلق الرحمة الذي احتل مساحة مهمة لا يمكن إغفالها في الخطاب القرآني، قد فقد معناه وعمقه في حياتهم، ولم يعد له تأثير يذكر في سلوكهم، بالإضافة إلى أن موضوع الرحمة لم يلق من العناية والاهتمام ما يستحقه في المجال الأكاديمي. ويطمح هذا البحث إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات المحورية منها:

ما مدى اهتمام الخطاب القرآني بمصطلح الرحمة؟ وما هي الدلالات اللغوية والاصطلاحية التي يكتسيها هذا المصطلح؟ وما هي المقاصد السامية والإيحاءات والأبعاد الكبرى المرتبطة بالرحمة الإلهية؟ وما هي التمثلات والتجليات المختلفة والمتنوعة لهذه الرحمة؟

الدراسات السابقة:

على الرغم من الأهمية الكبيرة التي يكتسيها موضوع الرحمة في القرآن الكريم، إلا أن الدراسات التي اهتمت به لا تزال قليلة ومحدودة، وكثير منها تناولت الرحمة في إطار موضوع الأخلاق الإسلامية. ومن ثَمَّ كانت معظم المعالجات جزئية وسريعة. ومن الأمثلة على ذلك:

١. خلق المسلم لمحمد الغزالي. طبع الكتاب بالدار الشامية للطباعة والنشر بدمشق عام ٢٠١٠م. وقد تناول فيه صاحبه مجموعة من الأخلاق الإسلامية في القرآن والسنة، ومنها خلق الرحمة بطريقة مختصرة.

٢. موسوعة أخلاق القرآن لأحمد الشرباصي. طبع الكتاب في طبعته الأولى بدار الرائد العربي ببيروت عام ١٩٨١م. وقد تناول في هذه الموسوعة بأجزائها الستة عددًا كبيرًا من الأخلاق الإسلامية ومنها خلق الرحمة.

٣. جواهر الأخلاق والآداب الإسلامية. عادل العوضي. طبع الكتاب بدار الشركة الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع. عام ٢٠٠٤م. وفيه تحدث عن معاني الرحمة بشكل عام، وأورد عددًا من الأمثلة عن الرحمة بين الناس والرحمة بالحيوان وغيرها.

٤. الرحمة في حياة الرسول ﷺ لراغب السرجاني. طبع الكتاب

برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. وقد عالج فيه مؤلفه خلق الرحمة في حياة النبي ﷺ بصفة خاصة، وضمنه بعض الإشارات السريعة للرحمة في القرآن.

أهداف البحث:

أما الأهداف المتوخاة منه، فهي تتلخص في إبراز المقاصد السامية للرحمة في الخطاب القرآني، وتجلية الأبعاد والدلالات الكبرى، التي يحملها مصطلح الرحمة، والعكوف على معانيه الجليلة المبثوثة بكثرة ملفتة للنظر بين آياته، والتعرف إلى المكانة المتميزة التي يحتلها خلق الرحمة في منظومة القيم الإسلامية، وتأصيل خلق الرحمة في المعاملات بإحياء قيمة الرحمة والتراحم في حياة المسلمين اليوم، لتغدو دستورًا في علاقاتهم على مستوى الذات وعلى مستوى العلاقة مع الآخر، والسعي لتجاوز كل الشبهات والافتراءات التي تحوم حول الإسلام، بالتأكيد على أن رسالته رحمة للعالمين.

منهج البحث:

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي من خلال جمع كل الآيات الواردة في موضوع الرحمة بجميع صيغها ومشتقاتها، ثم تصنيفها بحسب المفردات الكبرى المتعلقة بها، ثم الاستعانة بالملاحظة والتحليل لاكتشاف الأبعاد والمعاني والدلالات المختلفة، والاستناد إلى ذلك كله للخروج بجملة من القواعد العامة، التي تؤسس لموضوع الرحمة في الخطاب القرآني في جوانبه العديدة. واستعنت في إعداد هذا البحث بمجموعة كبيرة من المصادر والمراجع قاربت الخمسين كتابًا، أغلبها من كتب التفسير وعلوم القرآن القديمة والحديثة بمختلف مناهجها واتجاهاتها، قصد الإحاطة بأطراف الموضوع من جميع جوانبه،

واكتشاف أكبر قدر ممكن من الإيحاءات والأبعاد المرتبطة بالموضوع. في أثناء إعدادنا لهذه الدراسة لم نهتدِ إلى دراسات متخصصة في هذا الموضوع، وإنما هي إشارات سريعة ومقاربات عامة على الرغم من أن موضوع الرحمة يستدعي وقفات طويلة وتحليلات عميقة تجلِّي أسراره وخباياه.

خطة البحث:

مقدمة.

المبحث الأول: الرحمة المصطلح والمفهوم، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: مصطلح الرحمة قراءة في الإطار المفاهيمي.

المطلب الثاني: مصطلح الرحمة في الخطاب القرآني.

المبحث الثاني: خصائص الرحمة الإلهية، وفيه خمسة مطالب.

المطلب الأول: ارتباط الرحمة بالذات الإلهية.

المطلب الثاني: سعة رحمة الله وشمولها لكل شيء.

المطلب الثالث: رحمة الله مبذولة لجميع الخلق في الدنيا.

المطلب الرابع: الرحمة كلها بيد الله.

المطلب الخامس: رحمة الله عامة في الدنيا لجميع الخلق، وخاصة في الآخرة بالمؤمنين.

المبحث الثالث: مقام الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وأبرز معالمه.

المبحث الرابع: معاني الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وفيه عشرة مطالب.

المطلب الأول: الرحمة بمعنى النبوة.

المطلب الثاني: الرحمة بمعنى القرآن.

المطلب الثالث: الرحمة بمعنى الجنة.

المطلب الرابع: الرحمة بمعنى الرزق.

المطلب الخامس: الرحمة بمعنى النصر.

المطلب السادس الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان.

المطلب السابع: الرحمة بمعنى المغفرة.

المطلب الثامن: الرحمة بمعنى إجابة الدعاء.

المطلب التاسع: الرحمة بمعنى العصمة.

المطلب العاشر: الرحمة بمعنى السعة والتخفيف.

المبحث الخامس: تجليات الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني، وفيه سبعة مطالب.

المطلب الأول: إرسال الرسل والأنبياء.

المطلب الثاني: إنزال الكتب.

المطلب الثالث: إنزال المطر.

المطلب الرابع: تسخير الكائنات للخلق.

المطلب الخامس: رفع البلاء عن الخلق.

المطلب السادس: رفع الحرج عن الناس.

المطلب السابع: قبول التوبة.

الخاتمة ونتائج البحث.

المبحث الأول
الرحمة المصطلح والمفهوم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
مصطلح الرحمة قراءة في الإطار المفاهيمي

جاء في المعاجم العربية أن الرحمة لغة مشتقة من الفعل رحم يرحم مرحمة، إذا رقَّ له وتعطَّف عليه، قال الجوهري: الرحمة الرقة والتعطف[(١)]. وأصل المادة يدل على الرقة والعطف والرأفة، والرحمة في بني آدم عند العرب رقة القلب وعطفه[(٢)]، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا، ومنها الرحم وهي علاقة القرابة، ثم سميَّت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأن منها ما يكون ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ له من ولد[(٣)]، ورحمة الله عطفه وإحسانه ورزقه.

أما في المصطلح فقد عَرضت طائفة من القدماء للفظ الرحمة، ووضعوا لها تعاريف مختلفة، ومنهم الجاحظ الذي وصف الرحمة بأنها شعور يجمع بين الود والجزع، وُدٌّ وحُبٌّ للمرحوم، يدفع الراحم إلى إرادة الخير له

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. ط٢. ١٩٩٧م. دار العلم للملايين. بيروت. ج٥. ص١٩٢٩.
(٢) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. مادة رحم. دار صادر. بيروت. ج١٢. ص٢٣٠.
(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر العربي. بيروت. ١٩٧٨م ج ٢. ص٤٩٨.

والسعي في إيصاله إليه، وجَزَعٌ وخوف على المرحوم من أن يقع في مكروه أو يصيبه أذى: "الرّحمة خلق مركَّب من الودِّ والجزع، والرَّحمة، لا تكون إلّا لمن تظهر منه لراحمه خلّة مكروهة، فالرّحمة هي محبّة للمرحوم مع جزع من الحال الّتي من أجلها رُحِم"[١]. وعرفها ابن القيم على أنها: "صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقَّت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك ولو شقَّ عليك في ذلك"[٢]، وهي عند الراغب الأصفهاني: "رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلانا"[٣]، وذهب الكفوي إلى أن الرحمة: "حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان"[٤].

كما عرفتها طائفة من المحدثين، ومنهم محمد الطاهر بن عاشور الذي عَرَّفها بقوله إنها: "رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه، واسم الرحمة موضوع في العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حيّ، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه، ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق"[٥]، وهي عند أحمد الشرباصي: "فضيلة تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، بل يحس بآلام الآخرين، ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف"[٦]، وعند عبدالرحمن الميداني:

(١) عمرو بن بحر الجاحظ. تهذيب الأخلاق. دار الصحابة للتراث بطنطا. مصر. ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. ص٢٤.
(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت. ط ٢. ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م. ج٢. ص١٧٤.
(٣) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: نديم مرعشلي. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٩٧٢م. ص١٩٦.
(٤) أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. الكليات. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٩٩٣م. ص٤٧١.
(٥) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م. ج٢٦. ص٢١.
(٦) أحمد الشرباصي. موسوعة أخلاق القرآن. دار الرائد العربي. بيروت. ج١. ص١٢٢.

"رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر، أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر"[1].

وقد فرَّق العلماء في تعريفهم لمصطلح الرحمة بين نوعين منها: الرحمة الإلهية والرحمة الإنسانية، ونبَّهوا إلى ذلك حتى لا تختلط المفاهيم، لما بين النوعين من فرق كبير، وأشاروا إلى أن الرحمة الإلهية صفة من صفات اللّٰه عز وجل ثابتة الوجود له، وتتناسب مع جلاله وكماله، فهو المصدر الوحيد لإفاضة النعم بلا حد، والإحسان إلى جميع مخلوقاته بسعة وتجدد، لا منتهى لهما، فإذا أضيفت إليه فإنها تدلّ على الفيض الذي لا يتناهي والكرم الذي لا ينقطع، إذ إنها رحمة وهبية ليست مربوطة بشرط، يتفضّل اللّٰه بها دون اكتساب، بكل ما تحمله من الاتساع والفتوح والكرم، أما الرحمة الإنسانية فهي انفعال خاص يعرض للقلب عند مشاهدة النقص فيندفع الإنسان لرفع ذلك.

وقد أفاض العلماء والمفسرون في توضيح هذه الفروق، فقال أبو حامد الغزالي: "والرحمة تستدعي مرحومًا، ولا مرحوم إلا هو محتاج. ورحمة اللّٰه تامة عامة، أما تمامها فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها، وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعمَّ الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات، هو الرحيم المطلق حقًا"[2]، وقال الراغب الأصفهاني: "وإذا وُصِفَ بها الباري فليس يرادُ بها إلا الإحسان المجرَّد دون الرقة، وعلى هذا رُوِيَ أن الرحمة من اللّٰه إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطُّف... فذلك إشارة إلى ما تقدم وهو أن

(١) عبدالرحمن حبنكة الميداني. الأخلاق الإسلامية وأسسها. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط٨. ٢٠١٠م. ج٢. ص٣.

(٢) أبو حامد الغزالي. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م. ص١٤و١٥.

الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركَّز ﷻ في طبائع الناس الرقة، وتفرَّد بالإحسان"[1].

كما ذكر الآلوسي في التفرقة بين الرحمتين: أن الرحمة في العباد ناشئة من الانفعالات وتقلبات المزاج، لكنها إذا نسبت إلى الله عز وجل كانت صفة تتناسب مع كماله وجلاله: "فلأنَّ كون الرحمة في اللغة رقة القلب إنما هو فينا، وهذا لا يستلزم ارتكاب التجوز عند إثباتها لله ﷻ، لأنها حينئذ صفة لائقة بكمال ذاته كسائر صفاته"[2]، وذهب الشيخ محمد عبده في تفسيره لفاتحة الكتاب المذهب نفسه، فقال: "الرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة، وهي معنى يلم بالقلب، فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره، وهو محال على الله ﷻ بالمعنى المعروف عند البشر، لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الإحسان، والله ﷻ مُنَزَّهٌ عن الآلام والانفعالات"[3]، فالرحمة إذا أضيفت إلى الله ﷻ لا يراد بها إلا المنتهى الذي هو الفعل دون المبدأ الذي هو الانفعال: "فالرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده من صفات الفعل، وهي رقة على المرحوم، والله عز وجل منزَّهٌ عن الوصف بذلك"[4].

وقد ذهب العلماء إلى أن رحمة الله على صنفين: رحمة عامة شاملة في الدنيا لجميع المخلوقات من الإنس والجن والطير والوحش وسائر ما خلق الله في هذا الكون الشاسع، ورحمة خاصة تقتضي سعادة الدنيا والآخرة بيّن الله مستحقيها في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، قال

(١) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص١٩٦.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر. بيروت. ١٩٧٨م. ج١. ص٢٧.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠م. ج٤. ص٢٥.
(٤) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة. بيروت. ج١٣. ص٤١٤.

السعدي في تفسير هذه الآية: "﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي صغارها وكبارها..."(١).

ولمصطلح الرحمة في اللغة العربية نظائر وأشباه عديدة، وإن كنا نؤكد أن لكل كلمة في القرآن الكريم معناها الخاص وظلالها المتميزة التي لا تشاركها فيها لفظة أخرى، فإن القرآن: "يستخدم كل كلمة بدقة، بحيث تؤدي معناها بإحكام شديد، حتى يكاد السامع يؤمن أن هذه الكلمة إنما خلقت لهذا المكان بعينه، وأي كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها من الألفاظ"(٢) غير أن هناك ما يوحي بالقرابة في الدلالة بينها. وأقرب هذه النظائر: الرأفة والحنان والشفقة والعطف والرقة والرفق واللين.

وتنفرد كلمتا الرأفة والحنان بوضع خاص، لورودهما في القرآن الكريم للدلالة على شكل من أشكال الرحمة، حيث وردت كلمة الرأفة في موضعين، الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، والموضع الثاني في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧]، قال بعض المفسرين: إن الرأفة في الآيتين معناها الرحمة واللين(٣)، وذهب ابن منظور إلى أن الرأفة هي أشد الرحمة أو أرقها(٤).

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ١. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م. ص٣٠٥.
(٢) عمار ساسي. المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث. الأردن. ط ١. ٢٠٠٦م. ص٢٠١.
(٣) محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. دار الصابوني. القاهرة. ط١. ١٩٩٧م. ج٢. ص٢٩٨.
(٤) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. مادة رأف. ج٩. ص١١٢.

أما في باقي المواضع التي وردت فيها بصيغة فعيل (رؤوف)، وهي أحد عشر موضعًا[١]، فقد اقترنت في ثمانية مواضع منها بكلمة رحيم (رؤوف رحيم)، وقد فصَّل فيها المفسرون، واستنبطوا منها جملة من المعاني. ففي حين ذهب ابن عاشور إلى أن: "الرؤوف الرحيم صفتان مشبهتان، مشتقة أولاهما من الرأفة، والثانية من الرحمة، والرأفة مفسَّرة بالرحمة في إطلاق كلام الجمهور من أهل اللغة"[٢]، رأى الطبري في تفسيره: أن الرأفة هي أعلى معاني الرحمة[٣]، وقال الأزهري: "الرأفة أخص من الرحمة وأرق"[٤]، أما الخطابي فيرى فيهما فرقًا من نوع آخر، وضَّحه في قوله: "قد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد تكون الرأفة في الكراهة، فهذا موضع الفرق بينهما"[٥]، ووافقه في ذلك القرطبي الذي ذكر أن: "الرأفة نعمة مُلذَّة من جميع الوجوه، والرحمة قد تكون مؤلمة في الحال، ويكون في عقباها لذة... لأن صفة الرأفة إذا انسدلت على مخلوق لم يلحقه مكروه"[٦]، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، فالرحمة في جلدهما حاصلة فعلًا، لأن الجلد يطهّر الزاني من ذنبه، وينتهي به إلى جنات النعيم، على الرغم من أن ظاهره عذاب، إلا أن باطنه رحمة، ونهى سبحانه وتعالى عن الرأفة بهما، لأن الرأفة خير في أولها وآخرها، ولو حصلت الرأفة لما أمكنَ تنفيذ حدِّ الجلد.

(١) البقرة (١٤٣،٢٠٧)، آل عمران (٣٠)، التوبة (١١٧،١٢٨)، النحل (٧،٤٧)، الحج (٦٥)، النور (٢٠)، الحديد (٩)، الحشر (١٠).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير ج ١٨. ص١٢٣.

(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة. بيروت. ط ٣. ١٩٧٨م. ج٣. ص١٧١.

(٤) محمد بن أحمد الأزهري. تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠١م. ج١٥. ص٢٣٨.

(٥) حمد بن محمد البستي الخطابي. شأن الدعاء. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار الثقافة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م. ص٩١.

(٦) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط ١. ٢٠١٢م. ص١١٥.

وذهب الآلوسي مذهبهما، فقد ذكر هو أيضًا أن المشهور عند العلماء أن الرأفة تأتي بمعنى الرحمة: "لكن إذا اقترنتا في سياق الكلام فلكل واحدة مكان من الكلام، حيث يراد بالرأفة درء المفاسد، ويراد بالرحمة جلب الخير والمصالح"[(١)]، ودعموا هذا الرأي بأننا نقول لمن أصابه بلاء في الدنيا في ضمنه خير له في الآخرة: إن الله قد رحمه بهذا البلاء، ونقول لمن أصابته عافية في الدنيا في ضمنها خير في الآخرة، واتصلت له العافية أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا: إن الله قد رأف به، وهذا ما قصده ابن القيم حين قال: "ومن رحمته سبحانه وتعالى ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمة لهم وحميّة، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، ومن رحمته أن نغَّصَ عليهم الدنيا وكدَّرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيَهم، وابتلاهم ليعافيهم"[(٢)]، فالرحمة تسبق الرأفة، والرأفة هي المنزلة التي تعقُبُها، فإذا رقَّ القلب دعاه ذلك إلى الرحمة، وإذا رحِمَ واشتدَّت رحمته وامتلأ القلب بها كانت الرأفة.

أما كلمة حنان فقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾ [مريم]، وقد ذهب كثير من المفسرين واللغويين أمثال الفراء والأزهري إلى أنها تعني الرحمة والعطف والمحبة[(٣)]، ومنهم الراغب الأصفهاني الذي قال: "ولما كان الحنين متضمنًا للإشفاق، والإشفاق لا ينفكُّ من الرحمة، عُبِّرَ عن الرحمة به في نحو قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾"[(٤)].

(١) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. مج ٩. ج٢٧، ص١٩٠.
(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ج٢. ص١٧٥.
(٣) راجع: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن. مج ٨. ج١٦. ص٤٣. و: إسماعيل ابن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٤. ص٤٤٢. و: برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ١٩٨٤م.ج٤. ص٥٢٤.
(٤) الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص١٣٢.

ومن أضداد الرحمة في اللغة: القسوة، العنف، التعسير، الجفاء، الطغيان، العتوّ، الظلم، القهر والاستبداد وغيرها من المفردات التي توحي بقسوة القلب وجفاف الروح وموت الضمير ودناءة الأخلاق وخراب الذمة، وما ينتج عن ذلك كله من اعتداء على حقوق العباد، وأكل أموال الضعفاء، واستحلال الدماء والأعراض، ونشر الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل.

المطلب الثاني

مصطلح الرحمة في الخطاب القرآني

الرحمة مصطلح قرآني أصيل، لا يكاد يغيب عن مجمل السور القرآنية، وهو يلفت نظرنا بحضوره القويّ والمكثف في ثنايا الآيات الكريمة، وقد تعددت تعاريفه وتنوعت بحسب ما تلقيه هذه الكلمة من الظلال الكثيفة، وما تكتنزه من المعاني الثرية. وأكثر ما يثير الانتباه أن صفة الرحمة قد انفردت في القرآن الكريم بالصدارة وبفارق كبير عن أي صفة أخرى، فقد تكررت بمشتقاتها ٣٣٢ مرة كما هو واضح من الجدول الآتي:

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
١	رحم (٤ مرات) رحمه رحمنا رحمته رحمناهم	صيغة الماضي	٨ مرات	رحم: هود (٤٣) (١١٩)، يوسف (٥٣)، الدخان (٤٢)، رحمه: الأنعام (١٦)، رحمنا: الملك (٢٨)، رحمته: غافر (٩)، رحمناهم: المؤمنون (٧٥)

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
٢	ترحمون(٨ مرات) يرحمكم(٢ مرتان) ترحمنا يرحمنا ترحمني يرحم	صيغة المضارع	١٤ مرة	ترحمون: آل عمران (١٣٢)، الأنعام (١٥٥)، الأعراف (٦٣) (٢٠٤)، النور (٥٦)، النمل (٤٦)، يس (٤٥)، الحجرات (١٠)، يرحمكم: الإسراء (٨) (٥٤)، ترحمنا: الأعراف (٢٣)، يرحمنا: الأعراف (١٤٩)، ترحمني: هود (٤٧).
٣	ارحمنا (٣ مرات) ارحم ارحمهما	صيغة الأمر	٥ مرات	ارحمنا :البقرة (٢٨٦)، الأعراف (١٥٥)، المؤمنون (١٠٩)، ارحم: المؤمنون (١١٨)، ارحمهما: الإسراء (٢٤).
٤	سيرحمهم	صيغة المستقبل	١ مرة واحدة	التوبة (٧١).
٥	رحمة (٧٩ مرة)- رحمته (٢٥ مرة) رحمتك (٣ مرات) رحمتنا (٥ مرات) رحمتي (٢ مرتين)	صيغة الاسم	١١٤ مرة	رحمة: وردت (٧٩) مرة في (٣١) سورة، رحمته: وردت (٢٥) مرة في (١٨)سورة، رحمتك: الأعراف (١٥١)، يونس (٨٦)، النمل(١٩)، رحمتنا: يوسف (٥٦)، مريم (٥٠) (٥٣)، الأنبياء (٧٥) (٨٦)، رحمتي: الأعراف (١٥٦)، العنكبوت (٢٣).
٦	المرحمة رحمًا	صيغة المصدر	٢ مرتان	المرحمة: البلد (١٧)، رحمًا: الكهف (٨١).

#	الصيغة	النوع	العدد	السور
٧	أرحم (٤ مرات)	صيغة اسم التفضيل	٤ مرات	أرحم: الأعراف(١٥١)، الأنبياء(٨٣)، يوسف(٦٤)(٩٢).
٨	الأرحام (٩ مرات) أرحامكم (٢ مرتان) أرحامهن (١ مرة واحدة)	صيغة اسم الذات	١٢ مرة	الأرحام: آل عمران(٦)،النساء(١)، الأنعام (١٤٣، ١٤٤)، الأنفال (٧٥)، الرعد (٨)، الحج (٥)، لقمان (٣٤)، الأحزاب (٦)، أرحامكم: محمد (٢٢)، الممتحنة (٣)، أرحامهن: (البقرة، ٢٢٨).
٩	رحماء	صيغة المبالغة	١ مرة واحدة	الفتح، ٢٩
١٠	الرحمن		٥٧	وردت في ١٨ سورة منها: الفاتحة، البقرة، الرعد، الإسراء، مريم، يس، الزخرف، الملك وغيرها.
١١	الرحيم		١١٤	وردت في ٤٢ سورة منها: الفاتحة، البقرة، النساء، التوبة، النحل، النور، الشعراء، الأحزاب وغيرها.

ويبرز من بين هذه الصيغ جميعًا اسم الرحمن الرحيم، الذي تكرر في أوائل كل سور القرآن ما عدا سورة التوبة، والذي عده العلماء من أجلّ أسماء الله ﷻ وأعظمها وأشهرها بعد اسم الجلالة (الله)، وكلاهما مشتق من الرحمة، عرّف الله بهما نفسه إلى الخلق، فقال عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢]، قال ابن القيم: "أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن، وهي من أظهر

شعائر التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام، وهي بسم الله الرحمن الرحيم، التي هي مفتاح الطّهور، والصلاة وجميع الأفعال..."[١].

وقد اقترن هذان الاسمان بعضهما ببعض في ستة مواضع في القرآن الكريم، ذهب بعض العلماء إلى أن الاسمين بمعنى واحد، وإنما جمع الله سبحانه وتعالى بينهما للتوكيد[٢]، حيث ورد عن القرطبي قوله: "قال قطرب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد. قال أبو إسحاق: وهذا قولٌ حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد، والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد: إنّه تفَضُّلٌ بعد تفضّل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعْدٌ لا يخيبُ آمِلُهُ"[٣]، وقد عقب الإمام محمد عبده على ذلك قائلًا: "وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه: إن في القرآن كلمة تغاير أخرى، ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به. نعم، قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريرًا أو إيضاحًا، ولكن الذي لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف في عرف أهل اللغة. فإن ذلك لا يقع إلا في كلام من يرمي في لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق"[٤].

بينما اتفق كثير من العلماء والمفسرين على وجود فروق في معانيهما، وفصَّلوا في هذه الفروق، وأبرزها: أن صفة الرحمن انفردت عن صفة الرحيم باقترانها باسم الله الذي لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره، قال تعالى:

(١) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. اختصره: ابن الموصلي. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث. القاهرة. ط ١. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. ج٢. ص١١٢.

(٢) أحمد بن محمد النحاس. معاني القرآن. تحقيق: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط ١. ١٤٠٩هـ. ج١. ص٥٤.

(٣) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان ابن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط ١. ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. ص٤٠٠.

(٤) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٣٣.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، وعقَّب الجوهري على هذه الآية بقوله: "فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره"(١)، وقال ابن دريد: "فكما أن الله اسم ليس لأحد فيه شركة كذلك الرحمن"(٢)، وقال سيد قطب: "ووصفه سبحانه وتعالى في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم؛ ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن، ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان"(٣).

ومن هذه الفروق أيضًا أن صفة الرحمن جاءت في صيغة مبالغة: "الرحمن صيغة مبالغة من الرحمة، معناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل، لأن راحمًا يقال لمن رحم ولو مرة، ورحيما يقال لمن كَثُرَ منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة"(٤)، وقال ابن الجوزي: "وخلاصة الأمر أن الرحمن مشتق من الرحمة، مبنيٌّ على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة التي لا نظير له فيها"(٥)، ورأى بعضهم أن صفة الرحمن ترمز إلى الرحمة الإلهية العامة، التي تشمل الموالي والمعادي، والمؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، وهي صيغة مبالغة لذلك لا يسمَّى به غير اللّه سبحانه وتعالى، والرحيم ترمز إلى الرحمة الخاصة الإلهية، التي خص بها اللّه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، وجعلها من نصيب المتقين المحسنين: "ولعل في ذكر الرحيم بعد الرحمن ما يفيد تخصيص المؤمنين بزيادة الرحمة

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. مادة رحم. ج٥. ص١٩٢٩.
(٢) محمد بن الحسن بن دريد. جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٨٧م. ج١. ص٥٢٤.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط ٧. ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م. ج١. ص٢١ – ٢٢.
(٤) عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلى. بيروت. ج١. ص٢١.
(٥) عبدالرحمن بن علي بن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط ٣. ١٤٠٤هـ. ج١. ص٩.

بعد عموم رحمته في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، يرحم المؤمنين بالمغفرة وإدخالهم الجنة"[١]، وفي تفسير المنار: "والجمهور على أن معنى (الرحمن) المنعم بجلائل النعم، ومعنى (الرحيم) المنعم بدقائقها، وبعضهم يقول: إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم في اللغة، مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"[٢].

أما صيغة الرحيم فقد وردت مفردة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم[٣]، كما اقترنت في آيات أخرى بجملة من الصفات الخاصة بالله عز وجل منها: الغفور، العزيز، التواب، الرؤوف، الودود، البر. فاسم الغفور اقترن بالرحيم اثنتين وخمسين مرة (٥٢)، وهي من أكثر المعاني التي اقترنت ببعضها في القرآن الكريم، وقد علق محمد الطاهر بن عاشور على ذلك بقوله: "إن الرحيم يؤكد معنى الغفور، ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عما هم فيه"[٤]. ولم تأت صفة الرحمة سابقة على المغفرة إلا في موضع واحد في قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ:٢]، وعلل فاضل السامرائي ذلك بتعليل لطيف، فقال: "وسبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في سورة سبأ، لأن الرحمة شملتهم جميعًا والمغفرة تخص بعضًا، والعموم قبل الخصوص بالرتبة. ولإيضاح ذلك: أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعمُّ، والمغفرة لا تأتي إلا للمكلَّفين

(١) عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. ج١. ص٢١.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٤٠.
(٣) النساء، ٢٩. الإسراء، ٦٦. الأحزاب، ٤٣.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٦. ص١٥٧.

والمذنبين الذين يغفر الله ﷻ لهم، وإنما جاء ذكرهم بعد الآيتين الأولى والثانية لذا اقتضى تأخير الغفور لتأخر المغفور لهم في سياق الآية. أما في باقي سور القرآن الكريم فقد وردت الغفور الرحيم؛ لأنه تقدّم ذكر المكلَّفين فيذنبون فيغفر الله ﷻ لهم، فتطلّب تقديم المغفرة على الرحمة"[1].

واقترن اسم العزيز بالرحيم أربع عشر مرة (١٤)، وقد ذكر العلماء من لطائف هذا الاقتران: أن الرحمة الإلهية نابعة من العزة والقوة والقدرة، فهو ﷻ قادر على قهر من يعصيه بعزته، ونصر من يطيعه برحمته[2]، واقترن اسم التواب بالرحيم عشر مرات، قال الشعراوي: "والتواب صيغة مبالغة، فكلما تكررت التوبة من العبد بتكرار ذنبه، كلما تكرر القبول من الله لعباده برحمته"[3].واقترن اسم الرؤوف بالرحيم تسع مرات (٩)، واسم البر مرة واحدة، واسم الودود مرة واحدة. قال ابن القيم: "وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب ﷻ يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك"[4].

ومما سبق يتضح لنا أن الرحمة مصطلح قرآني واسع الحضور، شديد الصلة بكثير من الصفات الإلهية التي اقترنت به وأنبأت عن سعته وشموله لكل دقائق الوجود وشؤون الحياة.

(١) فاضل السامرائي. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. دار عمار. عمان. الأردن. ط ٣. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. ص٣١٥.
(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م. ج٢. ص١١٣.
(٣) محمد متولي الشعراوي. أسماء الله الحسنى. المكتبة التوقيفية للتراث. القاهرة. ٢٠١٠م. ص٢٧٨.
(٤) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. التبيان في أقسام القرآن. دار المعرفة للطباعة والنشر. القاهرة. ٢٠٠٤م. ج١. ص٩٣.

المبحث الثاني
خصائص الرحمة الإلهية

وفيه خمسة مطالب:

إن المتأمل في الآيات الكثيرة التي ورد فيها مصطلح الرحمة يدرك أن هذه الصفة الربانية متغلغلة في كل ذرة من ذرات الوجود، تتراءى لنا مظاهرها في كل حركاته وسكناته، وتتجلى في جميع مظاهر هذا الكون البديع الذي يرعاه الرحمن الرحيم بعنايته، ويُسَيِّر شؤونه برأفته ورفقه ولطفه. وهذا ما نستخلصه من تأملنا في خصائص هذه الرحمة، التي تؤكد شمولها وسعتها واستيعابها لجميع الخلائق، كما سنوضِّح فيما يلي:

المطلب الأول
ارتباط الرحمة بالذات الإلهية

نستشف من الخطاب القرآني أن من أخص خصائص الرحمة الإلهية ارتباطها بالخالق عز وجل، فالرحمة صفة ثابتة من صفاته سبحانه وتعالى، وصف بها نفسه العلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وأكد أنه مصدر الرحمة كلها ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، جاء في تفسير الطبري: "يقول جل ثناؤه (وربك) الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه،

وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية (الغني)، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم. يقول عز ذكره: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم آمرهم بما أمرتهم به، وأنههم عما نهيتهم عنه، لحاجة لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرأفة والرحمة"[1].

وقال ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، قال الطبري: "قضى ﷻ أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من الله ﷻ ذكره استعطاف للمعرِضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة"[2]، وقال ابن كثير: "أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا"[3].

فهذه الرحمة ذات المصدر الإلهي تفيض بالخير وتسِحُّ بالعطاء، لأنها نابعة من إله غنيٍّ بيده خزائن السموات والأرض، ينفق منها كيف يشاء، ويغمر بها مخلوقاته، وهو يعاملهم بما عنده من الرحمة الواسعة، وليس بما يستحقونه من المعاملة، إذ في كثير من أعمالهم وأقوالهم الظلم والبغي والفساد والعدوان والإسراف، وغيرها من المنكرات والموبقات، ولو أنه ﷻ وضع ميزان عدله ورفع موجبات رحمته لهلك الناس: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨]، قال السعدي: "ثم أخبر ﷻ عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب لعجَّل لهم العذاب. ولكنه ﷻ حليم لا

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص١٢٦.
(٢) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٥. ص١٥٤.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٣. ص٢٦٣.

يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل. وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة. فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب"[١]. لذلك قال الفيروز آبادي: "الرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم"[٢].

وهذه الرحمة الربانية لا تُقَاسُ بمعايير العباد القاصرة، وإنما هي خاضعة لحكمة الله وعلمه الواسع، الذي لا يحيط به البشر. فقد تبدو الأوامر والنواهي والزواجر وسيرورة الأحداث للناس كأنها عقاب أو تشديد من الله، بينما هي تحمل في باطنها الرحمة والرأفة واللطف الإلهي. يقول ابن القيم: "من رحمته سبحانه وتعالى ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمةً لهم، وحميةً لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، ومن رحمته أنْ نَغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذَّرهم نفسه لئلا يغتروا به، ومن رحمته أن أنزل لهم كتبًا، وأرسل لهم الرسل"[٣].

المطلب الثاني
سعة رحمة الله وشمولها لكل شيء

وينبئنا الخطاب القرآني أن من خصائص رحمة الله أيضًا شمولها وسعتها سعةً لا حدود لها، يدبر بها سبحانه وتعالى شؤون العالمين، ويسبغها بلطفه

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٤٨١.
(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد النجار. المكتبة العلمية. بيروت. ج٣. ص٥٤.
(٣) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ج٢. ص٢٤٤.

على جميع خلقه البرَّ والفاجر، والطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد شملته هذه الرحمة، ووصلت إليه منَّة اللّه، وغمره فضله، وعمَّه إحسانه، من حلمه على عباده ورزقه إياهم، وتوفيقه لهم في أمور معاشهم ودنياهم، فالجميع يتقلبون في رحمته آناء الليل وأطراف النهار، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه: "ورحمة اللّه تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه، وهو كثير"[1]. قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي شأنها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص ولا حيوان ولا جماد، إلا وهو متقلب في الدنيا برحمته. قال الآلوسي: "ورحمتي وسعت كل شيء: إنسانًا كان أو غيره، مطيعا كان أو غيره، فما من شيء إلا وهو داخل فيها سابح في تيارها أو سايح في فيافيها، بل ما من معذب إلا ويرشح عليه ما يرشح منها"[2].

المطلب الثالث
رحمة اللّه مبذولة لجميع الخلق في الدنيا

فأبوابه مفتوحة لكل من أراد أن يستظل بظل رحمته، وينعم بجواره، وينال موجبات مغفرته، ويعود إلى حظيرة عفوه، ويحظى بستره وإحسانه، وقد بيَّن لنا ﷻ في كتابه الكريم أنه عفوٌّ كريم، يغفر الذنوب، ويتجاوز عن السيئات ويقيل العثرات، ويمحو الزلات، ويتوب على التائبين ويفرح بعودة

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢١.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٩. ص٧٨.

المخطئين، ويبالغ في إكرامهم حتى إنه ليبدِّل ما أسلفوا من السيئات حسنات لهم، مكافأة لهم على تركهم للمعاصي والمنكرات، واتباعهم لصراط الله المستقيم. لذلك فإن رحمة الله في متناول كل من أراد أن يعيش في كنفها، فيطلبها بأسبابها، ويتحرَّى الوسائل الموصلة إليها "وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام.(١)"

وينبئنا الخطاب القرآني أن رحمة الله لا تعزُّ على طالب في أيِّ مكان ولا في أيّ حال: "وجدها إبراهيم عليه السلام في النار. ووجدها يوسف عليه السلام في الجب كما وجدها في السجن. ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام في اليم، وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف:١٦] ووجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار، والقوم يتعقَّبونهما ويقُصُّون الآثار، ووجدها كلُّ من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها، منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنَّة في رحمة، قاصدًا باب الله وحده دون الأبواب"(٢).

المطلب الرابع
الرحمة كلها بيد الله

فهو سبحانه وتعالى مصدرها الأول والأخير، من فضله تنبع، ومن إحسانه تفيض،

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.

ورحمة العباد بعضهم ببعض فيض من رحمته، وليس بمقدور أحد أن يمسك هذه الرحمة إذا أرسلها رب الأرباب، ولا بمقدوره أن يرسل منها مثقال ذرة إذا أمسكها العزيز الوهاب. قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢]: "ثم إنه متى فتح اللّه أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها، ومن ثَمَّ فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد، ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة، إنما هي مشيئة اللّه، ما يفتح اللّه فلا ممسك له، وما يمسك اللّه فلا مرسل له، والأمر مباشرة إلى اللّه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، يُقَدِّر بلا مُعَقِّب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك". [1] وهذه الحقيقة الجميلة تبعث في نفوس المؤمنين الاطمئنان، وتنشر فيها الراحة والاستسلام لرب العالمين، وتشعرها بالأمان، فلا تكسرها المصائب، ولا تغلبها النوائب، ولا يتسلل اليأس إليها، وهي موقنة أن رحمة اللّه ترعاها بعنايتها.

المطلب الخامس
رحمة الله عامة في الدنيا لجميع الخلق وخاصة في الآخرة بالمؤمنين

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى:

أجمع كثير من العلماء والمفسرين على أن من خصائص رحمة اللّه أنها عامة لجميع الخلق في الدنيا، يتفيّؤ ظلالها البشر جميعًا على اختلاف أجناسهم

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٩٢٣.

ومللهم ونحلهم واعتقاداتهم، لا يمنعهم الله من الانتفاع بشمسه ولا قمره ولا رزقه، ولا يبخل عليهم بالأمن والصحة والعافية والأقوات الوفيرة والنعم الكثيرة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، لأن الدنيا دار ابتلاء، تتساوى فيها فرص الجميع في العطاء، ليتنافس الناس أيُّهم أحسن عملا. يقول عبدالحميد بن باديس: "وأما في الدنيا فإنهم قد أُعطُوا من نِعَم الحياة، ومُكِّنُوا من أسبابها. فقد تساووا في الخلقة البشرية، وفي العقل المميِّز المفكِّر، وفي الإرادة الحرة. وقد أظلَّتهم السماء، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء. وقد أقلَّتهم الأرض وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء والنبات والحيوان والجماد، وكلّ ما يخرج من الأرض، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية إليه، فاختار كلٌّ بعقله - وهو حرٌّ في إرادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها ما اختار لنفسه"(1).

المسألة الثانية:

أما في الآخرة التي هي دار حساب وجزاء، فإن الرحمة التي تقتضي دخول الجنة ستكون من نصيب المؤمنين فقط، أولئك الذين آمنوا واتقوا، وأحسنوا القول والعمل، وجاهدوا أنفسهم، لتستقيم على طريق الله، وخالفوا أهواءهم، وقتلوا نوازع الشر والاستكبار فيها، وزرعوا الخير بين الناس، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وكانوا حراسًا أوفياء لقيم العدل والخير. ويُحْرَم منها العصاة، لأنهم تنكبوا الصراط المستقيم، وانجرفوا مع تيارات الكفر والجحود والنفاق والهوى، وعاثوا في الأرض فسادا. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

(١) عبدالحميد بن باديس. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. جمع وترتيب وإعداد وتعليق: توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان. ط٣. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. ص٧٩.

المسألة الثالثة:

وهناك فئات محرومة من رحمة الله يوم القيامة حرمانًا مطلقًا، خصها الخطاب القرآني بالذكر، لما لأصحابها من أثر بالغ في الفساد والإفساد، وهم الكافرون والطغاة والظالمون والمجرمون. وإذا كانت أسماؤهم تختلف باختلاف أنواع معاصيهم، فإنهم يشتركون جميعًا في كونهم رؤوس الشر ومصدر الفساد في الأرض. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكافرين إنما استحقوا الحرمان من رحمة الله لكفرهم به وجحودهم لوجوده أو شركهم وعدم إفراده بالعبودية، ونال الطغاة والمجرمون والظالمون الجزاء نفسه، لأنهم جمعوا إلى الكفر بالله أو الشرك به صفات الطغيان والظلم والإجرام، كما يتضح ذلك من سياق الآيات، وفيما يأتي توضيح لذلك:

أ. الفئة الأولى الكافرون:

الذين يكفرون بالله، ويتخبطون في الشك والريب، ويجحدون وحدانيته، ويرفضون الحق الذي جاء به الأنبياء، وينكرون البعث والحساب، ويرفضون الاستماع إلى الوحي، ويعطلون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، فلا يقلّبونها في آيات الله الظاهرة، ويحاربون الله ورسوله، ويوالون الطواغيت للقضاء على المؤمنين، ويصدون عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت]، قال الرازي: "﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يُرْحَم، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلًّا للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين، فييأسوا من رحمة الله"[1].

(١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م. ج٢٠. ص٤٥.

وفي تفسيرها أيضًا قال السعدي: "يخبر ﷻ من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاؤوهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: أولئك يئسوا من رحمتي، أي: فلذلك لم يعلموا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلا فلو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير"(١)، ويعقب سيد قطب على هذه الآية قائلًا: "ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربه، وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، وجفت نداوته، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل، والعاقبة معروفة: وأولئك لهم عذاب أليم"(٢).

ب. الفئة الثانية الطغاة:

وهم الذين جمعوا إلى الكفر أو الشرك صفة الطغيان، فقست قلوبهم وأنكروا الحق وحاربوه، وأسرفوا في الظلم وسفك الدماء، وجاوزوا الحد في البغي في الأرض، فأهلكوا الحرث والنسل، فهؤلاء محرومون من هذه الرحمة، لأنهم ليسوا أهلًا لها، وقد جزم الله ﷻ أنه لو رحمهم وكشف عنهم الضر لبالغوا في الفساد، ولملؤوا الدنيا طغيانًا وظلمًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ [المؤمنون:٧٥] "وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس، القاسية قلوبهم، الغافلين عن الله، المكذبين بالآخرة"(٣).

ج. الفئة الثالثة المجرمون:

الذين يعادون الأنبياء، ويؤذون أتباعهم، ويسخرون من أهل الحق

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ج٦. ص١٣١٠.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٧٣٢.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٤. ص٢٤٧٧.

والصلاح ويمكرون بهم ويصدون عن سبيل الله، ويغرقون في مظاهر الترف. وقد دل سياق الآيات الكريمة أنه ليس المراد بالمجرمين كل من ارتكب معصية، بل المراد به الكافرون والمشركون. قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام]، قال الطبري: "(فقل ربكم ذو رحمة) بنا وبمن كان به مؤمنًا من عباده، وبغيرهم من خلقه، (واسعة) تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ولكن بأسه وسطوته وعذابه لا يرده إذا أحله عند غضبه على المجرمين، و(المجرمون) هم الذين أجرموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات."[1]

د. الفئة الرابعة الظالمون:

وهم الذين يجحدون آيات الله، ويعرضون عنها، ويتخذونها هزوًا، ويتعدون حدوده ويتبعون الهوى، ويضلون الناس بغير علم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى]، قال السعدي: "وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فما لهم من دون الله من وليٍّ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب، ولا نصير يدفع عنهم المكروه"[2]. وقال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان]، فكل من تلبَّس بظلم فهو مطرود من رحمة الله، وأعظم الظلم الكفر والشرك، وإنكار الجزاء والتكذيب بالآخرة، والآية لا تشمل المؤمنين الذين قد يقترفون ظلمًا لكنهم يظلون في دائرة التوحيد.

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان في تفسير القرآن. ج١٢. ص٢٠٧.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص١٥٨٢.

قال السعدي: "يدخل من يشاء في رحمته، فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة، ويهديه لطرقها. والظالمين الذين اختاروا الشقاء على الهدى أعد لهم عذابًا أليمًا بظلمهم وعدوانهم"[1].

ومما سبق يتضح لنا أن رحمة اللّه في الدنيا عامة للجميع، أما في الآخرة فإنها خاصة بالمؤمنين، كما يقتضيه عدل اللّه ﷻ، والذي يضع الموازين القسط لتُجْزَى كل نفس بما عملت.

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٩٠٣.

المبحث الثالث
مقام الرحمة الإلهية
في الخطاب القرآني، وأبرز معالمه

لا نبالغ إذا قلنا: إن صفة الرحمة قد حازت في الخطاب القرآني قصب السبق، وانفردت بالصدارة وبفارق كبير عن أي صفة أخرى، حيث تكررت بمشتقاتها -كما أسلفنا- ٣٣٢ مرة، بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن عددها يبلغ ٣٤٠ مرة: "فهي تتوزع تقريبًا صفحات المصحف كلها، لتصل إلى ٣٤٠ موقعًا، تكاد تكون بعدد أيام السنة حتى لتوشك أن تبلغ نسبة رحمة قرآنية كل يوم! ويزيد الأمر رسوخًا أن هذا الرقم يتوزع على ٣٢ تصريفًا واشتقاقًا، مما يدل على سعة تداول القرآن الكريم للفظة الرحمة وعِظَم تصرفها في ثناياه أفعالًا وأسماء وصفات، بالمفرد والجمع، بالإسناد والإطلاق"[(١)]. وفي المقابل فقد جاءت كثير من الصفات التي زكاها القرآن في منزلة تالية لمنزلة الرحمة، حيث وردت صفة الصدق مثلًا (١٤٥مرة)، والصبر (٩٠ مرة) والعفو (٤٣ مرة) والكرم (٤٢ مرة) والأمانة(٤٠ مرة) كما هو مبيَّن في الرسم البياني التالي[(٢)]:

(١) أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات. الدار البيضاء. المغرب. ط١. مارس ٢٠١٤م. ص١٥.

(٢) راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي. مكة المكرمة. ص٤٥.

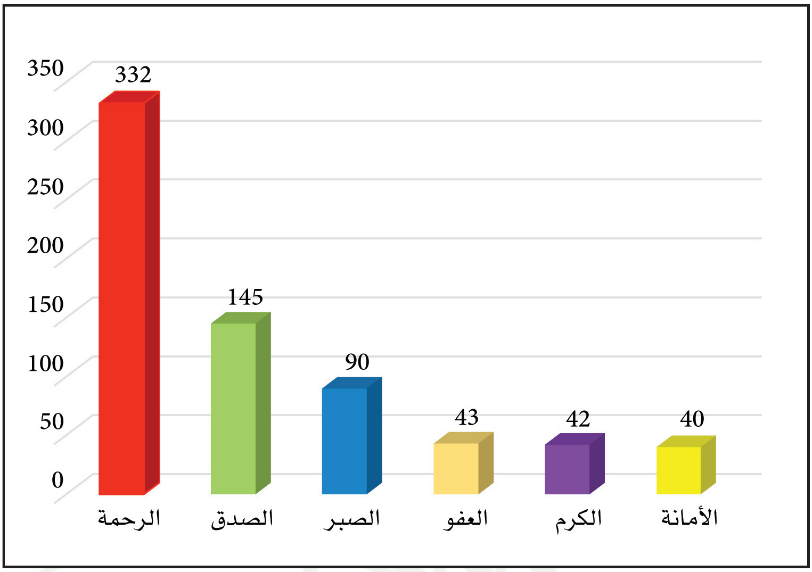

ويتضح لنا مقام الرحمة في الخطاب القرآني جليًا في كثير من المعالم التي تقابلنا في أثناء تصفحنا لكتاب اللّه، ومن أبرز هذه المعالم:

أ. تكرار البسملة في كل السور:

فجميع سور القرآن الكريم -ما عدا سورة التوبة- تبتدئ بالبسملة التي تتضمن صفتي الرحمن والرحيم بالذات دون سائر الصفات الإلهية المبثوثة في ثنايا الآيات، وهذا دليل على تميُّزها وعلوِّ مقامها، إذ هي مقصودة بمعانيها وأبعادها، لتدل على أن الذي أنزل هذا القرآن وصدَّر سوره بهاتين الصفتين إنما يرعى مخلوقاته بهما ويدبر شؤونهم بمقتضاهما: "وليس يخفى على أحد أن تصدير كل السور بهاتين الصفتين (الرحمن الرحيم) أمر له دلالته الواضحة على أهمية الرحمة في التشريع الإسلامي... وكان من الممكن أن يجمع اللّه عز وجل مع صفة الرحمة صفة أخرى من صفاته كالعظيم أو الحكيم أو السميع أو البصير، وكان من الممكن أن يجمع مع الرحمة صفة أخرى تحمل معنى آخر، يحقق توازنًا عند القارئ، بحيث لا تطغى عنده صفة الرحمة،

وذلك مثل الجبار أو المنتقم أو القهار، ولكن الجمع بين هاتين الصفتين المتقاربتين في كل بداية لسور القرآن الكريم يعطي الانطباع الواضح جدًا، وهو أن الرحمة مُقدَّمَة بلا منازع على كل الصفات الأخرى، وأن التعامل بالرحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبدًا، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول"[1].

ب. العدد الكبير من الآيات الواردة في الرحمة:

فقد أسلفنا أن لفظ الرحمة قد ورد في القرآن الكريم بصيغه المختلفة ومشتقاته ٣٣٢ مرة، واستوعب من المعاني الجليلة والإشارات اللطيفة الشيء الكثير، حتى إن الناظر في القرآن الكريم ليعجب من شيوع الرحمة بلفظها ومعانيها ومرادفاتها في ثنايا آياته؛ فهي تتوزع نسيج القرآن الكريم وتزيِّنه بمعانيها الغنية، وتؤكد حقيقة كونه فعلًا ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، إضافة إلى تكرار وصف الله لكتابه بأنه (الرحمة)، وما يلابسها من شفاء ونور وهداية.

ج. طلب الرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين:

حيث نجد أن للرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين مكانة متميزة في الخطاب القرآني، فهي مقصدهم جميعًا، وملجؤهم في الملمّات، ومطلبهم الأسمى في الدنيا والآخرة.

ففي دعوات الملائكة المقربين الذين يحملون العرش توسل إلى الله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله، وأن يشملهم برحمته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن

(١) راغب السرجاني. الرحمة في حياة الرسول ﷺ. ص٣٣.

﴿تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر:٧-٩]، قال السعدي: "وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه. فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة ما اقتضته النفوس البشرية، التي علم الله نقصها توسلوا بالرحيم العليم"(١).

وفي دعوات الأنبياء نجد أن الدعاء بالرحمة قاسم مشترك بينهم: "فالرحمة من آثارها التوفيق، والدوام على الهدى في الدنيا، والنعيم الأبدي في الآخرة؛ ولهذا كثرت الأدعية في كتاب اللّٰه لهذا المطلب الجليل، وهذا من حسن دعائهم، وأدبهم مع ربهم"(٢). فمن دعاء آدم وحواء عليهما السلام بعد أن أزلهما الشيطان وذاقا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف] ومن دعاء نوح عليه السلام عن توبته من سؤاله النجاة لولده الكافر: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، ومن دعاء موسى وهارون عليهما السلام لاتقاء بطش فرعون وظلمه: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس:٨٦]، ومن دعاء موسى عليه السلام يستعطف ربه أن يشمله برحمته هو وأخاه بعد أن فتن قومه بعبادة العجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف]، ومن دعاء سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾، ومن دعاء أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء].

وفي دعوات المؤمنين الذين يرجون الرحمة الإلهية بعد طلب العفو

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٧٣٣.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٣. ص١٤٧.

والمغفرة: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالمؤمن مهما حاول الوفاء بواجبات دينه -يجد نفسه مقصرًا، فيطلب من الله أن يعامله برحمته، لينجو من تبعات ذنوبه وغفلته. قال السعدي: "فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور"(١)، والذين يرجون هذه الرحمة بعد طلب الثبات على الحق والنجاة من الفتن وسلامة القلب من الزيغ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران]، قال الآلوسي: "سألوا ربّهم رحمة بالتنوين والتنكير دلالة على التفخيم والتعظيم، أي: رحمة عظيمة واسعة شاملة، تقتضي حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب"(٢)، ومن هؤلاء المؤمنين الصالحين أصحاب الكهف، الذين استمطروا رحمة الله، ليثبّتهم ويحفظهم بها من فتنة الكفار وملاحقتهم لهم، وييسّر لهم بها أسباب الخير والرشد: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠].

ومما لا شك فيه أن لهذه المساحة الكبيرة التي احتلها خطاب الرحمة في القرآن الكريم شأنًا مهمًّا ينبئ عن أثرها الكبير في حياة الإنسان والمجتمع، ويحيل إلى أن الرحمة نظام عملي شامل للحياة يتجلى في كل دقائقها ويميّز كل خصائصها.

(١) المرجع نفسه، ص١٢١.
(٢) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. ج٣. ص١٤٧.

المبحث الرابع
معاني الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني

وفيه عشرة مطالب:

إن هذا الحضور المتميز والمكثف للرحمة في الخطاب القرآني، قد لفت أنظار المفسرين والعلماء والباحثين، ودفعهم إلى التدقيق في معانيه وإيحاءاته، ومحاولة استجلاء أبعاده من خلال استقراء الآيات القرآنية وسبر أغوارها، فوجدوا أن هذا المصطلح يختزن في ثناياه ألوانًا من المعاني وأشكالًا من الإيحاءات المختلفة، التي تمتد لتشمل كثيرًا من النعم التي تفضل اللّه بها على عباده ثم أضفى عليها صفة الرحمة، لينبه إلى أن مطلق عطاء اللّه عز وجل بشتى أشكاله، وألوانه، وأنواعه، وصفاته، مقدمه ومؤخره يُعَدُّ من الرحمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].
ومن جملة المعاني التي يتضمنها مصطلح الرحمة في القرآن نذكر:

المطلب الأول
الرحمة بمعنى النبوة

كما وردت كلمة الرحمة، لتدل على النبوة. فقد عبّر اللّه سبحانه وتعالى عن النبوة التي خصَّ بها الصفوة من خلقه بأنها رحمة من عنده، ينقذ بها العباد من

الضلال، ويعيدهم بها إلى سواء الصراط كلما غلبتهم أهواؤهم فنسوا عهد الله، أو أغواهم الشيطان فضلوا السبيل. قال ﷻ مستنكرًا على المشركين جحودهم لنبوة الرسول ﷺ، وتفضيلهم لرجل من القريتين عظيم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢]. قال الآلوسي: "ويجوز أن يكون المراد بالرحمة في الآية النبوة، وهو الأنسب، وعليه أكثر المفسرين"(١)، وقال ابن عاشور: "ورحمة الله هي اصطفاؤه عبده للرسالة عنه إلى الناس"(٢).

ومن الآيات التي وردت فيها كلمة الرحمة بمعنى النبوة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، قال الطبري: "والله يختص برحمته من يشاء، والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، واختصاصه إياهم بها: إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه وهدايته من هدى من عباده رحمة منه له، ليُصَيِّرَهُ بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه، وكل ذلك رحمة من الله له"(٣).

ومنها أيضًا قوله ﷻ على لسان صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود:٢٨]، قال الطبري: "وآتاني رحمة من عنده: رزقني التوفيق والنبوة والحكمة"(٤)، وقال القرطبي: "وآتاني رحمة من عنده أي: نبوة ورسالة، عن ابن عباس: وهي رحمة على الخلق"(٥)، وقال محمد رشيد رضا: "وآتاني رحمة من عنده: وهي النبوة وتعاليم الوحي

(١) محمود شكري الآلوسي. روح المعاني. مج ٩. ج٢٥. ص٧٨.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٥. ص٢٤٦.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١. ص٣٧٨.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٥. ص٢٩٨.
(٥) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. ج٩. ص٢٥.

التي هي سبب رحمة الله الخاصة لمن يهتدي بها فوق رحمته العامة لعباده كلهم"(١)، وقال محمد الأمين الشنقيطي: "على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إليَّ من التوحيد والهدى"(٢).

المطلب الثاني
الرحمة بمعنى القرآن

وردت كلمة الرحمة بمعنى القرآن الكريم، حيث وصف الله عز وجل كتابه الكريم بأنه رحمة في مواضع عديدة، منَّ فيها على عباده بهذا الفضل العظيم، وهذه الرحمة الواسعة التي أكرمهم بإنزالها عليهم، ليكون لهم وللبشرية إلى قيام الساعة نورًا وهدى. قال ﷻ داعيًا المؤمنين إلى أن يستشعروا فضله الكبير عليهم بما خصّهم به من آيات الذكر الحكيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس]. ذهب كثير من أهل التفسير والتأويل إلى أن المقصود بفضل الله الإسلام ورحمته القرآن، قال الطبري: "الذي تفضل به عليكم وهو الإسلام، فبيّنه لكم ودعاكم إليه، وبرحمته التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن"(٣).

وقال عز وجل مؤكدًا على صفتي الهداية والرحمة اللتين يتصف بهما القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [النمل:٧٦-٧٧]، وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان:٢-٣]: "هدى لهم

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١٢. ص٥٥.
(٢) محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. دمشق. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م. ج٢. ص١٧٨.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١١. ص٨٧.

يهديهم بها إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، و(رحمة) تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل"[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]: "أي: ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصلنا آياته تفصيلًا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلًا لرحمته[2]".

المطلب الثالث
الرحمة بمعنى الجنة

وجاءت كلمة الرحمة في بعض الآيات لتدلَّ على الجنة ونعيمها باعتبارها الرحمة المحضة، التي يخص بها الله ﷻ عباده المؤمنين في الآخرة، جزاء لهم على مسارعتهم في الخيرات، وما أسلفوا في دنياهم من الصالحات، وما كابدوا من الصبر والجهاد. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٥]، وهو ما أكده جماعة من المفسرين مثل ابن كثير الذي قال في تفسير الآية: "أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم"[3]، وقال البغوي: "في

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٦٤٦.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص٣٩٣.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٣. ص١٧٤.

رحمة منه، يعني الجنة"[1]، وقال الفخر الرازي: "قال ابن عباس الرحمة: الجنة، والفضل: ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت. والرحمة والفضل محمولان على ما في الجنة من المنفعة والتعظيم"[2]. وقال صاحب المنار: "فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله ﷻ في رحمة خاصة منه، لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم، ويدل على هذا التخصيص تنكير الفضل والرحمة، ورحمة الله وفضله غير محصورين، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعهما، وقد فسرت الرحمة هنا بالجنة، والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء"[3].

وجاء في سورة البقرة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة]، قال الطبري في تفسيرها: "أي: يطمعون أن يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم"[4]. وفي سورة آل عمران: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران]، قال البغوي: "ففي رحمة الله جنة الله"[5]، وقال السعدي: "وأما الذين ابيضت وجوههم فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته ﷻ، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين"[6].

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون. دار طيبة. الرياض. ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م. ص٣١٦.
(٢) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ. ج١١. ص٢٧٤.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٦. ص٨٥.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢. ص٣٥٥.
(٥) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٢. ص٨٩.
(٦) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص١٤٣.

المطلب الرابع
الرحمة بمعنى الرزق

ودلَّت كلمة الرحمة أيضًا في بعض آيات القرآن على الأرزاق، التي يتفضل اللّه بها على مخلوقاته. قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء]، قال القرطبي: "أي: خزائن الأرزاق، وقيل: خزائن النعم وهذا أعم"(١)، وقال البغوي: "أي: نعمة ربي"(٢)، وقال الشنقيطي: "إن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته -أي: خزائن الأرزاق والنعم- لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء"(٣).

المطلب الخامس
الرحمة بمعنى النصر

وصف اللّه النصر الذي يمنُّ به على عباده المؤمنين في مدافعتهم لقوى الكفر والظلم والطغيان بأنه رحمة منه. قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب:١٧] ، قال البغوي: "أي: من يمنعكم من عذابه (إن أراد بكم سوءًا) هزيمة، أو (أراد بكم رحمة) نصرة"(٤).

---

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. دار الفكر. بيروت. ج١٠. ص٣٠١.
(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٥. ص١٣٣.
(٣) محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج٣. ص١٨٧.
(٤) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٦. ص٣٣٤.

المطلب السادس
الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان

وجاء لفظ الرحمة في بعض الآيات بمعنى المحبة والمودة والألفة التي تربط بين المؤمنين، فتشدّ أواصر القرب بينهم. قال الله ﷻ عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، قال القرطبي: "أي مودة فكان يُوَادُّ بعضهم بعضًا"(١)، وقال السعدي: "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه على دينه لينًا وشفقة، فكانوا متوادين فيما بينهم"(٢). وقال عز وجل عن الرسول ﷺ وأتباعه من المؤمنين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] قال الطبري: "رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم"(٣)، وفي تفسير الجلالين: "متعاطفون متوادُّون: كالوالد مع الولد"(٤).

المطلب السابع
الرحمة بمعنى المغفرة

ووردت الرحمة في بعض الآيات الكريمة بمعنى المغفرة، التي يتفضل بها الله ﷻ على عباده عندما تزل أقدامهم، فيقترفون الذنوب، ويجترحون المعاصي، وتميل بهم أهواؤهم، وتغلب عليهم غرائزهم، ثم يعودون إليه نادمين، تائبين فيرحم ضعفهم بمغفرته الواسعة. قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] أي أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا

(١) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج١٧. ص٢٣٧.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٨٤٣.
(٣) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢٢. ص٢٦٢.
(٤) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ص٦٨١.

وامتنانًا. وقال عز من قائل ينادي عباده نداء رقيقًا يمتلئ أملًا وودًّا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، وقد وصف كثير من السلف هذه الآية بأنها أرجى آية في كتاب الله، لما فيها من الوعد الصادق من الله الكريم بالتجاوز عن الخطايا والسيئات بالعفو والمغفرة. قال الشوكاني في تفسير الآية: "لاتقنطوا: لا تيأسوا، من رحمة الله: من مغفرته"(١)، وقال سيد قطب: "إنها الرحمة الواسعة، التي تَسع كلَّ معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأَوْبة، دعوة العُصاة المُسرفين الشاردين المُبعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إنَّ الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضَعفهم وعجزَهم... يعلم الله ﷻ عن هذا المخلوق كلَّ هذا، فيَمُدُّ له في العون، ويُوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية، حتى يُهيِّئ له جميع الوسائل، ليُصلِح خطأه، ويُقيم خُطاه على الصِّراط، وبعد أن يَلِجَّ في المعصية، ويُسرف في الذنب، ويَحسب أنه قد طُرِد وانتهى أمرُه، ولَم يَعُد يقبل ولا يستقبل"(٢).

المطلب الثامن
الرحمة بمعنى إجابة الدعاء

كما في قوله ﷻ عن زكريا عليه السلام حينما طلب الولد وقدم بين يدي ربه مظاهر ضعفه: ككبر سنه، ووهن عظمه، وعقم امرأته، ولكن رحمة الله أدركته، فاستجيب دعاؤه، وبشّرته الملائكة بالنبيّ الصالح يحيى عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم:٢]، قال الشوكاني: "رحمته يعني:

(١) محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. دار المعرفة. بيروت. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م. ج١. ص١٢٨٨.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٣٠٥٨.

إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد"[1]، وفي تفسير القاسمي: "أي: ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته. فأعطاه ولدًا كاملًا في باب النبوة. فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى. وتولى تسميته، ولم يشرك فيها من تقدمه"[2].

المطلب التاسع
الرحمة بمعنى العصمة

ومن المعاني الكثيرة التي تختزنها كلمة الرحمة، نجد أن القرآن الكريم يعبّر بها عن العصمة، التي يمنّ الله بها على من يشاء من عباده فيصرف بها همتَّه عن إتيان الذنوب أو الوقوع في الخطأ رفقًا به وإحسانًا إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف]، قال ابن كثير: إن المقصود بالرحمة في الآية العصمة، وفي تفسير الجلالين: "وما أبرئ نفسي من الزلل، إن النفس كثيرة الأمر بالسوء إلا من رحمه ربي فعصمه"[3]، وقال الطاهر بن عاشور: "أي: رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيّض له حائلًا بينه وبين السوء... لذلك ذيّله بجملة: إن ربي غفور رحيم ثناءً على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب"[4].

ومثلها في ذلك قوله عز وجل على لسان نوح عليه السلام وهو ينادي ابنه ليركب

(١) محمد بن علي الشوكاني. تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. ج١. ص٨٨٢.
(٢) محمد جمال الدين القاسمي. محاسن التأويل. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. ط ١. ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م. ج١١. ص٤١٢٥.
(٣) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. ص٣١٧.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٤. ص٥.

معه فيأبى ويأوي إلى الجبل، فيؤكد له والده: أن لا أحد سيعصمه من أمر الله، إلا إذا أدركته رحمته: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، قال البغوي: "معناه لا معصوم إلا من رحمه الله"[١]، وفي تفسير الجلالين: "من رحم الله فهو المعصوم"[٢].

المطلب العاشر
الرحمة بمعنى السعة والتخفيف

ومن معاني الرحمة في الخطاب القرآني أيضًا التخفيف في التكليف، والتيسير في الأحكام الشرعية، والتوسعة على العباد، رحمة بهم ومراعاة لضعفهم، كما في آية القصاص، التي يقول فيها ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالرحمة في هذه الآية السعة والتخفيف عن الأمة الإسلامية، قال ابن كثير في بيان معنى الرحمة في الآية: "إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو"[٣]، وأوضح الطبري أنه: "كان على بني إسرائيل قصاص في القتل، ليس فيهم دية في نفس ولا جرح... وخففه الله ﷻ عن أمة محمد ﷺ، فقبل منهم الدية في النفس والجراحة، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾"[٤].

هذا غيض من فيض المعاني التي وردت بمعنى الرحمة في الخطاب

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٤. ص١٧٩.
(٢) تفسير الجلالين. ص٢٩٧.
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج١. ص٢١٦.
(٤) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج٢. ص٧٧.

القرآني، ومنه يتبيّن لنا أن هذه الكلمة قد اختزنت في طياتها كمًّا وافرًا من المعاني، وألوانًا شتى من المفاهيم التي تحيلنا إلى ما يتمتع به هذا المصطلح من سعة، وما يحمله من أبعاد، تحتاج إلى مزيد من التوقف والتدبر، لأن النص القرآني نص مفتوح لا يفتأ يمدّنا بالجديد في كل آن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معاني الرحمة في القرآن لا تقتصر على هذه اللفظة وحدها، بل هناك - إلى جانبها - حشد كبير من التعابير، التي تحمل معنى الرحمة، وتحيل إليها تأكيدًا على ما أسلفنا من أن الرحمة تسري في ثنايا الخطاب القرآني سريان الروح في الجسد. فالهداية رحمة والوحي رحمة واللين رحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، والتسخير رحمة: "وغيرها من المعاني السامية والنعم الربانية التي توصف في القرآن بأنها رحمة أو أن سببها رحمة، أو أن الغاية منها إنزال الرحمة وتعميمها على العباد"(١).

(١) أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. ص١٨.

المبحث الخامس
تجليات الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني

وفيه سبعة مطالب:

هذه المعاني والدلالات الثرية التي يكتنزها مصطلح الرحمة، والتي تُلْقي بظلالها على جميع مظاهر الحياة تنبهنا إلى أن هذه النعمة الإلهية تكاد تكون هي سر الوجود وجوهر الكون والروح، التي تسري فيه، فتبعث في جوانبه الأمن والسكينة. وقد تضمّن هذا المصطلح إلى جانب هذا الحشد من المعاني المختلفة صورًا لتجليات رحمة الله ومظاهرها في كونه الفسيح، وآثارها في حياة الناس، فالآيات القرآنية تؤكد أن الرحمة الإلهية ظاهرة جليّة في جميع تفاصيل حياتنا، متغلغلة في كل ما يمتّ إلى احتياجاتنا الكبيرة والصغيرة بصلة، ويمكن أن نلمس آثارها المباركة إذا تأملنا واقعنا ببصيرة وتدبر. ويرشدنا الخطاب القرآني إلى أن من أهم تجلياتها:

المطلب الأول
إرسال الرسل والأنبياء

وصف الله سبحانه وتعالى إرسال الرسل والأنبياء بأنه رحمة من عنده، لما في ذلك من مراعاة لمصالح عباده، ورأفة بهم من أن يتمادوا في سبل الضلال، التي تفسد عليهم دنياهم بالجور والظلم واقتراف الفواحش، وتضيّع

عليهم آخرتهم، فيكون مصيرهم إلى النار، فأرسل أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، ليخرجوا الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، ويطهّروا أخلاقهم من الرجس والفجور، ويصلحوا أمور دنياهم بالشريعة العادلة، التي تضمن الحقوق، وتقيم العدل. قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:٥-٦]، قال ابن عباس: "رحمة من ربك رأفة مني بخلقي، ونعمتي عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل"(١)، وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "ورحمة من ربك مفعول له من ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: كنا مرسلين لأجل رحمتنا، أي: بالعباد المرسل إليهم، لأن الإرسال بالإنذار رحمة بالناس، ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب... وجملة إنه هو السميع العليم تعليل لجملة إنا كنا مرسلين رحمة من ربك، أي: كنا مرسلين رحمة بالناس، لأنه عَلِمَ عبادة المشركين للأصنام، وعَلِمَ إغواء أئمة الكفر للأمم، وعَلِمَ ضجيج الناس من ظلم قويِّهم ضعيفهم، وعَلِمَ ما سوى ذلك من أقوالهم، فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعَلِمَ أيضًا نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض، فأرسل الرسل بالشرائع، لكفّ الناس عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم"(٢)، وقال سيد قطب في تفسير هذه الآية: "وكان ذلك كله بإرادة اللّه وأمره، ومشيئته في إرسال الرسل للفصل والتبيين، وكان ذلك كله رحمة من اللّه بالبشر إلى يوم الدين".(٣)

كما وصف اللّه عز وجل إرسال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل رحمة بهم وبالناس، بعد أن ضلوا وحرّفوا التوراة، وضيّعوا حدودها، واستحلوا المحارم، وطغوا وبغوا، وملؤوا الأرض فسادًا، ونقضوا الميثاق، وفسدت عقائدهم. قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١]، قال

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٧. ص٢٢٧.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٦. ص٢٨٢.
(٣) سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط ٧. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. ج٥. ص٣٢٠٩.

البغوي في تفسيرها: "علامة للناس ودلالة على قدرتنا، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ونعمة لمن تبعه على دينه"(١)، وقال الطنطاوي: "ولنجعل هذا الغلام الذي وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به، واتبع دعوته(٢)، وجاء في ظلال القرآن: "والروح يخبرها بأن ربها يخبّرها بأن هذا هيّن عليه. وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته. ورحمة لبني إسرائيل أولًا وللبشرية جميعًا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه"(٣).

ووصف الله عز وجل بعثة الرسول ﷺ بأنها رحمة محضة، تكرَّم بها على العالمين لما في رسالته من الهداية والنور، ولما تضمنته من الأحكام والشرائع التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتستوعب حاجات البشرية المادية والروحية والاجتماعية إلى أن تقوم الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وفي تفسير هذه الآية يقول محمد الطاهر ابن عاشور: "فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين... وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ ومدح مرسله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للناس كافة وبأنها رحمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقه... وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلُّق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته"(٤). ويقول محمد الأمين الشنقيطي: "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم ﷺ إلى الخلائق

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٥. ص٢٢٥.
(٢) محمد سيد طنطاوي. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. الفجالة. القاهرة. ص٣٠٦.
(٣) سيد قطب. ج٦. ص٣٢٥٩.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٨. ص١٦٥.

إلا رحمة لهم، لأنه جاءهم بما يسعدهم، وينالون به كل خير من خيري الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيَّع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى"[1].

المطلب الثاني
إنزال الكتب

ومثلما تجلت رحمة اللّه في إرسال الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وإعادتهم إلى نهج الحق بعد أن ضلوا وتاهوا، تجلّت هذه الرحمة أيضًا في إنزال الكتب، التي تتضمن قواعد تطهير النفس، وتهذيب الضمير، وتزكية الأخلاق، وتحوي الشرائع الربانية، التي تنظم العلاقات، وتضع الأحكام، وتحمي حقوق العباد، وتمنع عنهم البغي والعدوان: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾ [الحديد].

وقد ذكر اللّه سبحانه وتعالى من بين الكتب التي أنزلها صحف إبراهيم وزبور داود وإنجيل عيسى عليه السلام، لكنه خص التوراة والقرآن الكريم بالذكر والتنويه، وربطهما برحمته في كثير من الآيات، باعتبارهما يمثلان مفصلين مهمين في تاريخ الأنبياء وحياة البشرية، وكرر الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله، وبخاصة كتاب موسى، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له، لأن أصل التشريع والعقيدة في التوراة[2]. قال تعالى عن التوراة ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٤﴾ [الأنعام]، قال الطبري: "تقويمًا لهم على الطريق

(١) محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج٤. ص٢٥١.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٦. ص٣٢٥٩.

المستقيم، وبيانًا لهم سُبُل الرشاد، لئلا يضلوا ورحمة منا بهم ورأفة، لننجيهم من الضلالة وَعمى الحيرة"[1]، وقال صاحب المنار: "أي: علمًا من أعلام الهداية وسببًا من أسباب الرحمة لمن اهتدى به"[2]. وقال عز وجل في سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢]، قال البغوي في تفسير الآية: "ومن قبله أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى يعني التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يُقتَدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله لمن آمن به"[3]. وقال الرازي: "وآتينا الذي قبله التوراة، ومعنى إمامًا أي: قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه"[4]. وجاء في ظلال القرآن تعقيبًا على هذه الآية: "من ثَمَّ سمَّى كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ ووصفه بأنه رحمة، وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض، بكل معاني الرحمة في الدنيا والآخرة"[5].

أما القرآن الكريم فقد قرنه الله بالرحمة في مواضع كثيرة، مَنَّ فيها على عباده بهذه النعمة العظيمة، وبيَّن ما حملته من آثار رحمته الواسعة للعباد في معاشهم ومعادهم، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف]. قال الطبري: "بيَّناه ليُهْدَى ويُرْحَم به قومٌ يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى"[6]، وقال محمد رشيد رضا: "ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصَّلنا آياته تفصيلًا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من

(١) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص٢٣٣.
(٢) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص١٨٠.
(٣) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج٧. ص٢٥٦.
(٤) فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م. ج٢٧. ص١٢.
(٥) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٦. ص٣٢٥٩.
(٦) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٢. ص٤٧٧.

العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة، وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلًا لرحمته".(١) وقال السعدي في تفسيره: "أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء"(٢).

وقال عز وجل في سورة العنكبوت مذكّرًا بنعمة إنزال القرآن، وكأنها لوحدها من أجلّ النعم، التي تستحق الحمد والشكر، لما تحمله في طياتها من الرحمة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]، قال السعدي: "﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يُحصِّلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية"(٣)، وجاء في ظلال القرآن: "فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هذه الرحمة في نفوسهم، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظيم منته على البشرية بهذا التنزيل؛ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلي الكبير، وهم الذين ينفعهم هذا القرآن، لأنه يحيا في قلوبهم، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره، ويشرق في أرواحهم بالمعرفة والنور"(٤).

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٨. ص٣٩٤.
(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٢٩١.
(٣) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٦٣٤.
(٤) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٥. ص٢٧٤٧.

المطلب الثالث
إنزال المطر

مما لا شك فيه أن إنزال الغيث من أكبر تجليات الرحمة الإلهية، ومن أجلِّ نعم الله على عباده، ففي مائه حياة أبدانهم وطهارة أجسامهم، ونمو زروعهم، وقوام أنعامهم، لذلك عدَّه القرآن الكريم من أعظم آيات الله في الكون، وامتنَّ على العباد بإنزاله، مما يدل على عظيم نفعه لهم، وكبير احتياجهم إليه، ووصفه في كتابه الكريم بأنه رحمة منه: "فإن الغيث سبب رزق عظيم، وهو ما ينزله الله بقَدر هو أعلم به، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس، التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم. وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية، لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها، لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب"[(1)].

وقد قرن إنزاله رحمته بالغيث في عدد من الآيات الكريمة، ليدل على أنه صورة من صور هذه الرحمة الربانية الواسعة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الروم] قال ابن كثير: "يذكر سبحانه وتعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها، ولهذا قال ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد"[(2)]، وقال الفخر الرازي: "﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ عطف على ما ذكرنا، أي: ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان "﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالمطر"[(3)].

وقال سبحانه وتعالى مؤكدًا أن نزول المطر أحد تجليات رحمته، فالغيث الذي

(1) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢٦. ص٩٥.
(2) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج٦. ص٣٢٢.
(3) فخر الدين الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. ص١١٥.

يبعث الفرح والسعادة في نفوس الناس، ويطرد منها اليأس والقنوط يأتي دائمًا مصحوبًا برحمته، التي تنشر ظلالها عليهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى]، جاء في تفسير السعدي: "وهو الذي ينزل الغيث أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، من بعد ما قنطوا، وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالًا، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون(١)".

المطلب الرابع
تسخير الكائنات للخلق

ومن أبرز تجليات الرحمة الإلهية تسخيره جميع الكائنات لفائدة الخلق، وتيسير الانتفاع بها، وتذليلها لهم. فرحمة هذا التسخير ظاهرة في كل ما يحيط بالناس: في تعاقب الليل والنهار، وتوالي الفصول، وفي البحر، وفيما في البحر من السمك والحليّ، وفي البر وفي الصحراء، وفي الجبال، وفي الوديان، وفي الأغوار، وفي السهول وفي الأنهار، وفي البحيرات وفي الأطيار وفي الأسماك، وفي الأزهار وفي النباتات، وفي المحاصيل، وفي الأشجار المثمرة، وفي الأنعام، وفي ثروات الأرض الباطنة، وفي خلق الإنسان، فكل هذا من مظاهر رحمة الله عز وجل. ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣]، قال ابن عاشور: "و﴿وَمِن﴾ تبعيضية، فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة، والمجرور بـ ﴿وَمِن﴾ يتعلق بفعل ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾،

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ج٢٥ .ص ٧٥٩.

وكذلك يتعلق به ﴿لَكُمُ﴾، والمقصود إظهار أن هذا رحمة من اللّه، وأنه بعض من رحمته، التي وسعت كل شيء، ليتذكروا بهما نعمًا أخرى"(١).

وقال عز وجل عن تسخيره للبحر بكل ضخامته وجبروته، وتسهيل سير الفلك فيه، بما يضمن للبشر وسيلة مواصلات فعالة، تنشط بها تجارتهم، وتسهل، بها طرق انتقالهم من مكان إلى آخر، وعدَّ ذلك صورة حيّة من صور رحمته، التي تشملهم في جميع تقلباتهم: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء]، قال الطبري: "إن اللّه كان بكم رحيمًا، حين أجرى لكم الفلك في البحر، تسهيلًا منه بذلك عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية، التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها"(٢)، وقال الشوكاني: "وفي هذه الآية تذكير لهم بنعم اللّه سبحانه وتعالى عليهم، حتى لا يعبدوا غيره، ولا يشركوا به أحدًا، وجملة إنه كان بكم رحيما تعليل لما تقدم، أي: كان بكم رحيمًا، فهداكم إلى مصالح دنياكم".(٣)

وقال سبحانه وتعالى معددًا نعمه الجليلة ومنبها إلى صور التسخير التي خص بها الإنسان رحمة منه به: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [النحل:٥-٧] قال ابن عاشور: "أي: خلقها لهذه المنافع، لأنه رؤوف رحيم بكم"(٤).

إن المتأمل في نعمة تسخير الكائنات يدرك سعة رحمة اللّه بعباده ورأفته بهم، ولو كلَّف الإنسان نفسه تدبّر هذا الأمر، وتخيّل عكسه لذهل من نتائجه: "إنه ليبدو شيئًا في غاية العُسر إذا نزع اللّه هذا التسخير

(١) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١١. ص١٧٢.
(٢) الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ج١٧. ص٤٩٧.
(٣) محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. ج١. ص٨٣٤.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٥. ص١٠٧.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

من الكون، وأصبحت لكل الكائنات إرادات حُرَّة، تستطيع بها أن تعاكس إرادة الإنسان لو أرادت، أو على الأقلِّ إذا أصبح الإنسان لا يستطيع استعمال شيء، إلا إذا توصَّل معه إلى توافق واتفاق؛ تُرَى كيف يُصبح الحال لو أن الأرض عَنَّ لها ألا تكون مهادًا، وأن تكون صخورًا أو جبالًا أو قطعًا من الجزر المنتثرة؟! أو إذا خطر للسماء أن تمطر حينًا، وترسل شهبًا حينًا، وتُنْزِل الصواعق حينًا؟! كيف يُصبح الحال لو تمرَّدَت الخيل والبغال والحمير، والسفن والقطارات والطائرات، فلم تسمح للإنسان باستعمالها؟!"(١).

المطلب الخامس
رفع البلاء عن الخلق

ومن تجليات رحمة الله رفع البلاء، وتفريج الكربات، وتيسير كل معسر، ورعاية العباد بالتخفيف من آلامهم وإدراكهم برحمته حين تضيق بهم المذاهب وتُسَدُّ في وجوههم الأبواب. قال ﷻ حكاية عن هود عليه السلام كيف رفع عنه البلاء حينما بالغ قومه في تكذيبه، ولجّوا في طغيانهم وجحودهم، وحاربوا دعوته وآذوا أصحابه فنزل بهم العذاب: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف:٧٢]، قال ابن عاشور: "وتنكير رحمة للتعظيم، وكذلك وصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها... أي: فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم، إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم"(٢).

وتكررت الآيات التي تتحدث عن رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم، سواء

(١) راغب السرجاني. نظرة الإسلام إلى الكون. http://ar.islamway.net/article/42291 .
(٢) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٩. ص٢١٥.

بتيسير سبل النجاة لهم من العذاب الذي أصاب أقوامهم برحمة من الله، كما في قوله ﷻ عن هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨]، وقوله عز وجل عن صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦]، وحكايته عن أصحاب الكهف حينما طاردهم جنود الملك ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف:١٦] "أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم"[(١)]، أم برفع البلاء الذي أصابهم، كما هو حال أيوب عليه السلام الذي أدركته رحمة الله، فأذهبت عنه البلاء. قال عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]، يقول سيد قطب: "وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء، رحمة من عندنا، فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومِنَّة. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء"[(٢)].

وعبر القرآن الكريم عن رفع البلاء بالرحمة في عدد من الآيات القرآنية، منها قوله ﷻ عن الكفار والمشركين، الذين يبتليهم بأنواع البلاء: كالقحط والجوع، ليعودوا إلى ربهم تائبين منيبين، ثم يعقب ذلك البلاء برفعه رحمة بهم: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم ج ٥. ص١٤٢.
(٢) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج٤. ص٢٣٩٢.

المطلب السادس
رفع الحرج عن الناس

وتبدو رحمة اللّه جليّة فيما شرعه لعباده من الأحكام التي تنظم أمور معاشهم، وتحفظ عليهم حقوقهم، والعبادات التي تزكّي نفوسهم، وتطهّر أرواحهم، وتهذّب أخلاقهم، وما أعقبه من رخص تعفيهم من الالتزام بها إذا اضطروا إلى ذلك تحت ضغط الظروف، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]، قال البغوي: "إن اللّه غفور لمن أكل في حال الاضطرار، رحيم حيث رخص للعباد في ذلك"(١). وقال القرطبي: "فإن اللّه غفور رحيم، أي: يغفر المعاصي، فأولى ألا يؤاخذ بما رخص فيه، ومن رحمته أنه رخص.(٢)" وقال صاحب المنار "﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ حرم على عباده الضار، وجعل الضرورات بقدرها، لينتفي الحرج والعسر عنهم، ووكل تحديدها إلى اجتهادهم، فهو يغفر لهم خطأهم فيه لتعذر ضبطه"(٣). وقال الطاهر بن عاشور: "وقوله: إن اللّه غفور رحيم تذييل قَصَدَ به الامتنان، أي: أن اللّه موصوف بهذين الوصفين، فلا جرم أن يغفر للمضطر أكل الميتة، لأنه رحيم بالناس، فالمغفرة هنا بمعنى التجاوز... ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة"(٤).

وقد تكررت هذه الرخصة في عدد من الآيات، واقترنت كلها برحمة اللّه وغفرانه(٥)، رفقًا منه سبحانه وتعالى وإشفاقًا على عباده من أن يهلكوا لضعفهم أمام الشدائد: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء:٢٨].

(١) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص١٨٤.
(٢) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج٢. ص٢٢٠.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج٢. ص٨١.
(٤) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج٢. ص١٢٢.
(٥) البقرة، ١٨٢. النساء، ٢٩. المائدة، ٣. الأنعام، ١٤٥. التوبة، ٩١-٩٢. النحل، ١١٥. الأحزاب، ٥٠.

قال السعدي منوهًا برحمة الله في أحكامه وتشريعاته: "إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق، سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مبنيًا على الرحمة"(١).

المطلب السابع
قبول التوبة

من تجليات رحمة الله حلمه على عباده وإمهاله لهم، وعدم تعجيل العقوبة لهم إن هم أخطأوا أو أذنبوا أو اقترفوا المعاصي، وجرفتهم الأهواء إلى تيار الفواحش والمحرمات، منتظرًا منهم يقظة الضمير وحياة الروح، ليعودوا إليه، ويتوبوا عما فعلوه، فيقبل توبتهم، ويتجاوز عن إساءتهم، ويفتح لهم من رحمته بابًا واسعًا للأمل، ليبدؤوا من جديد بداية سعيدة. ولعل ذلك ما يفسر اقتران الآيات التي يمن فيها الله بالتوبة على عباده بصفتي الغفور أو التواب متبوعة بصفة الرحيم، قال ﷻ عن أبينا آدم ﵇ بعد أن أدرك ذنبه وعصيانه لأمر ربه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة]. قال البغوي: "﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ فتجاوز عنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ يقبل توبة عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه"(٢)، وقال محمد رشيد رضا: "أي: قَبِلَ توبته، وعاد عليه بفضله ورحمته، وبيَّنَ سبب ذلك بأنه ﷻ هو التواب؛ أي: الذي يقبل التوبة كثيرا، فمهما يذنب العبد ويندم ويَتُبْ يَتُبِ الربُّ عليه،

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي. الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي. رقم ٥. ثقافة إسلامية. مركز صالح بن صالح الثقافي. العنيزة. السعودية. ١٤١١هـ-١٩٩٠م. مج ١ ص ٤٠٦.

(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص٨٦.

وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسئ أحدهم بما هو سبب لغضبه ﷻ، ويرجع إليه، فإنه يحفُّه برحمته"(١).

وقال ﷻ مخاطبًا بني إسرائيل الذين عبدوا العجل بعد أن أسبغ عليهم اللّه نعمه الكثيرة: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤]، قال البغوي: "فتاب عليكم فتجاوز عنكم إنه هو التواب القابل التوبة الرحيم بخلقه"(٢)، وقال محمد رشيد رضا: "فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم، أي: أنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى"(٣).

وقال عز وجل: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة]، قال محمد رشيد رضا: "وأن اللّه هو التواب الرحيم، أي: أنه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه، ويتوب عنه منيبًا إلى ربه مهما يتكرر ذلك. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتائبين الذي يثيبهم. فصيغة المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ تتحقق بكثرة التائبين، وبتكرار التوبة من المذنب"(٤). وقال ابن عاشور: "وقوله وأن اللّه هو التواب الرحيم. عطف على أن اللّه هو يقبل التوبة، تنبيهًا على أنه كما يجب العلم بأن اللّه يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العلى أنه التواب الرحيم، أي: الموصوف بالإكثار من قبول توبة التائبين، الرحيم لعباده. ولا شك أن قبول التوبة من الرحمة، فتعقيب ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة"(٥).

---

(١) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٢٣٢.
(٢) الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). ج١. ص٩٦.
(٣) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١. ص٢٦٧.
(٤) محمد رشيد رضا. تفسير المنار. ج١١. ص٢٧.
(٥) محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. ج١٢. ص٢٥.

الخاتمة

ومما سبق نخلص إلى أن موضوع الرحمة في الخطاب القرآني من الموضوعات المحورية والمركزية، التي سجلت حضورًا لافتًا في مجمل النسيج القرآني، وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة توضيح الإطار المفاهيمي لهذا المصطلح القرآني في جانبيه: اللغوي والدلالي، وسعينا إلى بيان الخصائص والميزات، التي تنفرد بها الرحمة الإلهية، ووقفنا عند مقام الرحمة ومكانتها في القرآن الكريم، وحلّلنا الأبعاد والدلالات الغزيرة الثرية المرتبطة بهذا المصطلح، وتطرقنا لأهم التجليات التي تظهر فيها الرحمة الإلهية، وعرضنا لمختلف السبل والأسباب التي تُسْتنزَل بها هذه، ويُسْتَزاد بها منها. وقد توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نذكر أهمها فيما يلي:

١. أن الرحمة مصطلح قرآني أصيل، يلفت الأنظار بحضوره القويّ والكثيف في ثنايا الآيات القرآنية بصيغه المختلفة ومشتقاته الكثيرة، ولا يكاد يغيب عنها، وهو وثيق الصلة بكثير من الصفات الإلهية التي اقترنت به وأنبأت عن سعته وشموله لكل دقائق الوجود وشؤون الحياة.

٢. أن للرحمة الإلهية خصائص ومميزات تليق بجلال الله، وكمال صفاته، وكرمه الواسع، وهي تختلف عن الرحمة البشرية، التي لا تعدو أن تكون جزءًا ضئيلًا من بحر هذه الرحمة. ومن خصائصها

أنها صفة ثابتة من صفاته، وصف بها نفسه العلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وأكد أنه مصدر الرحمة كلها، ومن خصائصها أيضًا أنها واسعة وشاملة، يدبر بها سبحانه وتعالى شؤون العالمين، ويسبغها بلطفه على جميع خلقه، ومن هذه الخصائص كذلك أنها مبذولة للخلق جميعًا لا يمنعهم عنها إلا كفرهم أو غفلتهم، وأنها بيد اللّه وحده، فهو سبحانه وتعالى مصدرها الأول والأخير، وأنها رحمة عامة في الدنيا لجميع الخلق وخاصة في الآخرة بالمؤمنين.

٣. أن استقراء آيات الذكر الحكيم أثبت لنا أن للرحمة مقامًا كبيرًا في الخطاب القرآني، ولا نبالغ إذا قلنا إنها تحتل الصدارة مقارنة بالصفات الأخرى، وبإمكاننا الوقوف على ذلك من خلال عدة مظاهر، منها تكرار البسملة التي تتضمن اسم الرحمن والرحيم في كل سور القرآن، ما عدا سورة التوبة، ومنها العدد الكبير من الآيات الواردة في الرحمة والتي قُدِّرَت بـ ٣٣٢ مرة، ومنها طلب الرحمة في دعوات الملائكة والأنبياء والمؤمنين باعتبارها مطلبهم الأسمى في الدنيا والآخرة.

٤. أن للرحمة في الخطاب القرآني إيحاءات وأبعادًا كثيرة تستوعب حشدًا من المعاني الغنية والدلالات الثرية، التي تجعل الرحمة على رأس الصفات الربانية الأكثر شيوعًا فيه. فهي تضم معاني النبوة والقرآن والجنة والرزق والنصر والألفة والمغفرة وإجابة الدعاء والعصمة والسعة والتخفيف ورفع الحرج وغيرها من الدلالات التي تصعب على الحصر.

٥. أن الرحمة في الخطاب القرآني لا تقتصر على التعابير المباشرة المتولدة من الجذر (رحم) فقط، بل تتعداها إلى كثير من التعابير

غير المباشرة، والتي تتلبّس بالرحمة في جانب من جوانبها، أو تكون نتيجة من نتائجها أو سببًا من أسبابها كالهداية والرفق واللين والتسخير والإنعام والتكريم والتوازن في الكون وغيرها.

٦. أن للرحمة في الخطاب القرآني تجليات كثيرة، لا نكاد نحصيها لتغلغلها في كل ذرات الكون من حولنا، وتمظهرها في أدق تفاصيل حياتنا. ومن أبرز هذه التجليات: إرسال الرسل والأنبياء، إنزال الكتب السماوية، إنزال المطر، وتسخير الكائنات للخلق، رفع البلاء عن المكروبين، رفع الحرج عن الناس في أحكام الشريعة، قبول توبة المخطئين والعاصين، وغيرها من التجليات التي لا نستطيع الإحاطة بها من كل أطرافها.

٧. أن الفئات الأكثر حرمانًا من رحمة الله هم الطغاة والظالمون والمجرمون والكافرون، إذ ينص الخطاب القرآني صراحة على أنهم مطرودون من رحمة الله، ومُبْعَدون عنها. وإذا كانوا قد تقلبوا في رحمة الله في الدنيا واستمتعوا بنعم الله عليهم مع بقائهم على فسادهم وشرورهم، فإنها في الآخرة مقطوعة عنهم حتمًا.

٨. أن نظام الحياة كلها قائم على الرحمة الإلهية، وأن وجود المخلوقات مرتبط أشد الارتباط بهذه الرحمة التي لا غنى لهم عنها، سواء شعروا بها أم لم يشعروا.

٩. أن أكثر الفئات حصولاً على رحمة الله هم المؤمنون المحسنون الذين علموا سعة رحمة ربهم، فسارعوا إليها، وأقبلوا عليها، وطرقوا أبوابها، وطلبوا أسبابها، فاستظلوا بأفيائها في الدنيا، وهي من نصيبهم الوافر في الآخرة.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. إسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية. ط٢. ١٩٩٧م. دار العلم للملايين. بيروت.

٣. أبو الحسين أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الفكر العربي. بيروت. ١٩٧٨م.

٤. أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. الكليات. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٢. ١٩٩٣م.

٥. أبو زيد المقرئ الإدريسي. عموم الرحمة وعالمية الإسلام. مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات. الدار البيضاء. المغرب. ط١. مارس ٢٠١٤م.

٦. أحمد الشرباصي. موسوعة أخلاق القرآن. دار الرائد العربي. بيروت. د.ت.

٧. أبو حامد الغزالي. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. تحقيق: محمد عثمان الخشت. مكتبة القرآن. القاهرة.

٨. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري. دار المعرفة. بيروت.

٩. أحمد بن محمد النحاس. معاني القرآن. تحقيق: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. ط١. ١٤٠٩هـ.

١٠. إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة. الرياض. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١١. برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ١٩٨٤م.

١٢. جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٣. جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١٤. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت.

١٥. الحسين بن مسعود البغوي. معالم التنزيل (تفسير البغوي). تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون. دار طيبة. الرياض. ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

١٦. حمد بن محمد البستي الخطابي. شأن الدعاء. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار الثقافة العربية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط٣. ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

١٧. الراغب الأصفهاني. معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: نديم مرعشلي. دار الكاتب العربي. بيروت. ١٩٧٢م.

١٨. راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، رابطة العالم الإسلامي. مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية

١٩. زين الدين عبدالرؤوف المناوي. التيسير بشرح الجامع الصغير. مكتبة الإمام الشافعي. الرياض. ط٣. ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

٢٠. سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط٧. ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٢١. عبدالحميد بن باديس. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. جمع وترتيب وإعداد وتعليق: توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان. ط٣. ١٣٩٩هـ -١٩٧٩ م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق.

٢٢. عبدالرحمن حبنكة الميداني. الأخلاق الإسلامية وأسسها. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط٨. ٢٠١٠م.
٢٣. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط١. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢ م.
٢٤. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة. المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي. رقم ٥. ثقافة إسلامية. مركز صالح بن صالح الثقافي. العنيزة. السعودية. ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
٢٥. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة. السعودية. ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
٢٦. عبدالرحمن بن علي بن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي. بيروت. ط٣. ١٤٠٤هـ.
٢٧. عبدالرحمن بن محمد الثعالبي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلى. بيروت.
٢٨. عمار ساسي. المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث. الأردن. ط ١. ٢٠٠٦م.
٢٩. عمرو بن بحر الجاحظ. تهذيب الأخلاق. قرأه وعلق عليه: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد. دار الصحابة للتراث بطنطا. مصر. ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
٣٠. علي بن خلف بن بطال. شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر ابن إبراهيم. مكتبة الرشد. الرياض. السعودية. ط٢. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٣١. فاضل السامرائي. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. دار عمار. عمان. الأردن. ط ٣. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٣٢. فخر الدين محمد بن عمر الرازي. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية. بيروت. ٢٠٠٤م -١٤٢٥هـ.
٣٣. محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. دمشق. ١٤١٥هـ -١٩٩٥م
٣٤. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة. بيروت. ط٢. ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.
٣٥. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. اختصره: ابن الموصلي. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث. القاهرة. ط١. ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.
٣٦. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. التبيان في أقسام القرآن. دار المعرفة للطباعة والنشر. القاهرة. ٢٠٠٤م.
٣٧. محمد بن أحمد الأزهري. تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ١. ٢٠٠١م.
٣٨. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته. تحقيق: عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي. المكتبة العصرية. بيروت. ط١. ٢٠١٢م.
٣٩. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢. ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.
٤٠. محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري. دار ابن كثير. دمشق.بيروت. ط١. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
٤١. محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. دار المعرفة. بيروت. ط٣. ١٩٧٨م.

٤٢. محمد جمال الدين القاسمي. محاسن التأويل. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. ط١. ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م.
٤٣. محمد بن الحسن بن دريد. جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٨٧م.
٤٤. محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠م.
٤٥. محمد سيد طنطاوي. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. الفجالة. القاهرة.
٤٦. محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس. ١٩٨٤م.
٤٧. محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. دار المعرفة. بيروت. ١٤٢٣هـ -٢٠٠٤م.
٤٨. محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. دار الصابوني. القاهرة. ط١. ١٩٩٧م.
٤٩. محمد متولي الشعراوي. أسماء الله الحسنى. المكتبة التوقيفية للتراث. القاهرة. ٢٠١٠م.
٥٠. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد النجار. المكتبة العلمية. بيروت.
٥١. محمود شكري الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر. بيروت.

آيات الرحمة في القرآن الكريم

دراسة لسانية في البنية والمحتوى

إعداد:
د. قاسم قادة
أستاذ محاضر قسم –أ– المركز الجامعي
أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت – الجزائر

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، أمّا بعد:

يُعدّ البحث في مجال القرآن الكريم من أشرف العلوم وأنبلها، وإنَّ معرفة دلالات اسم «الرحمة» في آيات القرآن الكريم، يقتضي منّا البحث عنها عند جمهور المفسرين، باعتبار أن الكلمة حينما توظّف في سياق ما حتمًا تختلف دلالتها وهي مُنتظمة في سياق آخر، نتيجة تغيّر القرائن، التي توجه الكلمة من دلالة إلى أخرى، مثل هذه المعرفة في حقل التنوع الدّلالي لاسم «الرحمة» في القرآن الكريم، يدعونا إلى وجوب البحث والتّدبّر في كثير من استعمالاتها في القرآن الكريم.

هذه الحقائق اللّسانية الواردة في القرآن الكريم جديرة بالبحث والتنقيب، وذلك بغية بيان تضمّن القرآن الكريم لكثير من القضايا، التي طرحها ويطرحها البحث اللساني، وهو ما جاء مُبيّنًا في القرآن الكريم من خلال تعامله مع كثير من المدخلات المعجمية وتنوّع دلالاتها، كما هو الشأن بالنسبة لاسم «الرحمة»، ولعلّ مُتتبّعها في القرآن الكريم تتبادر إلى ذهنه جملة من التساؤلات منها:

- ما هي أشهر الحقول الدلالية لاسم الرحمة في القرآن الكريم؟

وما هي أبرز الصيغ التي جاءت عليها؟

- هل رحمة الله للعباد يترتب عليها تراحم العباد فيما بينهم؟ كيف ذلك؟ وأين يتجلى؟

لقد حرصت في أثناء مناقشتي لهذه الإشكالات في هذا البحث المتواضع على اعتماد المنهج الوصفي، الذي يتخلّله التّحليل، كما أنّ طبيعة الموضوع اقتضت مِنّي التوزيع التالي: مقدّمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، أمّا المقدّمة فقد ضمّنتها مدخلًا عامًّا حول موضوع الرّحمة، وفيما يتعلّق بالمبحث الأول حرصت على أن أضبط فيه الإطار المفاهيمي للرّحمة، حيث تناولت فيه المفهوم اللغوي، والمفهوم الاصطلاحي، وذلك من باب تأكيد ما سأناقشه في المباحث الموالية.

وفيما يخص المبحث الثاني تعرّضت فيه لأهمّ دلالات اسم الرّحمة في القرآن الكريم، مُركّزًا على جهود المُفسرين من خلال النصوص القرآنية، قصد بيان أنّ اسم الرحمة متنوّع الدلالة.

أمّا المبحث الثالث فقد تناولت فيه صيغ اسم الرحمة في القرآن الكريم، وبيان دلالاتها، لأقف في المبحث الرابع على عنوان تجليات فعل التراحم بين المسلمين في القرآن الكريم، حيث تعرضت فيه لمجموعة من الآيات المتضمنة لهذا المعنى، لأصل في ختام بحثي إلى خاتمة بيّنت فيها أهمّ النتائج المُتوصّل إليها.

المبحث الأول
الإطار المفاهيمي للرّحمة

أ. المفهوم اللغوي:

من خلال إطلالة عابرة على بعض المعاجم اللغوية يتضح لنا أن معنى «الرحمة» أخذ حظه من المعجميين في الإبانة والتوضيح، «الراء والحاء أصل يدلّ على السعة والانبساط»،[1] فالفسحة والانشراح وغيرها من المعاني هو المجال الذي يتضمنه الحقل الدلالي لحرفي «الراء والحاء»، ومما أورده صاحب أساس البلاغة قوله: «رحم: رحمته رحمة ومرحمة ورُحمًا ... وتراحموا تعاطفوا»،[2] فهي في مطلق معناها تدلّ على العطف، كما خصّها ابن منظور في قوله: «رحم. الرّحمة: الرّقّة والتّعطّف، والمرحمة مثلُه، وقد رحِمتهُ وترحمتُ عليه، وتراحمَ القومُ: رحِمَ بعضُهم بعضًا،[3] ومما سبق عرضه في شأن المعنى اللغوي لاسم الرحمة عند بعض المعجميين، يتّضح لنا أنّ محلّ الرّحمة ذات العطف عند مَن يُعرفون بها هو القلب الواسع المُفعم بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت:٣٩٥هـ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ١٩٧٩م، الجزء الثاني، ص٣٨٥.

(٢) أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ت ٥٣٨هـ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، باب الراء، الجزء الأول ص٣٤٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة، باب الراء الجزء ١٨، ص١٦١١.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف] ومما جاء في تفسيرها: «قوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ عموم لا نهاية لها، أي: من دخل فيها لم تعجز عنه، وقيل: ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ من الخلق حتى إنّ البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها. قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس، فقال: أنا شيء، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. فقالت اليهود والنصارى: نحن مُتقون. فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧] فخرجت الآية عن العموم، والحمد لله».(١)

إنّ من الأمثلة الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: «الرحمن الرحيم قال ابن عباس: «هما اسمان رقيقان أحدهما أرفق من الآخر» يعني أنهما يدلان على الرقة والانعطاف في أصل اللغة».(٢) ضمن هذا المجال في شأن المعنى اللّغوي يتموقع كنه اسم الرحمة، فماذا عن المفهوم الاصطلاحي لها؟

ب - المفهوم الاصطلاحي:

لا يمكن حسم وضبط المفهوم الاصطلاحي لاسم «الرحمة» في مفهوم واحد، الأمر الذي يوحي بعدم محدودية الدلالة الاصطلاحية لهذا الاسم، ومن باب الوقوف على ما هو عام كمفهوم اصطلاحي له استوقفني هذا التعريف، الذي جاء فيه «الرحمن الرحيم. كناية عن إنعامه وإحسانه على

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، ص٣٥٠-٣٥١.

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير الألفاظ معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، أحمد بن يوسف بن عبدالدائم، (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيوت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج٢، ص٨٠.

خلقه، والرحمة مأخوذة من الرحم، وذلك لأن الرحم منعطفة على ما فيها، والرحمن أبلغ من الرحيم، ولذلك قيل: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة؛ لأنه في الدنيا يرحم المؤمن والكافر لإنعامه بالرزق والإفضال عليهم مؤمنهم وكافرهم، وفي الآخرة رحمته مُختصة بالمؤمنين، والرحمن مختص بالله تعالى... وأمّا الرحيم فيطلق على غيره.

قال تعالى في صفة نبيه بذلك: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨]،[١] وحتى لا أطيل في التعريف الاصطلاحي باعتبار أنّ اسم الرحمة وُظّف في كثير من الآيات القرآنية، التي حتمًا تخرج دلالته في أثناء الاستعمال من مفهوم إلى آخر، لِذا رأيت أن أُفصّله في مبحث خاص، وهو ما سأتناوله في الآتي.

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٨١.

المبحث الثاني
دلالات اسم الرّحمة
في القرآن الكريم

إنّ المتتبع للآيات القرآنية المتضمنة لاسم الرحمة من حيث دلالتها في إطارها العام يقف على أنّها تخرج إلى تأدية دلالات عدّة، تبعًا لسياق الآية العام، وفي تتبعي لهذا المبحث سأتناول بقدر الإمكان ما تعرّض له المفسرون؛ لأنّ «الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم»[(١)] فالسنة النبوية اعتمدها المفسرون بعد أن نظروا إلى القرآن الكريم، باعتباره يُفسّر بعضه بعضا، ولما كان تتبعي لاسم الرحمة في القرآن الكريم يقتضي مِني أنْ ألتفت بين الحين والآخر إلى ما جاء في التفسير، حرصت على ذلك قصد توفية هذا المبحث حقّه؛ لأنّ من كلام العرب ما يعرف في وقوع اسم واحد على أشياء مختلفة،[(٢)] لذا سأركّز على بيان أشهر دلالتها مُستعينًا بجملة من التفاسير بغية ضمان التنويع، وقد رتّبت –ما وقفت عليه– من دلالات لاسم الرحمة ترتيبًا راعيت فيه الحرف الأول للعنوان على النحو التالي:

(١) اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره، سعود بن عبدالله الفنيسان، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص٣٠٢.

(٢) فقه اللغة وسِرّ العربية، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق فايز محمد، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص٢٨٦.

الإسلام:

إنّ القارئ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى]، فدلالة اسم الرحمة في هذه الآية يدلّ على الإيمان، وهو ما وقف عليه الرازي في تفسيره، حيث قال: «﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يدلّ على أنّه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة، وقوله ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته، وهذا يدلّ على أنّ الأولين إنّما دخلوا في رحمته، لأنّه كان لهم وليّ ونصير أدخلهم في تلك الرحمة، وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته».(١)

إنّ الملاحظ لتغيّر دلالة اسم «الرحمة» وتأديته لدلالة الإسلام في هذه الآية تحكمت فيه جملة من المعطيات التركيبية لنصّ الآية، الأمر الذي أدّى إلى تميّزها عن سابقتها، ولاحقتها.

الجنة:

ممّا وقفت عليه من دلالات لاسم «الرحمة» في آيات الذكر الحكيم ما يراد بها الجنة نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران] والرحمة هنا معرفة بلفظ اسم الجلالة مضاف إليه مجرور للتعظيم(٢)، ومما وقف عليه البغوي في شأن دلالتها «قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، هؤلاء أهل الطاعة، ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جنة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾»(٣) وهو ما أكّده ابن كثير «الجنة، ماكثون

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين المشتهر بخطيب الدين (٢٠٤هـ - ٥٤٤م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ج٢٨، ص١٤٩.

(٢) إعراب القرآن الكريم، بهجت عبدالواحد الشيخلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٤٣.

(٣) تفسير البغوي معالم التنزيل، للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى ٥١٦هـ، تحقيق محمد عبدالله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، الجزء الثاني، ص٨٨.

فيها أبدًا»،(١) ولعل القرينة اللفظية المعتمدة في تفسير الرحمة بالجنة بياض الوجه، «فبياض الوجوه وحسنها سيما أهل الجنة..»(٢) دلّ دلالة قطعية على أنّ المراد باسم «الرحمة» هنا هو الجنّة.

وبما أنّ الآخرة إما جنة أو نار، فمن الآيات القرآنية المتضمنة لاسم الرحمة نتيجة سياقها وتركيبها، يقصد بها الحرمان من الرحمة ونعيم الجنة، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت] فحديثه عن الذين كفروا ونعته إياهم باليأس قرينتان دالتان على غير النعيم والإقصاء من رحمته التي أثبتها تعالى من خلال تركيب الآية، فإضافته للضمير «ي» في «رحمتي» دلالة قطعية على أنّه لا راحم سواه، ومن التفسيرات التي خُصّت بها هذه الآية ما جاء في تفسير الطبري: «والذين كفروا بحجج الله، وأنكروا أدلته، وجحدوا لقاءه والورود عليه يوم تقوم الساعة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ يقول تعالى ذكره: أولئك يئسوا من رحمتي في الآخرة؛ لما عاينوا ما أعدّ لهم من العذاب، فأولئك لهم فيها عذاب موجع».(٣)

وممّا نقف عليه كدلالة للجنة قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف] حيث جاء في تفسيرها، «﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم، ويحتقرونهم

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ-١٩٩٩م، المجلد الثاني، ص٩٢.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥هـ - ١٣٩٣هـ)، إشراف بكر بن عبدالله أبوزيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، المجلد الثاني، ص٣٥٥.

(٣) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ-٣١٠هـ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى القاهرة١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ج١٨، ص٣٨٠.

لفقرهم، وقلّة حظوظهم من الدنيا»،[1] ولعلّ الدّال على معناها هذا ما جاء بعد كلمة رحمة، وهو قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، وهو ما أكّده البغوي في تفسيره ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾، حلفتم، ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة»[2] هذه الآيات ومثلها كثير في تضمنها لدلالة الجنة.

الخير والعافية:

إنّ المفردة قد تخرج إلى تأدية معاني شتى، إلا أنّ الذي يُحدد هذا التنوع في المعاني ويتحكم فيه، تركيب الكلمات المشكلة للجملة، حيث ترسم دلالتها من خلال التأليف الذي أبحث عليه، فالمتأمل لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت] فاسم «الرحمة» هنا سبق بالفعل «أذقناه» كما أُلحق بـ «مِن بَعْدِ ضَرَّاء» الأمر الذي أدّى إلى ضبطه في هذه الدّلالة «العافية والنعمة»، وهو ما وقف عليه الكثير من المفسرين نحو قول البغوي: «﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾، وآتيناه خيرا وعافية وغنى،[3] فمعنى الرحمة في الآية أفاد العافية والغنى، وهو ما أكّده الرازي في تفسيره» ثم بين تعالى أنّ هذا الذي صار آيسا قانطا لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾».[4]

ولعلّ المتأمّل لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء] يستنبط دلالة العافية، «فالقرآن

(١) الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ج٢، ص٤٤٦.
(٢) تفسير البغوي معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ج٣، ص٢٣٣.
(٣) تفسير البغوي معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ج٧، ص١٧٨.
(٤) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين(٥٤٤هـ-٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١هـ، ج٢٧، ص١٣٨.

يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة، وطلب الخير، والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنّه شفاء في حقّه ورحمة».[1]

الرأفة:

ومن الآيات القرآنية المتضمنة لاسم «الرحمة» ما دلّ على دلالة «الرأفة»، ومنها ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]، ومما جاء في حقّ تفسيرها أنّ «الرحمة التي بها يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه هي من عند الله، ولا يعلم ذلك إلا بفكر»،[2] فالمودة والرأفة بين الزوجين ما كان لها أن تحصل بينهما لولا رحمة الله.

كما يأخذ اسم الرحمة في القرآن الكريم دلالته من الاسم الذي يسبقه، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف]، وهو ما بيّنه صاحب التنوير في قوله: «والإشارة بهذا إلى الردم، وهو رحمة للناس لما فيه من ردّ فساد أمّة يأجوج ومأجوج عن أمّة أخرى صالحة»،[3] واسم الإشارة «هذا» يعود إلى فعل الرّدم، وبذلك يصبح الرّدم برغم ضرره في إطاره العام متضمنًا للرأفة والرّحمة.

وممّا نقف عليه في هذا الاتجاه الدّلالي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف] فتسبيق اسم ﴿ٱلرَّحْمَةِ﴾ باسم من الأسماء

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج٥، ص١١٢.
(٢) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين، ج٢٥، ص١١٢.
(٣) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج١٦، ص٣٩.

الخمسة ﴿ذُو﴾ له من الدلالة، باعتبار أنّ «﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾: الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكّة عاجلا من غير إهمال، مع إفراطهم في عداوة رسول اللّه ﷺ».[1]

الرخاء:

إنَّ وقف عليه صاحب أضواء البيان في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٠﴾ [فصلت] يتضمن في مضمونه العام لمعنى الخير والنعمة،[2] ومما ذهب إليه في تفسير الآية التركيز على القرينتين: ﴿أَذَقۡنَٰهُ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾ ، الأمر الذي جعل من دلالة اسم ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ يأخذ من ضدّ ﴿ضَرَّآءَ﴾، وهو ما يُعين على استنباط الدلالة الفعلية للكلمة في الآية، ويجلي معناها؛ لأنّ «غموض المعنى اللغوي يجني على الفكرة، إذ يعوقه ويجرّ إلى أخطاء فيه»،[3] وفي ظلّ ورود مثل هذه القرائن والتركيز عليها يتّضح المعنى.

الشفقة:

إنَّ من دلالات اسم الرحمة في القرآن الكريم ما يدلُّ على طلب العطف والشفقة، وهو ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾ [الأنعام] ومن تأملات القرطبي في شأن فحوى هذه الآية ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾: أي: وعد بها فضلًا منه وكرمًا حتى المتولين عنه مدعوون إلى الإقبال إليه، وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنّه رحيم بعباده، لا يُعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة

(١) الكشاف، الزمخشري، ج٣، ص٥٩٥.
(٢) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ج٧، ص١٥٥- ١٥٦.
(٣) المعنى اللغوي، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص٩٦.

والتوبة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى اللّه الخلق، كتب في كتابٍ على نفسه، فهو موضوع عنده: إنّ رحمتي تغلب غضبي»،(١) الأمر الذي يجعل من عباده طامعين في عطفه ورحمته.

مثل هذه الدلالة لاسم «الرحمة»، التي وقفت عليها في قوله تعالى، هي من باب التمثيل لا الحصر.

الغيث:

إذا أردنا بيان دلالة اسم الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف:٥٧] «فالسياق العام للآية يدور حول مظهر طبيعي، ومن هذا المنطلق وقف الزمخشري مفسرًا إيّاها: ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾: أمام رحمته، وهي الغيث الذي هو من أتمّ النّعم، وأجلّها، وأحسنها أثـرًا»(٢) على الإنسان والحيوان والطبيعة، نتيجة تأثيره في تغيير وجه هذه العناصر تغييرًا إيجابيًّا.

كما نقف على دلالة اسم «الرحمة» بمعنى «الغيث» في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾ [الشورى] ومن التفاسير الواردة في شأنها ما نصّه: «وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ أي: يعمّ بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية»،(٣) وبتعميم ذلك يسود الخير.

الفضل والإحسان:

حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ج٨، ص٣٢٩-٣٣٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ج٢، ص٤٥١ – ٤٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ – ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج٧، ص٢٠٦.

نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام] فالمتأمل لدلالة اسم «الرّحمة» يقف على تأديتها لدلالة الفضل والإحسان، وهو ما أكّده البغوي في تفسيره لها، حيث ضبطها في قوله: «هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال عليه، وإخباره بأنّه رحيم بالعباد، لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة»،[1] وهل من فضل وإحسان كهذا؟

القرآن:

إذًا ثبت لدينا جليًّا في الواقع الاستعمالي للكلمات أنّه «لا يوجد بين الاستخدامات المختلفة للكلمة الواحدة عنصر مشترك محدد، وإنّما يوجد فقط بين هذه الاستخدامات تشابهات أسرية كمثل التشابهات التي نلحظها بين أفراد الأسرة الواحدة»،[2] فالمراد من ذلك أنّ لكلّ كلمة مجالها الدلالي الذي تُعرف به، وهو لا يمنعها من التحرّك في نفس المجال لتُشكل دلالات أُخرى يفرضها السياق والترتيب، والكلمات المُشكلة معها للجملة، وما سنقف عليه من دلالات لاسم «الرحمة» في القرآن الكريم دليل على ذلك، وهو ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾ [الأنعام]، حيث جاء في تفسيرها «فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده، الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه»،[3] فالقرآن كلّه رحمة من الخالق.

(١) تفسير البغوي معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ج٣، ص١٣٠.
(٢) في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص١١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ)

الملك والغنى:

من الآيات القرآنية التي تُجلي هذه الدلالة، وتُثبتها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف]، فاسم «الرحمة» هنا مسبوق بفعل يدلّ على التجدد والاستمرارية، وهو: «﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾؛ أي: بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم مَن نَّشَاء من عبادنا، بمقتضى ما وضعنا من السنن في الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية»،[1] فعطاء الله رحمة منه لعباده؛ لأنّ عطاءه لا يشعر العبد فيه بالنقص ولا بالمنّ، الأمر الذي يترتّب عليه تضمن الرحمة.

ومما يؤكد هذه الدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم]، لعلّ لفعل انبساط أنفس الناس وما ينتج عنه من فرح سبب، وهو ذوقهم لرحمة الله، «وإذا أصاب الناسَ منّا خِصبٌ ورخاءٌ في الأبدان والأموال، فرِحوا بذلك».[2]

النبوءة:

إنّ اصطفاء الله لعباده، واختيار بعضهم، وتكليفهم بالرسالة والنبوءة، هو تجسيد فعلي لرحمة من رحماته؛ لأنّ ترك البشرية في تيه وضلال لا يجلي للمخلوق وظيفته في حياته، وتصبح الخلائق بعيدة عما رسم لها، ولكن رحمة الله اقتضت أن يبعث رسلًا مبشرين ومنذرين، ومن الآيات القرآنية المبيّنة لذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ

تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج٣، ص٣٧٠.

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة هاشم محمد بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ج١٤، ص١٦

(٢) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ج٢٨، ص٥٠١.

لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ [مريم]، فالأنبياء والرسل مؤيدون برحمة من الله، «﴿ووهبنا﴾، أي: وَهَبْنَا لهم بعض رحمتنا، وهي النبوءة، لأنها رحمة لهم ولمن أرسلوا إليهم»[1]، فالنبوة رحمة من الله، بفعل ما ينتج عنها من صلاح وخير للمبعوث لهم.

كما يقول عزّ من قائل في مقام آخر: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء]، فالمراد برحمة الله في هذه الآية «فضل الله ورحمته، ما يشمل البعثة فما بعدها، وإن أريد بالفضل والرحمة النصائح والإرشاد، فالمراد بالقليل ما هو معلوم من قواعد الإسلام»،[2] ومهما يكن من أمر فاسم «الرحمة» في كثير من الآيات القرآنية يؤدي دلالة «النبوة».

إنّ المتأمّل لنصّ الآية السالف وبالأخص لما نحن بصدد البحث فيه في مجال تنوّع دلالة اسم «الرحمة»، ففضل الله على العباد هو توفيقهم لعبادة الله، وطاعة رسوله، لذا جاء في تفسيرها «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، إذ هداكم لطاعة الله والرسول ظاهرًا وباطنًا، وردّ الأمور العامة إلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم، لاتبعتم وسوسة الشيطان»،[3] فرحمة الله هنا الدالة على الهداية والطاعة حدّدت معالمها جملة جواب الشرط التي جاءت مباشرة بعد كلمة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾، وهي قوله: ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

في ختام هذا المبحث لا أدّعي أنّني قد أحطت بجميع الآيات المتضمنة

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج١٦، ص١٢٥.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج٥، ص١٤٣.
(٣) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ج٥، ص١٠٦.

لاسم «الرحمة» في القرآن الكريم، بل كلّ ما في الأمر أنني قد اعتمدت على مجموعة منها كعينة، كما حرصت على استجلاء دلالتها من تفاسير متنوعة، قصد ضمان وتحقيق عنصر الموضوعية، ولعلّ في تنوّعها تأكيدًا على أنّ القرآن الكريم كان له الأثر البالغ في توسيع الحقل الدلالي للألفاظ، كما كان له الأثر من جوانب أخرى في التوسع، وهو ما سأتناوله في المبحث الموالي.

المبحث الثالث
أهم صيغ اسم الرحمة في القرآن الكريم

إنّ المتتبع لصيغ[1] اسم الرحمة في القرآن الكريم يقف على تنوّع بنائها، ولعلّ تتبعنا لبنية[2] هذه الكلمة في القرآن الكريم يساعدنا على معرفة وفهم مضمون الآية؛ لأنّ معرفة الحقل الدلالي للكلمة في كثير من المحطات، تقتضي منّا معرفة البناء، كون أنّ «المعنى المعجمي ليس كلّ شيء في إدراك معنى الكلام،[3] ومن هذا المسلّم يتضح لنا أنّ معرفة أبنية الكلمة عامل مساعد على معرفة دلالته، وقصد الإحاطة بمختلف دلالات كلمة الرّحمة رأيت أن أتتبّع صيغها، وأبنيتها الصرفية:

أ. صيغة فعلان

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تتضمن صيغة الرّحمن، والتي هي صيغة مبالغة «فعلان» ذو الرحمة، ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم] هذا ما جاء على لسان مريم عليها السلام، ولعلّ توظيف القرآن الكريم لصيغة (الرَّحْمَن) في هذا المقام له من

(١) جمع صيغة، و«الصيغة في الصرف قرينة مهمة يعتمد عليها» (من قضايا اللغة، مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت، الطبعة الأولى١٩٩٥م، ص١٨٦.)

(٢) المقصود بالبنية هو ما يعرف بعلم الصرف «Morphologie ومن طبيعة هذه الدراسة أن تتناول الناحية الشكلية التركيبية للصيغ والموازين الصرفية». (مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠م، ص١٧٠).

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية بيروت، ص٢٦٣.

الدلالة والحكمة باعتبارها صيغة تفيد المبالغة، ولقد «خصت الرحمن بالذكر، ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه».[1]

إنّ توظيف صيغ المبالغة في مثل هذه المقامات يُجلي المعنى المستهدف ويبيّنه، ومن أمثلة ما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق] فالرحمن هو الله جلاله وهو صاحب الرحمة التي لا تُضاهيها رحمة ولتحقيق اكتسابها والعيش في أجوائها يقتضي ذلك من عباده أن يخافوه لذا جاء في تفسيرها: «وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملًا لخشية من ضعف الخائف وهذا في الإكثار، وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية»[2]، وهو بذلك واسع الرحمة لمن خشيه بالغيب.

ب. صيغة فعيل

اسم يدلّ على المبالغة، وهو على وزن فعيل، ورحيم في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة] تعني عظيم الرحمة، وهي تفيد المبالغة في الشيء؛ لأنّ «صيغ المبالغة لا تكون إلا من الفعل المتعدي الثلاثي، ولها أوزان كثيرة، اشتهر منها خمسة: فعال- فعيل- فعول- فِعل- مفعال.

إنّ بعض الصفات التي على وزن فعيل، والتي على وزن فعل ليست للمبالغة، وإنما هي من قبيل الصفة المشبهة؛ لأنّ فعلها لازم»،[3] هذا الاستثناء لبعض الصفات التي ترد على وزن فعيل قد تخرج عن وظيفة المبالغة في حالة لزوم فعلها.

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبدالله الأرمي، إشراف ومراجعة هاشم محمد بن حسين مهدي، ج١٧، ص١٠٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٩، ص١٧٨.
(٣) دراسات في علم الصرف، عبدالله درويش، مكتبة الطالب الجامعي، مكتبة مكة المكرمة العزيزية، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م، ص٥٢- ٥٣.

ومن هذه الصيغ ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، «أي: أنه يتوب على من تاب إليه وأناب»،[١] فالذي يرجع إلى الله ويتوب إليه يجد قبول توبته من الله، كما يلمس وافر رحمته.

مثل هذه الآيات بهذه الدلالة في هذا المنحى تعكس تطابقًا كليًّا بين مكوناتها، والمعنى الذي تقصده، لذا «فالصورة المنطقية للجملة هي صورة من تركيب معين، يُحدّد العلاقات بين المعاني القائمة بين الألفاظ الواردة في الجملة»،[٢] وعندئذ يُمكن أن نستنبط من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ التناسب بين تركيب الآية وصيغة فعيل لأداء دلالة المبالغة.

ج. صيغة فعلة

مثل هذه الصيغ التي ترد على وزن فَعْلَة كثيرة في القرآن الكريم، ومنها ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥]، فمن دلالة «رحمة» أنّها تفيد المبالغة والزيادة في معناها، وهي دلالة اقتضتها بنيتها الصرفية مع ربط ذلك بعلم التفسير، وعلى ضوء هذا التناسب بين «المعرفة والثقافة اللغوية، فإنه سوف يدرك كثيرًا من معاني آيات القرآن الكريم، ولا شكّ في أنّ إدراكه ذاك سوف يزداد إذا نظر في كتب التفسير المختلفة، وكلما أطال النظر في تلك الكتب وأمعن التفكير في معاني الآيات اتسعت آفاق إدراكه لمعاني الذكر الحكيم»،[٣] مع ربط ذلك ببنية الكلمة ووزنها، الذي له الأثر البالغ في تحديد المعنى وإبانته.

ومن هذه الصيغ ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج١، ص٢٤٠.
(٢) في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٥م، ص٢١.
(٣) محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ص٢٢٠ - ٢٢١.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة].

إنّ صيغة فعلة التي تفيد المبالغة في البناء الصرفي في قوله تعالى مشدودة بقضية القتل، حيث «رُوي أنّ عبدالله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي، ظنّ قوم أنّهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر، فنزلت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وإنه من رجا طلب، ومَن خاف هرب»(1) وهي واسعة وتشملهم.

كما أنّ مثيلات هذه الآية المتضمنة لمثل هذه الصيغة حاصل في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الروم]، ولعلّ الذي يقوم بالربط بين تفسير الآية وصيغتها يُمكن أن يتصور فهمًا لها، حيث جاء في تفسيرها «فانظر يا محمدُ إلى آثار الغيث، الذي يُنزل الله من السحاب، كيف يُحيي الله به الأرض الميتة، فيُنبتُها ويُعشِبُها من بعد موتها ودثورها»(2). ولما كان القصد من ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ هنا هو الغيث، فالمشهور في شأنه: أنّ الغيث بحدّ ذاته رحمة فيها من الكثرة، لبلوغ فعل الارتواء، الذي تُقرّ به الأرض، فيتجلى ذلك في خضرتها وجمالها.

د. صيغة فاعل

وهي ما ترد على وزن فَاعل نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف:١٥١]، فاسم الفاعل المتجلّي في قوله تعالى: «راحم» له من الدلالة في بيان أثر رحمته على عباده، فلا راحم لمخلوقاته، الذين يرجون رحمته إلاّ هو.

(١) الكشاف، الزمخشري، ج١، ص٤٢٥.
(٢) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ج١٨، ص٥٢٣.

إنّ الدارس لبنية الكلمة يتجلّى له تميّزها عن غيرها من البنيات، الأمر الذي ينتج عنه خصوصية دلالتها باعتبار أنّ «المعنى الاشتقاقي للمفردة، هو الملحظ اللافت الذي تحقق في مسماها»، وهو ما يُمثل بحقّ لفت انتباه القارئ أو المستمع لهذا المنحى التعبيري.(١)

مثل هذه الصيغة ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون]، وهي بإفادتها للدّعاء، فإنّ تضمنّها لصيغة فاعل «راحم»، وربط دلالته بالغفران والرّحمة الواسعة يكون لمثل هذا البناء الأثر البالغ في الذي يطلب المغفرة والرحمة من مالكها وصانعها، فأنّى له أن يرجع خائبًا؟

هـ. صيغة مفعلة

من الصيغ المشتقة من اسم الرحمة، التي جاءت على وزن مفعلة في القرآن الكريم ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد]، ومما وقف عليه صاحب معالم التنزيل في تفسيره ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: «برحمة النّاس»(٢) ولعلّ في الآيتين السابقتين التفاتًا إلى مَن تجب رحمتهم ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد]، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد].

إنّ البنية الصرفية لاسم المرحمة، التي جاءت على وزن مفعلة تُعرف بالمصدر الميمي، الذي من دلالته في الآية العطف والرّقّة، وهي مشتقة من «رحمه رحمة ومرحمة ورُحمًا: رقّ له قلبه، وعطف عليه».(٣)

و. صيغة أفعل

من المسلّم به أنّ الصيغة الصرفية لأيّ اسم في اللغة العربية وغيرها

(١) المعنى اللغوي، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص١٩٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ج٨، ص٤٣٣.
(٣) معجم معاني ألفاظ القرآن الكريم، ربيع الزواوي، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، ص٤٠.

تمتاز بخصوصية دلالتها عن الأخرى، الأمر الذي يُعمل على ترقية الأداء الدلالي في اللغة ذاتها، وهي في اللغة العربية أوسع، وصيغة أفعل تُفيد التفضيل، ومن الآيات القرآنية المُجسّدة لذلك ما نقف عليه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]، فالذنب المُقترف مغفور بالندم والتوبة، وما يؤكد ذلك ما انتهت به الآية كصيغة صرفية دالة على التفضيل.

ز. صيغة فعلاء

من الصيغ الصرفية في اللغة العربية ما يأتي على وزن فعلاء، وهي صفة مشبهة،[1] ومن الآيات القرآنية المتضمنة لدلالتها قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩]، وقد جاء في تفسيرها أنّها صفة للمؤمنين، حيث ينبغي أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًّا بالأخيار.[2]

إنّ البحث في مجال دلالة الصيغة في آيات الذكر الحكيم يكتسي طابعًا مهمًّا في مجال التأمل والتدّبر، نتيجة ما يقدّمه من عون للقارئ، فيأخذ بيده إلى الفهم القويم، وهو ما حرصت على بيانه في هذه الإطلالة.

(١) كونها تشتق «من الثلاثي اللازم، ودلّت على وصف وصاحبه، وأفادت الثبات والدوام، والمراد باللازم هنا ما كان على وزن فعُل بضم العين مثل كرُم، نبُه، أو ما كان على وزن فعِل بكسر العين مثل فرِح، وبخِل». (دراسات في علم الصرف، عبدالله درويش، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة العزيزية، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م، ص٦٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، ج٧، ص٣٦٠

المبحث الرابع
تجليات فعل التراحم بين المسلمين
في القرآن الكريم

إذا كُنّا قد بيّنا في المبحثين السابقين ما يرتبط باسم «الرحمة» كأداء دلالي في القرآن الكريم، وهو ما وقفنا عليه من خلال نماذج من آيات الذكر الحكيم مؤكدين تلك الرؤى بما وقف عليه مفسرو القرآن الكريم لاستجلاء الدلالة الفعلية لاسم «الرحمة»، حيث تبيّن لنا سعة دلالتها وتنوّعها، الأمر الذي يوحي بأثر القرآن الكريم في توسيع الدلالة للمدخل المعجمي الواحد.

كما تتبعنا بعض مشتقات اسم «الرحمة» كبنية صرفية قصد بيان التوسّع الدلالي لها، وبُغية ضمان تتمّة هذا المنحى في مجال اسم «الرحمة» فرض عليَّ المسار البحثي أنْ أبقى في الحقل نفسه، ولكن معرّجًا على ما يستعمل في التراحم بين المسلمين، باعتبار أنّ «الرحمة تقتضي الإحسانَ إلى المرحوم»،[1] ومن الآيات الدالة على أفعال التراحم في القرآن الكريم:

أ. الشدة على الكافرين والعطف على المسلمين، نحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

(١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ٥٠٢هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ص١٩١.

ب. البرّ والإنفاق، نحو قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران:٩٢].

ج. الكفّ عن الأذى، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة:٩].

د. فعل الخير، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾ [البقرة].

هـ. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نحو قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران].

هذه بعض من الآيات الدالة على تنبيه المسلمين إلى وجوب التراحم فيما بينهم، ليبلغوا بتطبيق ذلك ما بلغه الصالحون من السلف السابق.

إذا سلّمنا بهذا المنحى الدّلالي في شأن اسم «الرحمة»، فإنّه حينما نُقلّب النظر في القرآن نقف على أسرار من الإعجاز اللغوي، ونجد ذلك في ألفاظه، التي تفي بحق كل معنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنّه زائد،[1] ومن هذا المنطلق فدلالة اسم «الرحمة» بين الآدميين لا تتجاوز الرّقة والعطف، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩] وهي في مضمونها العام تعكس خُلق المعاشرة الحسنة، وممّا أورده الزّمخشري في تفسيرها قوله: «عن الحسن رضي الله عنه: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم

(١) مباحث في علوم القرآن، منّاع القطّان، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الحادية عشرة ٢٠٠٠م، ص٢٥٩.

كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلاّ صافحه، ...ومن حقّ المسلمين في كلّ زمان أن يراعوا هذا التشدد وهذا التعطف: فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة، وكفّ الأذى، والمعونة والاحتمال...»[١] وممّا يُستنبط من ذلك أنّ أهمّ الأفعال التي يترتّب عليها فعل التراحم بين المسلمين الكفّ عن آذاهم، والحرص على مساعدتهم...

إنّ فعل التراحم بين المسلمين يقتضي منهم فهمًا إجرائيًّا لواقعهم مع بعضهم البعض، بل ما يتطلب منهم تجاوز ذلك لإفادة البشرية بما نصّت عليه الشريعة الإسلامية «كما أنّ رحمتهم بالناس هي التي جعلتهم يُريدون الهداية والخير والسعادة للناس كلّ الناس، ويضحون بأنفسهم من أجل خير البشرية، وإعلامها بالحقّ الذي اصطفاهم الله لتبليغه.

وكونهم رحماء بينهم، له ظواهر في سلوكهم، منها: إرادة الخير لكلّ المسلمين، والتعاون على البرّ والتّقوى، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والبذل والعطاء، والمودّة والإخاء، ومساعدة ذوي الضرورات والحاجات، والإيثار على الأنفس أحيانا، إلى كلّ ما فيه شدّ أواصر الروابط الاجتماعية».[٢]

إنّ أثر الرّحمة حينما يتشبّع به الواحد مِنّا يُترجم في واقعه الفعلي، فيتجلّى في سلوك فيه من القيم الخلقية الراقية، حيث يصير على درجة من الإحساس بالغير، الأمر الذي يُرقّي في ذات الفرد فعل التراحم، وممّا قاله الله جل جلاله في هذا المنحى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبۡرِ

(١) الكشاف، الزمخشري، ج٥، ص٥٥٠.
(٢) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص٣٧٠.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧﴾ [البلد]، والمرحمة من التراحم، التي ينتج عنها صلاح الفرد والمجتمع، والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتصافهم بالمرحمة، لأنّ من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها».[1]

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج ٣٠، ص٣٦١.

الخاتمة

من خلال دراستي لهذا الموضوع يمكن أن أحصر نتائج بحثي في النقاط التالية:

١. إنّ البحث في مجال تنوّع الدلالة اللّفظية للفظ الواحد -في القرآن الكريم- جدير بالاهتمام لجملة من الأسباب والدّوافع منها:

أوّلًا: للردّ على مَن يرون أنّ اللفظ الواحد بحروفه بنفسها يأخذ الدلالة نفسها.

ثانيًا: الأخذ بيد أبناء المسلمين إلى التأمل في هذا الحقل، لاستنباط الدلالة الحقيقية للكلمة الواحدة الواردة في عدد معتبر من الآيات القرآنية.

٢. دلالةّ اسم «الرّحمة» في القرآن الكريم، وإن بدت في إطارها اللّغوي المحض، تعبّر عن معنى مُحدّد، إلاّ أنّها في الاستعمال القرآني تنوعت دلالتها لأسباب منها:

تنوّع المجال الذي يتحكم فيه سبب النزول.

اختلاف بناء الآيات القرآنية المتضمنة لاسم «الرّحمة».

وجود قرائن لفظية تحمل سمات مختلفة عن غيرها تتحكم في التوجيه الدلالي.

٣. تنوّع بنيات اسم «الرّحمة» الواردة في القرآن الكريم بدوره، يؤدي إلى استنباط دلالة يضيفها هذا التركيب للكلمة نفسها.

٤. إذا سلّمنا أنّ دلالة اسم «الرّحمة» في القرآن الكريم تأخذ مناحي دلالية متنوّعة، ففعل التراحم بين العباد مستنبط ومُقتبس من رحمة الله للعباد، ومهما حاول العباد الارتقاء بذلك تبقى رحمة الله أوسع وأشمل، وتراحم العباد فيما بينهم مجرّد محاولة من الإنسان للارتقاء بالإنسانية، والخروج من حبّ الذّات.

مصادر ومراجع البحث:

- القرآن الكريم

أ. المصادر

١. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ت٥٣٨هـ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية لبنان بيروت.

٢. تفسير البغوي معالم التنزيل، للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين ابن مسعود البغوي المتوفي ٥١٦هـ، تحقيق محمد عبدالله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

٤. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة هاشم محمد ابن حسين مهدي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٥. تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري (٢٢٤هـ -٣١٠هـ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى القاهرة ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

٦. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٧. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين (٥٤٤هـ-٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ-١٩٨١هـ.
٨. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ - ١٩٩٩م.
٩. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
١٠. فقه اللغة وسِرّ العربية، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق فايز محمد، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
١١. الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧هـ - ٥٣٨هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وآخرون، مكتبة العبيكان.
١٢. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ٣٩٥هـ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ١٩٧٩م.
١٣. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ٥٠٢هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
١٤. عمدة الحفاظ في تفسير الألفاظ معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، أحمد بن يوسف بن عبدالدائم، ت ٧٥٦هـ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

ب. المراجع

١٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن

محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥هـ-١٣٩٣هـ)، إشراف بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

١. اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره، سعود بن عبدالله الفنيسان، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٢. إعراب القرآن الكريم، بهجت عبدالواحد الشيخلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م.
٣. أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٤. دراسات في علم الصرف، عبدالله درويش، مكتبة الطالب الجامعي، مكتبة المكرمة العزيزية، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
٥. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية بيروت.
٦. في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٧. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة.
٨. مباحث في علوم القرآن، منّاع القطّان، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الحادية عشرة ٢٠٠٠م.
٩. المعنى اللغوي، محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
١٠. محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
١١. مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠م.

١٢. من قضايا اللغة، مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت، الطبعة الأولى١٩٩٥م.

الدلالة المعجمية
في الآيات الواردة في الرحمة

إعداد:
د. إيمان "محمد أمين" حسن بني عامر

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، القائل في محكم تنزيله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

والقائل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام:١٢].

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيدنا محمد عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن علم الدلالة من العلوم الأساسية في الدراسات اللغوية، ولقد اهتم به العلماء قديمًا وحديثًا اهتمامًا كبيرًا، وذلك لارتباطه بفهم الكلام.

وظهر هذا العلم في كثير من التفاسير، لبيان معاني الآيات القرآنية، وتسهيل فهمها على الناس، ومن الآيات التي استخدم في تفسيرها علم الدلالة الآيات الواردة في الرحمة.

وإن مما دفعني للكتابة في هذا الموضوع هو أهمية التعريف بالرحمة، ومعرفة معاني الألفاظ الدالة على الرحمة ودلالاتها المعجمية التي يجهلها كثير من الناس، لذا رأيت أن أوجه بعض جهدي ووقتي لبيان الدلالة المعجمية للآيات الواردة في الرحمة، ذلك لما لها من أثر في تقوية الإيمان، والتوصل إلى عبادة الرحمن.

إشكالية الدراسة:

تكمن الإشكالية الأساسية للبحث في الإجابة عن السؤال التالي:

ما الآثار المترتبة على استخدام الدلالات المعجمية في تفسير الآيات الواردة في الرحمة؟

والإجابة عن هذه الإشكالية تتم من خلال الإجابة عن الأسئلة الفرعية الآتية:

ما أبرز المعاني المعجمية، التي اعتمد عليها المفسرون في تفسير آيات الرحمة؟

ما الآثار المترتبة على استخدام هذه الدلالات المعجمية في بيان الآيات الواردة في الرحمة؟

أسباب اختيار الموضوع:

هناك عدة أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع:

١. أهمية علم التفسير، إذ هو من أهم العلوم التي تعين على فهم القرآن الكريم والعمل به.

٢. بيان أهمية الدلالة المعجمية في توضيح المعنى.

٣. بيان اهتمام المفسرين بالدلالة المعجمية في تفاسيرهم.

٤. التعريف بعلم الدلالة.

٥. بيان الأثر الناتج عن الاختلاف في الدلالة المعجمية من خلال عرض بعض الآيات الواردة في الرحمة.

أهمية الدراسة:

إن للدلالة المعجمية أهمية كبيرة عند المفسرين، وذلك لفهم معاني القرآن، فلكل مفسر موقفه الخاص من الدلالة المعجمية للكلمة القرآنية، مما أدى إلى الاختلاف في استنباط الأحكام الفقهية، والفوائد التربوية والعلمية والأخلاقية وغير ذلك من الآثار المترتبة على الدلالة المعجمية للكلمات القرآنية.

الدراسات السابقة في الموضوع:

هناك عدة دراسات جاءت؛ لبيان علم الدلالة وأنواعها، ودراسات أخرى اهتمت بدراسة الآيات الواردة في الرحمة، ولم أجد شيئًا من الدراسات التي اختصت ببيان الدلالة المعجمية في الآيات الواردة في الرحمة، فجاءت هذه الدراسة لبيان ذلك.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، أما المقدمة فقد اشتملت على إشكالية الدراسة، وأسباب اختيار الموضوع، وأهمية الدراسة، والدراسات السابقة في الموضوع، وخطة البحث.

أما التمهيد، فقد اشتمل على تعريفات الدراسة، وهي:

أولًا: التعريف بالدلالة المعجمية.

ثانيًا: التعريف بالرحمة.

ثالثًا: الألفاظ الدالة على الرحمة الواردة في القرآن الكريم.

أما المبحث الأول اشتمل على الدلالة المعجمية في الآيات القرآنية الواردة في الرحمة.

والمبحث الثاني: اشتمل على الآثار المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

والخاتمة، فقد اشتملت على أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث.

والفهارس، اشتملت على فهرس المراجع وفهرس الموضوعات.

ولقد تحريت في موضوعي هذا الدقة والصواب ما أمكنني وبذلت فيه كل جهدي وغاية طاقتي حتى وصلت به إلى هذا المستوى.

وأخيرًا أرجو الله أن أكون قد وفقت في عرض هذا البحث وبيان مصطلحاته، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

والحمد لله رب العالمين

تمهيد
تعريفات الدراسة

أولًا: التعريف بالدلالة المعجمية.

الدلالة لغة: جاء في لسان العرب: دَلَّه على الشيء يدُلُّه دلًّا ودلالةً فاندَلَّ: سدده إليه، ودللته فاندل.

والدليلي: ما يُستدلُّ به، والدليل: الدالُّ.

وقد دله على الطريق يدُلُّه دَلالة ودِلالة ودُلولة، والفتح أولى.

والدليل والدَّليلي: الذي يدلك، والجمع أدلة وأدِلاء، والاسم الدِّلالة والدَّلالة، بالكسر والفتح، والدُّلُولة والدَّليلي.

والدليلي علمه بالدلالة ورسوخه فيها، وفي حديث علي رضي الله عنه في صفة الصحابة رضي الله عنهم: «ويخرجون من عنده أدلة»[(١)]، هو جمع دليل أي بما قد علموا، فيدُلُّون عليه الناس، يعني يخرجون من عنده فقهاء، فجعلهم أنفسهم أدلة مبالغة.

والدِّلالة: ما جعلته للدليل أو الدَّلال[(٢)].

(١) الجزري، ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: رضوان مامو، مؤسسة الرسالة، دمشق-سوريا، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، حرف الدال، باب الدال مع اللام، ص٣١٥.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، حرف اللام، فصل الدال المهملة، ج١١، ص٢٤٨-٢٤٩.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

والدلالة هي الإرشاد، وما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، جمعها دلائل ودلالات[١].

والدلالة: الأمارة، وهو بين الدَّلالة والدِّلالة[٢].

والدَّالَّةُ: ما تَدِلُّ به على حَميمِك[٣].

ويترتب على هذا التصور المعجمي توفر عناصر الهدي والإرشاد والتسديد أي: توفر: مُرشِد ومُرشَد، ووسيلة إرشاد، وأمر مرشد إليه، وحين يتحقق الإرشاد تحصل الدلالة[٤].

فالمعنى اللغوي للدلالة يوحي بالإرشاد، والهداية، والتسديد، أو التوجيه نحو الشيء، والأمارة أي: العلامة، وعلى هذا تُجمع كتب اللغة؛ فدله على الشيء أرشده وهداه.

أما الدلالة المعجمية:

فهي عبارة عن المعنى الذي يستقل به اللفظ في المعاجم اللغوية أو في أثناء التخاطب، وهذا غير دلالته الصرفية، فلفظ (غفور) مثلًا يدل على شخص متصف بالغفران، غير أن هذه الصيغة الصرفية تزيد معنى أزيد وهو الكثرة والمبالغة[٥].

أو هو المعنى الذي تسجله المعاجم للمفردة اللغوية مراعى فيه حروفها بترتيبها وصيغتها، سواء كانت تلك المفردة في صورة لفظ مستقل بمعنى،

(١) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ط٢، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م، باب الدال، مادة (دلَّ)، ج١، ص٢٩٤.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، ط١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، كتاب الدال، مادة (دلَّ)، ص٢٨٦.

(٣) الزبيدي، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبدالمنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، باب اللام، فصل الدال المهملة مع اللام، ج٢٨، ص٢٨٨.

(٤) عبدالجليل، منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص٢٦.

(٥) وهبة والمهندس، مجدي، وكامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص١٦٩، والعبود، جاسم محمد عبد، مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ص١١٥.

كما تقول: النطاق بوزن كتاب: كل ما يشد به المرء وسطه، أو كانت في صورة لفظ يختلف معناه، حسب ما نسميه سياق إسناده، كما يقال قصف البعير: صرف أنيابه أي: صوت بها لما حك بعضها ببعض، وقصف العود: كسره، أو كان في صورة تركيب من أكثر من كلمة واحدة وله بذلك معنىً خاص، مما يمكن أن يسمى عبارات سبيكة (أو متلازمة) مثل نسيج وَحده، وقويُّ الشكيمة، فهذه الصور كلها تدخل تفسيراتها ضمن المعنى المعجمي(١).

ولهذا المصطلح تسميات أخرى، مثل: الدلالة اللغوية، والدلالة الاجتماعية، التي تؤخذ من المعاجم التي تبحث في معاني الألفاظ لغة(٢).

ثانيًا: التعريف بالرحمة

الرحمة لغة: هي: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ والمَرْحَمَةُ مثله، وقد رَحِمْتُه وتَرَحَّمْتُ عليه، وتَراحَمَ القومُ، رَحِمَ بعضهم بعضًا، والرَّحْمَةُ المغفرة، وقوله ﷻ في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، أَي: فَصَّلْناه هاديًا وذا رَحْمَةٍ، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١](٣).

وتأتي بمعنى: الخير والنعمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ [يونس:٢١](٤).

والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانًا، وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف(٥).

(١) انظر: جبل، محمد حسن حسن، المعنى اللغوي دراسة عربية مؤصلة نظريًّا وتطبيقيًّا، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٧٠-١٧١.
(٢) العبود، مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، ص١١٥.
(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط١، ج١٢، ص٢٣٠.
(٤) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط،تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ج١، ص٣٣٥.
(٥) الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن الكريم،تحقيق: صفوان عدنان داودى، دار العلم الدار الشامية، دمشق- بيروت، ١٤١٢هـ، ص٣٨٩، وانظر: الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥، ص١٤٦، والتهانوي، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٤٦٣.

ثالثًا: الألفاظ الدالة على الرحمة في القرآن الكريم

جاء لفظ الرحمة في القرآن الكريم في نحو ثلاث مائة وتسع وثلاثين مرة، على النحو التالي:

- وردت بصيغة الفعل الماضي ثماني مرات: رحم (٤)، رحمه، رحمنا، رحمته، رحمناهم.
- وردت بصيغة الفعل المضارع أربع عشرة مرة: ترحمون (٨)، يرحمكم (٢)، ترحمنا، يرحمنا، ترحمني، يرحم.
- وردت بصيغة فعل الأمر خمس مرات: ارحمنا (٣)، ارحم، ارحمهما.
- وردت بصيغة المستقبل مرة واحدة: سيرحمهم.
- وردت بصيغة اسم المرة مئة وأربع عشرة مرة: رحمة (٧٩)، رحمته (٢٥)، رحمتك (٣)، رحمتنا (٥)، رحمتي(٢).
- وردت بصيغة المصدر مرتين: المرحمة، رُحمًا.
- وردت بصيغة اسم التفضيل أربع مرات: أرحم.
- وردت بصيغة اسم الذات اثنتي عشرة مرة: الأرحام (٩)، أرحامكم (٢)، أرحامهن (١).
- وردت بصيغة المبالغة مرة واحدة: رحماء.
- كما ورد لفظ الرحمن سبع وخمسين مرة، ولفظ الرحيم خمسةوتسعين مرة، ولفظ رحيمًا عشرون مرة[1].

وهناك بعض الألفاظ التي تكون بمعنى الرحمة، ولكن القرآن عدل عن لفظ الرحمة إلى هذه الألفاظ، لما لها من دلالة خاصة أو تناسب خاص مع السياق، بحيث لا ينوب لفظ الرحمة عنها، لأن المفردات إذا

(١) انظر: عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤، ص٣٠٤- ٣٠٩.

وضعت في كتاب الله فلا تنوب عنها غيرها، بحيث تكون دلالتها على المراد أبلغ وأفصح من مثيلاتها، التي يظن الجاهل أنها تساويها في الدلالة والتعبير، ومن هذه الألفاظ التي وردت في القرآن، وتحمل في طياتها معنى الرحمة الرأفة والحنان[1].

بحيث ورد لفظ الرأفة ومشتقاتها في كتاب الله عز وجل ثلاث عشرة مرة، أما لفظ الحنان فقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم.

وجاء لفظ الرأفة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد:٢٧].

أما لفظ حَنَانًا فقد جاء بقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم].

والرأفة هي: أَشَدُّ الرَّحْمَة أو أَرَقُّها، كما في الصِّحاح، والذي في المُجْمَل: أَنَّها مُطْلَقُ الرَّحْمَة وأَخَصُّ، ولا تكادُ تَقَعُ في الكراهِيَة، والرَّحْمَةُ قد تَقَعُ في الكَراهِيَةِ لِلمَصْلحة، وقال الفَخْرُ الرَّازيُّ: الرأْفَةُ: مُبالَغَةٌ في رَحْمَةٍ مَخْصُوصَةٍ، من دَفْعِ المَكْرُوه، وإِزالَةِ الضُّرّ[2].

أما الحنان فهي: رقة القلب والرحمة، وفي التنزيل العزيز ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، ويقال: حنانك رحمتك. ويقال: حنانيك رحمة منك موصولة برحمة، وأثر الرحمة من رزق وبركة، ويقال: حنان الله، معاذ الله[3].

(١) بخيت، عمران عزت يوسف، الرحمة الإلهية دراسة قرآنية، قدمت هذه الرسالة استكمالاً للحصول على درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠٠٩م، ص١٥.

(٢) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، باب الفاء، فصل الراء، ج٢٣، ص٣٢٢- ٣٢٣.

(٣) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ج١، باب الحاء، مادة (حن)، ص٢٠٣.

المبحث الأول
الدلالة المعجمية في الآيات القرآنية الواردة في الرحمة

بعد الدراسة لبعض آيات القرآن الكريم الوارد فيها لفظ الرحمة، وبعد الاطلاع على أقوال المفسرين الواردة في معنى لفظ الرحمة، فإننا نجدهم قد أطلقوا عليها المعان التالية، والتي سنستعرضها بالدراسة والبيان.

أولًا: الرحمة التي هي صفة الله عز وجل، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وردت في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عموم، أي: لا نهاية لها، أي: من دخل فيها لم تعجز عنه، وقيل: وسعت كل شي من الخلق، حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها، قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية كل شي حتى إبليس فقال: أنا شيء، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون، فقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فخرجت الآية عن العموم[١].

وهذه الرحمة هي في مقابل قول موسى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾، وهو وعد تعريض بحصول الرحمة المسؤولة له ولمن معه من المختارين، لأنها لما وسعت كل شيء فهم أرجى الناس بها، وان العاصين هم أيضا مغمورون بالرحمة، فمنها رحمة الإمهال والرزق، ولكن رحمة الله عباده ذات مراتب متفاوتة[٢].

والتفريع في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ تفريع على سعة الرحمة، لأنها لما وسعت كل شيء كان منها ما يكتب أي: يعطى في المستقبل، للذين أجريت عليهم الصفات، ويتضمن ذلك وعدًا لموسى ولصلحاء قومه، لتحقق تلك الصلات فيهم، وهو وعد ناظر إلى قول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، والضمير المنصوب في ﴿أَكْتُبُهَا﴾ عائد إلى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهو ضمير جنس، وهو مساوٍ للمعرف بلام الجنس، أي: اكتب فردًا من هذا الجنس لأصحاب هذه الصفات، وليس المراد أنه يكتب جميع الرحمة لهؤلاء، لأن هذا غير معروف في الاستعمال في الإخبار عن الأجناس، لكن يعلم من السياق أن هذا النوع من الرحمة نوع عظيم بقرينة الثناء على متعلقها بصفات تؤذن باستحقاقها، وبقرينة السكوت عن غيره، فيعلم أن لهذا المتعلق رحمة خاصة عظيمة، وأن غيره داخل في بعض مراتب عموم الرحمة المعلومة من قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقد أفصح عن هذا المعنى الحصر في قوله في آخر الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣].

(١) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، ج٧، ص٢٩٦.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ج٨، ص٣١١.

(٣) المرجع السابق، ج٨، ص٣١١.

والمعنى: أن الرحمة التي سألها موسى له ولقومه وعد الله بإعطائها لمن كان منهم متصفًا بأنه من المتقين والمؤتين الزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله(١).

وعبر عن الرحمة هنا بالكتابة وأعرض عن لفظ العطاء، لأن الكتابة قيدٌ للعطاء المحقق حصوله المتجدد مرة بعد مرة، فالذي يريد تحقيق عطاء يتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة ليصونه عن النكران، ويصونه من النقصان والرجوع، وتسمى الكتابة عهدًا، والله لا يخلف عهده سبحانه وتعالى، ولو كان العطاء لمرة واحدة لم يحتج للكتابة كقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢](٢).

وصفة الرحمة من الصفات الثابتة لله سبحانه وتعالى بالكتاب والسنة، وهي صفة كمال لائقة بذاته سبحانه وتعالى كسائر الصفات، لا يجوز أن تنفيها أو تؤولها أو تحرفها أو تفوض معناها أو تكيفها، كما هو مقرر في مذهب أهل السنة والجماعة في جميع الصفات(٣).

ثانيًا: الرحمة بمعنى النبوة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

ورد لفظ الرحمة دالًّا على النبوة إما:

أولًا: بمعنى نبوّة المرسلين: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ثانيًا: بمعنى نبوة سيّد الرُّسُل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمثال التالي يوضح المراد بالرحمة في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

(١) المرجع السابق، ج٨، ص٣١٢.
(٢) السامرائي، فاضل صالح، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، ج١، ص١٣٥.
(٣) الجليل، عبدالعزيز بن ناصر، ولله الأسماء الحسنى، ص٩١.

كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥].

فيَعْني بقَوْلِه جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِنُبُوَّتِه وَرِسَالَتِه فَيُرسِلُهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِه، ويَتَفَضَّلُ بالإيمَان به عَلَى مَنْ أَحَبَّ فَيَهْدِيه لَهُ، وَاخْتِصَاصُهُ إِيَّاهُمْ بِهَا إِفْرَادُهُمْ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِه، وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ رِسَالَتَهُ إِلَى مَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِه وَهِدَايَتَهُ مَنْ هَدَى مِنْ عِبَادِه رَحْمَةً مِنْهُ لَهُ لِيُصَيِّرَهُ بِهَا إِلَى رِضَاهُ وَمَحَبَّتِه وَفَوْزِه بِهَا بِالْجَنَّةِ وَاسْتِحْقَاقِه بِهَا ثَنَاءَهُ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ[1].

وخص بالنبوة محمدًا ﷺ[2]، ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره، لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصًّا غير عام، سواء خص واحدًا أو أكثر، ومفعول المشيئة محذوف، كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه، أي: من يشاء اختصاصه بالرحمة.

فاللّه يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوة، فإن اللّه يختص بها من خلقه قابلًا لها، فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة، لتلقي الوحي شيئًا فشيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، [3].

والرحمة المضافة إلى اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر أعلى من ذلك الفضل، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم، بل

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر، دار هجر، ط١، ج٢، ص٣٨٧.

(٢) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ج٢، ص٦١، وانظر: أبو حيان، محمد بن يوسف الشهير، تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج١، ص٥٤٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٣٥- ٦٣٦.

تكون أعلى وأجل من أن تقاس إلى ما آتاهم، ويحصل من مجموع الآيتين أنه لا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده وإن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معينة وعلى أشخاص معينين، جهل بكمال الله في القدرة والحكمة[1].

ثالثًا: الرحمة بمعنى الكتب المنزلة

أولًا: جاء بمعنى القرآن المنزل على محمد ﷺ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

ثانيًا: جاء بمعنى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢].

ولتوضيح ذلك نبين ما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٧-٥٨]، من معان.

ولقد اختلفت أقوال العلماء في تحديد رحمة الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على أقوال منها:

أولًا: رحمة الله هي الإسلام، ذكر ذلك القرطبي في تفسيره، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام، وعنهما أيضا: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله[2].

ثانيًا: رحمة الله هي القرآن، فيقول الطبري في ذلك: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِكَ وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ،

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ط١، ج٨، ص٨٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص٣٥٣.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

وَهُوَ الإِسْلامُ، فَبَيَّنَهُ لَكَمْ وَدَعَاكُمْ إِلَيْهِ، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الَّتِي رَحِمَكُمْ بِهَا، فَأَنْزَلَهَا إِلَيْكُمْ، فَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنْ كِتَابِهِ، وَبَصَّرَكُمْ بِهَا مَعَالِمَ دِينِكُمْ؛ وَذَلِكَ الْقُرْآنُ، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يَقُولُ: فَإِنَّ الإِسْلامَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَالْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ، خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، وَأَمْوَالِهَا وَكُنُوزِهَا[1]، وهو قول عند القرطبي[2].

ثالثًا: أن رحمة الله سبحانه وتعالى هنا فرع عن كون القرآن هدىً ورحمة للمؤمنين، قال ابن عاشور: يتفرع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، تنبيههم إلى أن ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم، يحق لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدروا قدر نعمتهما، وأن يعلموا أنها نعمة تفوق نعمة المال التي حرم منها أكثر المؤمنين، ومنحها أكثر المشركين[3].

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عدم تحديد معنى معين للرحمة في هذه الآيات، وإن ما ذكر فيها من معانٍ إنما هو أثر من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده بأن أنزل عليهم القرآن، ودعاهم للإسلام، وجعلهما سببًا من أسباب الرحمة المنزلة عليهم من الله.

رابعًا: الرحمة بمعنى الجنة، مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

وردت في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨].

أَيْ: يَطْمَعُونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ، فَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٢، ص١٩٤.
(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٨، ص٣٥٣.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١، ص١١١-١١٢.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أَيْ سَاتِرٌ ذُنُوبَ عِبَادِهِ بِعَفْوِهِ عَنْهَا، مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ[1].

وهنا نجد بأن الرحمة ليس بمعنى الجنة، كما قال بعضهم: وإنما هي أثر من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى، بأن يرحمهم فيدخلهم الجنة.

خامسًا: الرحمة بمعنى المطر، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ **[الأعراف:٥٧].**

والرحمة هذه أريد بها المطر، فهو من إطلاق المصدر على المفعول، لأن الله يرحم به، والقرينة على المراد بقية الكلام، وليست الرحمة من أسماء المطر في كلام العرب، فإن ذلك لم يثبت، وإضافة الرحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تبعد دعوى من ادعاها من أسماء المطر، والمقصد الأول من قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ تقريع للمشركين وتفنيد إشراكهم، وتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم، لأن الموصول دل على أن الصلة معلومة الانتساب للموصول، لأن المشركين يعلمون أن للرياح مصرفًا وأن للمطر منزلًا، غير أنهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبًا، فيقولون: مطرنا بنوء الثريا ويقولون: غثنا ما شئنا مبنيًّا للمجهول أي أغثنا، فأخبر الله سبحانه وتعالى بأن فاعل تلك الأفعال هو الله، وذلك بإسناد هذا الموصول إلى ضمير الجلالة في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي الذي علمتم أنه يرسل الرياح وينزل الماء، وهو الله سبحانه وتعالى كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]، فالخبر مسوق لتعيين صاحب هذه الصلة، فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التعيين في نحو قولهم: أراحل أنت أم ثاو، ولذلك لم يكن في هذا الإسناد قصر لأنه به رد اعتقاد، فإنهم لم يكونوا يزعمون أن غير الله يرسل الرياح، ولكنهم كانوا كمن يجهل ذلك من جهة إشراكهم معه غيره،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣، ص٦٦٧.

فروعي في هذا الإسناد حالهم ابتداء، ويحصل رعي حال المؤمنين تبعًا، لأن السياق مناسب لمخاطبة الفريقين[(١)].

سادسًا: الرحمة بمعنى النعمة والرزق وسعة العيش، مثل قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾.

أولًا: جاءت بمعنى نعمة العرفان: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨]، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي معرفة.

ثانيًا: جاءت بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان، ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء:١٠٠]، وَعَنَى بِالرَّحْمَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمَالَ[(٢)].

ثالثًا: جاءت بمعنى سعة العيش، والرخاء والعافية في البدن

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر:٣٨].

﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ يَقُولُ: إِنْ أَرَادَنِي رَبِّي أَنْ يُصِيبَنِيَ سَعَةً فِي مَعِيشَتِي، وَكَثْرَةً فِي مَالِي، وَرَخَاءً وَعَافِيَةً فِي بَدَنِي، هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتٌ عَنِّي مَا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَنِي بِهِ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ[(٣)].

وقال القرطبي الرحمة هنا بمعنى: نعمةً ورخاءً[(٤)].

وقال السعدي: يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي[(٥)].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٣٩.
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٥، ص٩٨.
(٣) المصدر السابق، ج٢٠، ص٢١٢.
(٤) القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، ج١٥، ص٢٥٩.
(٥) السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ج١، ص٧٢٥.

ونجد هنا بأن الرحمة المقصودة هي أثر من آثار الرحمة العامة التي يوصل بها الله عز وجل لعباده الرزق والمال والسعة في العيش والزيادة في المعرفة.

سابعًا: الرحمة بمعنى النصر، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ **[الأحزاب:١٧]**.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ هَرَبًا مِنَ الْقَتْلِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ هُوَ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ قَتْلٍ أَوْ بَلَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ عَافِيَةً وَسَلَامَةً؟ وَهَلْ مَا يَكُونُ بِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ سُوءٍ أَوْ رَحْمَةٍ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ؟![1]

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أي هلاكًا، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: خيرًا ونصرًا وعافية، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا قريبًا ينفعهم، ولا ناصرًا ينصرهم[2].

وذكر الماوردي أن فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: إن أراد بكم هزيمة أو أراد بكم نصرًا.

الثاني: إن أراد بكم عذابًا، أو أراد بكم خيرًا.

الثالث: إن أراد بكم قتلًا أو أراد بكم توبة[3].

إذًا هنا فسر العلماء الرحمة على أوجه كما بينا ذلك، ونلاحظ بأن هذه الأوجه ما هي إلا من آثار الرحمة، التي منَّ الله بها على عباده من نصر أو عافية أو خير أو غير ذلك، مما يترتب على رحمة الله عز وجل.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٩، ص٤٩.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص١٥١.
(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٤، ص٣٨٤.

ثامنًا: الرحمة بمعنى المغفرة والعفو، مثل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وردت بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤].

والرحمة هنا مختلف بها على أوجه منها:

أولًا: دليل على سعة رحمة الله.

فجملة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ مأمور بقولها، تبشيرًا لهم بسعة رحمة الله، وتفريحًا لقلوبهم(١).

وهذه الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا وهي أول المقصود من المقول، وأما السلام فمقدمة للكلام، وجوز بعضهم أن تكون كلامًا ثانيًا، .... فقوله هنا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ تمهيد لقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ الخ(٢).

أي: الذين يؤمنون هم الذين يدعون ربهم، وصفهم بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج، بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله سبحانه وتعالى إليهم، ويبشرهم بسعة رحمة الله سبحانه وتعالى وفضله، بعد النهي عن طردهم إيذانًا بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة(٣)

(١) أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج٤، ص٥٢٨، والزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٢٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦، ص١٢٥.

(٣) البيضاوي، ناصرالدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص٤١٣.

ثانيًا: الرحمة بمعنى المعونة.

ثالثًا: الرحمة بمعنى العفو [١].

فيكون المعنى: إذا جاءك المؤمنون، فحَيِّهم ورحِّب بهم، ولَقِّهم منك تحية وسلامًا، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسَعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك.

ورَهِّبْهم من الإقامة على الذنوب، وأْمُرْهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده[٢].

وهذا يدل على أن الرحمة أيضًا هنا هي أثر من آثار رحمة الله ﷻ الواسعة، فيعفو عنهم ويغفر لهم.

تاسعًا: الرحمة بمعنى العطف والمودة، مثل قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ **[الفتح:٢٩].**

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يَقُولُ: رَقِيقَةٌ قُلُوبُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، لِينَةٌ أَنْفُسُهُمْ لَهُمْ، هَيِّنَةٌ عَلَيْهِمْ لَهُمْ[٣].

وقيل: متعاطفون متوادون[٤].

أو متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق[٥].

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن[٦].

---

(١) الماوردى، النكت والعيون، ج٢، ص١١٩.
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٢٥٨.
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٢١، ص٣٢١.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص٢٩٣.
(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٧٩٥.
(٦) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، =

وإذا بحثنا عن العطف والمودة نجد بأنها من الشفقة والرفق واللين والرقة، والعطف بالقلب، أي: جعله رحيمًا عطوفًا، وهذا من آثار رحمة الله الواسعة، التي منحها لعباده بأن جعل في قلوبهم عطفًا ومودة يتعاطفون بها فيما بينهم.

عاشرًا: الرحمة بمعنى العصمة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾.

وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

يَقُولُ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ مِنَ الْخَطَأ وَالزَّلَل فَأُزَكِّيهَا ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ يَقُولُ: إِنَّ النُّفُوسَ نُفُوسَ الْعِبَادِ تَأْمُرُهُمْ بِمَا تَهْوَاهُ، وَإِنْ كَانَ هَوَاهَا فِي غَيْرِ مَا فِيهِ رِضَا اللَّه ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يَقُولُ: إِلَّا أَنْ يَرْحَمَ رَبِّي مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَيُنْجِيهِ مِنِ اتِّبَاعِ هَوَاهَا وَطَاعَتِهِ فِيمَا تَأْمُرُهُ بِهِ مِنَ السُّوءِ[١].

وهي في موضع نصب بالاستثناء، و«ما» بمعنى مَنْ، أي إلا مَنْ رحم ربي فعصمه[٢].

والاستثناء متصل أو منقطع، وفيه وجهان:

الأول: أنه متصل، وفي تقريره وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أي: إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة.

الثاني: إلا ما رحم ربي، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا في وقت العصمة.

= دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ج٧، ص٣٦٠.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٣، ص٢٠٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٢١٠، وانظر: البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين ابن مسعود، معالم التنزيل، ت: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٤٩.

والقول الثاني: أنه استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [يس:٤٤]، [(١)].

وقيل: هو استثناء من عموم الأزمان، أي: أزمان وقوع السوء، بناء على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات، إلا وقت رحمة الله عبده، أي: رحمته بأن يقيض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائل بينه وبين فعل السوء، كما جعل إبَايَةَ يوسف عليه السلام من إجابتها إلى ما دعته إليه حائلًا بينها وبين التورط في هذا الإثم، وذلك لطف من الله بهما[(٢)].

والعصمة من الله للعبد هي جزء من رحمة الله الواسعة، التي وسعت كل شيء.

الحادي عشر: الرحمة بمعنى الثواب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

ذكر في معنى الرحمة هنا عدة معان، منها: هي بمعنى العفو والغفران، أو بمعنى الإحسان، أو بمعنى المطر، أو بمعنى الرحم والترحم[(٣)].

وذكر الرازي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، مسائل، فقد ذكر أن اختلاف العلماء في معنى الرحمة هنا على وجهين، هما: في أن الرحمة عبارة عن إيصال الخير والنعمة أو عن إرادة إيصال

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٨، ص٤٧٠- ٤٧١، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٢١٠، وانظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٤، ص٢٤٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٧٩.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٢٢٧- ٢٢٨، وأبو حيان، البحر المحيط، ج٥، ص٧١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٣٦.

الخير والنعمة، فعلى التقدير الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال، وعلى هذا التقدير الثاني تكون من صفات الذات.

فقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بمعنى إنعام الله قريب، وثواب الله قريب، فأجرى حكم أحد اللفظين على الآخر[1].

والثواب هو من رحمة الله الشاملة الواسعة التي وسعت كل شيء.

الثاني عشر: الرحمة بمعنى إجابة الدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ **[مريم]**.

فذكر رحمته حين أجابه إلى ما سأله، فاحتمل وجهين:

أحدهما: أنه رحمه بإجابته له.

الثاني: أنه أجابه لرحمته له[2].

أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ سنقصه عليك، ونفصله تفصيلًا، يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله سبحانه وتعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه[3].

الثالث عشر: الرحمة بمعنى التوفيق إلى الطاعة والإحسان:

وردت بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٨٥- ٢٨٦.
(٢) الماوردي، النكت والعيون، ج٣، ص٣٥٤.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٤٨٩.

أي: أنه ﷺ لما رفق بمن تولى يوم أُحُد ولم يعنفهم، بَيَّن الرب سبحانه وتعالى أنه إنما فعل ذلك بتوفيق الله سبحانه وتعالى إياه(١).

وهنا إما أن يكون متعلق الرحمة المؤمنون، فالمعنى: فبرحمة من الله عليهم لنت لهم، فتكون الرحمة امتن بها عليهم، أي: دمثت أخلاقك ولان جانبك لهم، بعد ما خالفوا أمرك وعصوك في هذه القراءة، وذلك برحمة الله إياهم، وقيل: متعلق الرحمة المخاطب ﷺ، أي: برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف، فَرَحِمْتَهم ولِنْت لهم، ولم تؤاخذهم بالعصيان والفرار وإفرادك للأعداء، ويكون ذلك امتنانًا على رسول الله ﷺ. ويحتمل أن يكون متعلق الرحمة النبي ﷺ بأن جعله على خلق عظيم، وبعثه بتتميم محاسن الأخلاق والمؤمنين، بأن لينه لهم(٢).

وكل هذا من باب رحمة الله عز وجل بعباده.

خلاصة

بعد دراسة المعاني الواردة في الرحمة، وبعد الإطلاع على أقوال العلماء فيها، وبعد استعراضها في الدراسة السابقة، فإنني أصل إلى القول بإن كل ما ورد في لفظ الرحمة من معان، إنما هو يعود إلى المعنى الأساسي للرحمة، وهو إيصال الإحسان إلى المرحوم.

وفي الدراسة السابقة نجد أنها من باب إحسان الله عز وجل للمخلوقات في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا رحمهم بأن بعث إليهم الأنبياء والرسل، وأنزل إليهم الكتب، وأنزل عليهم المطر، وأنعم عليهم ورزقهم، ووسع لهم في معيشتهم، ونصرهم وغفر لهم وعفا عنهم، وجعلهم يتعاطفون فيما بينهم ويتراحمون، ووفقهم للطاعة والإحسان، ومن باب رحمته أجاب

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢٤٨.
(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج٣، ص٤٠٧.

دعاء أنبيائه وعصمهم.

ومن رحمته لهم في الآخرة بأن يدخلهم الجنة عرَّفها لهم.

وكل هذه المعاني تعود لصفة الرحمة الخاصة بالله عز وجل، التي وسعت كل شيء.

المبحث الثاني
الآثار المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة

بعد دراسة الآيات الدالة على الرحمة، وما فيها من معان معجمية، نجد بأنه يترتب عليها العديد من الآثار، التي يمكن حصرها في الجوانب التالية:

أولًا: الآثار العقدية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

ثانيًا: الآثار الاجتماعية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

ثالثًا: الآثار السلوكية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

رابعًا: الآثار الفقهية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

خامسًا: الآثار التربوية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة.

ولطول البحث في هذه الجوانب فإنني سأترك البحث فيها لغير هذا المكان، وسأقتصر على بحث الآثار التربوية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة فقط، راجيًا من الله العون والتوفيق والسداد.

الآثار التربوية المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة

إن الدارس للدلالة المعجمية للرحمة، سيرى الكثير من الآثار التربوية المترتبة على هذه الدلالة، وسأذكر هنا أبرز هذه الآثار المترتبة عليها على هيئة نقاط منها:

١. تربية المؤمن على الرحمة.

٢. ارتفاع درجات العبد عند الله على قدر تخلقه بخلق الرحمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

٣. أن الرحمة تفتح أبواب الرجاء والأمل، وتثير مكنون الفطرة، وتبعث على صالح العمل، وتغلق أبواب الخوف واليأس، وتشعر المؤمن بالأمن، والأمان قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

٤. الرحمة بالمخطئين والمذنبين بالأخذ بأيديهم إلى طريق الله بالموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

٥. من آثار الرحمة الانقطاع لله عز وجل، والإعراض عما سواه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء].

٦. من آثار الرحمة الوصول إلى رضا الله ومحبته، وفوزه بالجنة، ونجاته من النار، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام:١٥-١٦].

٧. استحقاق صاحب خلق الرحمة الثناء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٨. حصول التوفيق والعناية من الله بعبده سبب من أسباب الرحمة، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف].

٩. الرحمة سبب لإقالة العثرات، وستر العيوب، وعدم الشماتة والتشهير عند ارتكاب الهفوات، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء:٢٨].

١٠. الوصول إلى مجتمع متراحم متعاطف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد:١٧].

١١. العناية بالوالدين والإحسان إليهما أثر من آثار الرحمة، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء:٢٤].

١٢. الرحمة خلق يوفق الله له من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨].

هذا جزء بسيط من الآثار المترتبة على الرحمة، فهناك العديد من الآثار المترتبة على الرحمة، وهي بحاجة إلى دراسة متمعنة متخصصة وافية، لإعطاء هذا الموضوع حقه.

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنام والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فبعد الدراسة للدلالة المعجمية في الآيات الواردة في القرآن الكريم، فإننا نصل إلى النتائج التالية:

أولًا: الرحمة تأتي بمعنى إيصال الإحسان إلى المرحوم، وهو المعنى الرئيس لهذه اللفظة، أما ما ذكره العلماء من معانٍ لهذه اللفظة، فهو ليس إلا أثر من آثار الرحمة الخاصة بالله عز وجل، والتي وسعت كل شيء، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠ ﴾ [الروم].

ثانيًا: نجد بأن اختيار العلماء لبعض المعاني للرحمة، لا يتناسب مع سياق الآيات الواردة فيها.

ثالثًا: من أبرز الآثار المترتبة على الرحمة منها ما هو خاص بجانب

العقيدة، ومنها خاص بالجانب الاجتماعي والسلوكي، ومنها خاص بالجانب الفقهي، ومنها خاص بالجانب التربوي.

أخيرًا، فإنني أوصي بدراسة الآثار المترتبة على الرحمة دراسة علمية متعمقة تعطي هذا الموضوع شيئًا من حقه، وتساعد على نشر خلق الرحمة بين العباد والتخلق به.

هذه أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، أرجو الله أن أكون قد وفقت في دراسة هذا الموضوع وإعطائه حقه، وبيانه حق البيان.

والحمد لله ربِّ العالمين

فهرس المصادر المراجع

١. بخيت، عمران عزت يوسف، الرحمة الإلهية دراسة قرآنية، قدمت هذه الرسالة استكمالاً للحصول على درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠٠٩م.
٢. البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت.
٤. التهانوي، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
٥. جبل، محمد حسن حسن، المعنى اللغوي دراسة عربية مؤصلة نظريًا وتطبيقيًا، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٦. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
٧. الجزري، ابن الأثير مجدالدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: رضوان مامو، مؤسسة الرسالة، دمشق-سوريا، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٨. أبو حيان، محمد بن يوسف الشهير، تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٩. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ط١.

١٠. الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ت: صفوان عدنان داودى، دار العلم الدار الشامية، دمشق- بيروت، ١٤١٢هـ.
١١. الزبيدي، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ت: عبدالمنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
١٢. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٣. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
١٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر، دار هجر، ط١.
١٦. عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ.
١٧. العبود، جاسم محمد عبد، مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٨. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، ط١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٩. عبدالجليل، منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.
٢٠. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٢١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٢٢. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم.
٢٣. مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ط٢، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م.
٢٤. مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ت: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
٢٥. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١.
٢٦. وهبة والمهندس، مجدي، وكامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.

الرحمة
في القرآن الكريم

إعداد:
د. أنور محمود المرسي خطاب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

فمما لا يشك فيه مسلم أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] وهو رحمة للإنسانية، وصفه الله تعالى في أكثر من موطن بأنه رحمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل]، وقد أكد على صفة الرحمة في أكثر من موطن، وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم نجد كثيرًا منهم ابتعد عن كثير من أخلاق الإسلام عامة، وأخلاق القرآن خاصة، فباتت هناك صفات كادت تمحى من أذهانهم، ومن هذه الأخلاق وتلكم الصفات خلق الرحمة، فنجد كثيرًا منهم يتصف بالغلظة والقسوة مما أدى إلى إظهار الإسلام بمظهر الدين الفظ الغليظ، الذي يقسو على الناس، ويدعو أتباعه إلى القسوة، في حين أن حقيقة الأمر تختلف عن ذلك، فالدين رحمة كله، حتى ما فيه من تشريعات قد تبدو فيها قسوة بالتأمل الدقيق نجدها رحمة عظيمة، على حد قول أبي تمام:

فَقَسا ليزدجروا ومن يك حازمًا   فليقْسُ أحيانًا على من يرحم

هذا وغيره مما يدعو المختصين إلى تأصيل هذا الخلق من القرآن الكريم ومن سنة النبي ﷺ، ولما كان الأمر كذلك رأيت أن أكتب هذا البحث المتواضع، بعنوان (الرحمة في القرآن الكريم)، لأشارك به في مؤتمر «الرحمة في الإسلام» الذي ينظمه قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية في جامعة الملك سعود.

أهداف البحث:

- تأصيل خلق الرحمة من خلال القرآن الكريم.
- بيان معنى الرحمة، وأوجهها في القرآن الكريم.
- بيان أنها صفة من صفات اللّه جل جلاله.
- بيان أبرز مظاهر رحمته تعالى.
- بيان موجبات هذه الرحمة.
- أسباب اليأس من رحمة اللّه.
- بيان من وُصِف بالرحمة.

مشكلة البحث:

وجود كثير من المسلمين الذين تخلوا عن التحلي بهذه الصفة، ظنًّا منهم أنها ليست من الإسلام، مما أدى إلى إظهار الإسلام بغير صورته الحقيقية، مما يستدعي التأصيل لهذا الخلق من القرآن الكريم، المصدر الأول للتشريع الإسلامي.

أسئلة البحث:

١. يجيب البحث عن عدة أسئلة، أهمها:
٢. ما مفهوم الرحمة لغة واصطلاحًا.
٣. ما الأوجه التي جاءت عليها الرحمة في القرآن الكريم؟

٤. ما الألفاظ التي لها علاقة بالرحمة؟

٥. ما معنى الرحمة في حق الله تعالى؟

٦. ما موجبات الرحمة؟ وما أسباب اليأس من رحمة الله؟

٧. هل ورد وصف الرحمة بحق غير الله تعالى؟

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية هذا الموضوع من ارتباطه بالإسلام نفسه ارتباطًا وثيقًا، إذ إن الإسلام دين الرحمة، ونبيه ﷺ نبي الرحمة، والإله الذي يدعو الناس لعبادته إله الرحمة، ومتصف بالرحمة، فهو سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم، وكتابه كتاب الرحمة، وتشريعاته كلها رحمة، وإبراز هذه الصفة يبرز الوجه الحقيقي للإسلام، مما يدعو الناس للدخول فيه.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة، فتشمل بيان أهمية الموضوع، وخطة البحث، ومنهج البحث.

وأما المباحث فهي كالتالي:

المبحث الأول: مفهوم الرحمة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي

المطلب الثاني: الرحمة في الاستعمال القرآني.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: الرحمة صفة من صفات الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الرحمة في حق الله تعالى، وأدلة كونها من صفاته تعالى.

المطلب الثاني: عموم رحمة اللّه تعالى.

المطلب الثالث: من مظاهر رحمته تعالى وآثارها.

المبحث الثالث: موجبات الرحمة، وأسباب اليأس والقنوط من رحمة اللّه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موجبات الرحمة.

المطلب الثاني: أسباب اليأس والقنوط من رحمة اللّه.

المبحث الرابع: من وُصِف بالرحمة في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الكتب السماوية.

المطلب الثاني: الرُّسُل.

المطلب الثالث: المؤمنون.

المطلب الرابع: الغيث.

المطلب الخامس: التشريعات الإلهية.

منهج البحث:

سأسلك في هذا البحث بإذن اللّه تعالى المنهج الموضوعي، فأذكر الآية أو الآيات التي تدل على الفكرة، وأبين موطن الشاهد منها، والنكات التفسيرية التي تتعلق بالموضوع، ولن أتعرض لتفاصيل تفسيرية، لا يقتضيها المقام، ولا تخدم فكرة الموضوع كثيرًا.

واللّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول
مفهوم الرحمة

المطلب الأول
المعنى اللغوي والاصطلاحي

بالنظر في المعاجم اللغوية نجد أن «الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على الرِّقّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه. والرُّحْم والمَرْحَمَة والرَّحْمة بمعنىً»[1]

والرحمة مشتقة الرَّحِم[2]، «والرَّحِمُ: بيْتُ مَنبِت الوَلَد، ووِعاؤه في البَطْن»[3]، ومنه استعير الرحم للقرابة لخروجهم من رحم واحدة[4]، وقد عكس ابن فارس، فجعل القرابة هي الأصل، ومنه أُخِذ رحمُ الأنثى، فقال: «والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد»[5].

واصطلاحًا:

عرفها الجرجاني بأنها «إرادة إيصال الخير»[6] وقيل: هي «إفاضة الخير

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (رحم): ٢/٤٩٨.
(٢) الاشتقاق صـ: ٥٩.
(٣) العين باب الحاء والراء والميم: ٣/٢٢٤.
(٤) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف صـ: ٣٦٠.
(٥) معجم مقاييس اللغة مادة (رحم): ٢/٤٩٨.
(٦) التعريفات صـ: ١٤٦.

وإرادة إيصاله»[١] وقريب من ذلك تعريف ابن الجوزي لها بأنها «النعمة على المحتاج»[٢] وقيل: هي «رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة... وإذا وصف به الباري فليس المراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز الله في طباع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان»[٣]

المطلب الثاني
الرحمة في الاستعمال القرآني

إذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أن الرحمة ذكرت بمادتها ومشتقاتها نحو الثلاث مائة والثلاثين مرةً، وذكرت مرادفاتها ومستتبعاتها من نحو النعمة والرأفة والعفو والمغفرة نحو الأربع مائة مرةً، فضلًا عما تضمنه القرآن الكريم من معانٍ للرحمة، وتشريعات كلها غاية في الرحمة بالإنسانية كلها، ونظرًا لضيق المقام، فسأذكر مادة الرحمة فقط، فأقول: إنها ذكرت في القرآن الكريم بصيغة الفعل والاسم، فأما الفعل فوردت بصيغة الماضي، ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦]، وبصيغة المضارع ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران] وصيغة الأمر -الطلب- ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

أما الاسم ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٤] وبصيغة المبالغة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وبصيغة التفضيل ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ٢/٩٥.
(٢) نزهة الأعين النواظر صـ: ٣٣١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف صـ: ٣٦٠.

ووردت نكرة ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧] ومعرفة بالإضافة في مثل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] ومعرفة بـ (ال) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

وذكرت في القرآن على أوجه كثيرة، تزيد عن العشرين وجهًا:

أحدها: الجنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

الثاني: الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

الثالث: الإيمان، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

الرابع: النبوة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص].

الخامس: القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل].

السادس: المطر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

السابع: الرزق، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء].

الثامن: النعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥].

التاسع: العافية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨].

العاشر: النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧].

الحادي عشر: المنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٤].

الثاني عشر: الرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

الثالث عشر: المغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام].

الرابع عشر: السعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

الخامس عشر: المودة، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

السادس عشر: العصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣].(١)

السابع عشر: التوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣].

الثامن عشر: عيسى عليه السلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١].

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر صـ: ٣٣١.

التاسع عشر: محمد ﷺ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] [1].

العشرون: الكتاب المنزل على موسى عليه السلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾ [الأحقاف:١٢].

الحادي والعشرون: الثناء على إبراهيم عليه السلام ومنه قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود:٧٣] [2].

المطلب الثالث
الألفاظ ذات الصلة

هناك العديد من الألفاظ لها صلة بالرحمة، نذكر أبرزها، وهي:

الرأفة:

يقال: «رأفْتُ به أرءف رأفًا ورأفَة وأنا رءوفٌ ورَؤُفٌ – عطفْت عليه» [3]
قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد:٢٧].

والرأفة اصطلاحًا: «أشد الرحمة» [4] «وأبلغها، فالمرؤوف به تقيمه عناية الرأفة، حتى تحفظ بمسراها في سره ظهور ما يستدعي العفو، وتارة يكون هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب وهذا خاص بمن له بالمنعم نوع وصلة. ذكره الحرالي في موضع، وقال في آخر: الرأفة عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم، تعم من لا صلة له بالرحم» [5].

(١) الوجوه والنظائر: ١/٢٦١.
(٢) بصائر ذوي التمييز: ٣/٥٥.
(٣) المخصص: ٣/٣٨١.
(٤) الصحاح، مادة (رأف): ٥/٤٨، وينظر: الفائق، الراء مع الهمزة: ١/٤١٦..
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص: ٣٥٣.

«وقيل: الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، والرحمة: إيصال النعم مطلقًا، وقد يكون مع الكراهة والألم للمصلحة، كقطع العضو المجذوم»(١)

وعلى هذا فالعلاقة بين الرحمة والرأفة هي العموم والخصوص المطلق، فالرحمة أعم من الرأفة عمومًا مطلقًا.

النعمة:

النون والعين والميم «راجعةٌ إلى أصلٍ واحد، يدلُّ على ترفُّهٍ وطِيب عيش وصلاح»(٢). وهي «في أصل وضعها الحالة التي يستلذها الإنسان»(٣) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة:٢٠].

واصطلاحًا: «هي ما قصد به الإحسان والنفع، لا لغرض ولا لعوض»(٤)، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

ويُفَرَّقُ بين الرحمة والنعمة: أن الرحمة: الإنعام على المحتاج إليه، وليس كذلك النعمة، لأنك إذا أنعمت بمال تعطيه إياه فقد أنعمت عليه ولا تقول: إنك رحمته»(٥).

المغفرة:

الغين والفاء والراء عُظْمُ بابِه السَّتْر، فالغَفْر: السَّتر(٦) قال تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح:٤].

(١) الفروق اللغوية ـ: ٢٤٦.
(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (نعم): ٥/٤٤٦.
(٣) كتاب الكليات ص: ١٤٧٤.
(٤) التعريفات ص: ٣١١.
(٥) الفروق اللغوية صـ: ٢٥٣.
(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة مادة (غفر): ٤/٣٨٥.

قال أبو منصور: "أصل الغفْر: السّتر والتغطية"[١].

واصطلاحًا: «أن يستر القادرُ القبيحَ الصادرَ ممن تحت قدرته، حتى إن العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه، لا يقال: غفر له»[٢] أو هي: «وقاية شر الذنب، بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه»[٣].

قال ابن القيم: هي «محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له ولكن الستر لازم معناها»[٤].

وبناءً على ذلك يمكن التفرقة بين الرحمة والمغفرة بأن المغفرة ستر، والرحمة إنعام، فالمغفرة مقدمة على الرحمة، لأن المغفرة درأ مفسدة، ودرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح.

العفو:

لغة: «القصد لتناول الشيء»[٥] و«العفو ما جاء بغير تكلف ولا كره»[٦] و«عفوت عن ذنبه، إذا تركته ولم تعاقبه»[٧]

والعفو اصطلاحًا: «ترك العقاب على الذنب»[٨]، قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة:٤٣].

وعلى هذا فالعفو قريب من المغفرة، فلابد من وجود ذنب حتى يقال عفا عنه، أما الرحمة فهي محض إنعام.

(١) تهذيب اللغة، مقلوبة (غ ر ف): ٨/١١٢.
(٢) التعريفات صـ: ٢٨٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/٣١٧.
(٤) مدارج السالكين: ١/٣٠٧.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عفا): ٢/١٠٤.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف ص: ٥١٨.
(٧) الصحاح مادة (عفو)٧/٢٨٣.
(٨) الفروق اللغوية صـ: ٣٦٣.

الرقة:

الراء والقاف أصلان: أحدهما صفةٌ تكون مخالفةً للجفاء، والثاني اضطرابُ شيءٍ مائع. فالأوّل الرِّقّة؛ يقال: رقّ يرِقّ رِقَّة فهو رقيق. ومنه الرَّقَاقُ، وهي الأرض الليِّنة... والأصل الثاني: قولهم: ترقْرَقَ الشَّيءُ، إذا لَمَعَ»[١].

الفرق بين الرقة والرحمة: أن الرقة والغلظة يكونان في القلب وغيره خِلْقة، والرحمة فعل الراحم، والناس يقولون: رق عليه فرحمه، يجعلون الرقة سبب الرحمة»[٢].

القسوة:

القَسْوَة: «الصَّلَابَةُ في كل شَيْءٍ»[٣]. واصطلاحًا: «غلظ القلب»[٤]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤] وعلى هذا فالعلاقة بينها وبين الرحمة علاقة تضاد.

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (رق): ٢/٣٧٦.
(٢) الفروق اللغوية صـ: ٢٥٩.
(٣) العين، باب القاف والسين: ٥/١٨٩، تهذيب اللغة، باب القاف والسين: ٩/١٧٩، المحيط في اللغة، (القاف والسين ا وي): ٥/٤٧١.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (قسو): ٢/٢٤٣.

المبحث الثاني
الرحمة صفة من صفات الله تعالى

المطلب الأول
معنى الرحمة في حقه تعالى
وأدلة كونها من صفاته تعالى

مما لا شك فيه عند جميع المسلمين أن «الرَّحْمَةَ: صفة من صفات الله، اشتق لنفسه منها اسم (الرحمن) و(الرحيم)، و(الرحمن) هو: ذو الرحمة الشاملة في الدنيا لجميع المخلوقين، و(الرحيم). هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة»(١)، وهي صفةٌ كريمةٌ من صفاتِ الله تظهرُ آثارُها فيمن شاء أن يرحمَه مِنْ خَلْقِه، ونحنُ نُثْبِتُ لله ما أثبتَه لنفسِه على أكملِ الوجوهِ وأنزهِها وأقدسِها وأليقِها بالله، وأبعدِها عن مُشَابَهَةِ صفاتِ المخلوقين»(٢).

واختلف العلماء في هذه الصفة؛ أهي صفة ذات أم صفة فعل؟ فرجح بعضهم أنها صفة فعل، لأنه تعالى يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وحيث تعلقت بها المشيئة والقدرة فهي صفة فعل. وأما من عدها من صفات الذات، فباعتبار أن الله لم يزل متصفًا بالرحمة، فالرحمة ملازمة لذاته تعالى وإن تجددت أفرادها.

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٢/٤٠٣.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٣/٤٠٨.

يقول الشنقيطي: "والحق أنها صفة ذات من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ المَخْلُوقِين، ليس فيها رقة مخلوقية، ولا انعطاف مخلوقي، لا وَكَلَّا، بل هي صفة كمال وجلال لائقة برب العالمين، منزهةٌ كل التنزيه، مقدسةٌ كل التقديس، لم تشبه شيئًا من صفات الخلق"(١).

وبالتأمل نجد أن للرحمة شقين: الأول دلالتها على ذاته تعالى. والثاني تعلقها بالمرحوم. لذلك يقول ابن القيم في بيان سر الجمع بين وصفي الرحمن والرحيم في القرآن الكريم: «وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى؛ وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته»(٢)

وقد فسرها المُؤَوِّلَةُ بغاياتها، فقد قال الرازي: «كل صفة يستحيل حقيقتها على الله سبحانه وتعالى تفسر بلازمها، فجميع الأعراض النفسانية أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والمكر والاستهزاء، لها أوائل ولها غايات، مثاله الغضب، فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غرضه الذي هو إرادة الإضرار..»(٣)

أقول: لا أريد الخوض في الخلاف في مسألة التأويل والتفويض، ويكفي أن أقول: إننا ندين لله تعالى بمذهب السلف رضي الله عنهم من الإيمان بهذه الصفات،

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٤/ ٢٠٢.
(٢) بدائع الفوائد: ١/ ٢٨.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ١/ ٢١١، الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢٣، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: ١/ ٢٤٠.

وأنها معلومة المعنى، مجهولة الكيف بالنسبة لله تعالى، فهو سبحانه وتعالى متصف بالرحمة، فهو رحمن رحيم، ونحن ندرك آثار هذه الرحمة في الكون، ولا يلزمنا العلم بكيفية اتصافه تعالى بهذه الصفات، والواجب على العقل أن لا يتخطى المساحة المتاحة له من التفكير، وإذا كان من مخلوقات الله تعالى ما لا يمكن للبشر أن يتخيله، وهو الجنة، فهي كما قال ﷺ: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1]. فكيف يخطر الخالق سبحانه وتعالى على قلب بشر؟! إن محاولة العقل البشري الوصول إلى الكيفية أمر عبثي، يجب أن يكف عنه، ويجب علينا أن نوقن بأن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن الإدراك إدراك، والبحث في كنه ذات الله إشراك، يقول الشيخ الغزالي: «ويُخَيَّل إليَّ أن جهازنا العقلي، لا يزيد عن أجهزة الاستقبال المتداولة في الأسواق، فلو تسلط عليه تيار ذو قوة أعلى لاحترق لفوره.. إن عظمة الله فوق العقول...»[2] نسأل الله أن يدخلنا في رحمته، وأن يبعدنا عن النار.

ثم إن أدلة ثبوت هذه الصفة متوافرة، تجل عن الحصر، تواترت وتضافرت بذلك آي الكتاب العزيز، وسنة المصطفى ﷺ، بل وبذكرها افتتح بها كتابه، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] وثنى بها في أم الكتاب ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] وكتبها على نفسه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقد ورد اسم الرحمن في القرآن الكريم ثمان وأربعين مرة، وورد اسمه الرحيم أربعًا وثلاثين مرة، وورد وصفه بالرحمة وبيان اتصافه تعالى بها خمس مرات، منها: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

وورد نسبة الرحمة إليه في مواطن كثيرة، منها ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان:٣١].

---

(١) أخرجه مسلم ك/ الجنة وصفة نعيمها: ٤/٢١٧٥ رقم (٢٨٢٥)

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم ص: ١١.

ومن الأحاديث في ذلك ما ورد في الحديث القدسي (قال اللّٰه: أنا اللّٰه، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته)[١] وفي الحديث النبوي: (إن للّٰه تسعة وتسعين اسمًا، مئة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة؛ إنه وتر يحب الوتر؛ هو اللّٰه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس...)[٢] وقالﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن...)[٣] وعن أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال لرسول اللّٰه ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[٤].

المطلب الثاني
عموم رحمة اللّٰه تعالى

بالتأمل في القرآن الكريم نجده يؤكد على عموم رحمة اللّٰه سبحانه وتعالى وشمولها، للمؤمن والكافر، والإنسان وغير الإنسان، فنجد قول اللّٰه تعالى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

(١) أخرجه الترمذي ك/ البر والصلة ب/ قطيعة الرحم: ٣١٥/٤ رقم (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم ك/ الإيمان: ٦٢/١ رقم (٤١) وقال: هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر أسامي فيه ولم يذكرها غيره. وليس هذا بعلة، فإني لا أعلم اختلافًا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب، ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد رواه عبدالعزيز بن الحصين عن أيوب السختياني وهشام بن حسان جميعًا عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بطوله. قال الذهبي: لم يخرجا الأسامي لتفرد الوليد بها وليس ذا بعلة فالوليد أوثق وأحفظ من أبي اليمان وعلي بن عياش.

(٣) أخرجه الترمذي ك/ البر والصلة ب/ رحمة المسلمين: ٣٢٣/٤ رقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخاري -واللفظ له- ك/ صفة الصلاة ب/ الدعاء قبل السلام: ٢٨٦/١ رقم (٧٩٩)، مسلم ك/ الذكر والدعاء ب/ استحباب خفض الصوت بالذكر: ٢٠٧٨/٤ رقم (٢٧٠٥)

وقال رسول الله ﷺ: «خلق الله مئة رحمة، فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسع وتسعون رحمة»[1] وقال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[2].

ثم إن من هذه الرحمة العامة ما يشمل الخلق والرزق والمطر والدعوة إلى الإيمان، وعدم المؤاخذة على الذنوب في الدنيا، إلى غير ذلك من رحمات تتعلق بأمور الدنيا، فأما الرحمة بمعانيها الخاصة، فهي خاصة بمن خصه الله بها، ومن ذلك:

- الرحمة بمعنى الجنة خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران] «يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل»[3] ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: «يريد: ففي جنة الله.. وإنما قيل للجَنَّة: رحمةُ الله؛ إعلامًا أن العبدَ لا يدخلها إلا برحمته، وإن اجتهد في طاعته»[4]. «فجعلهم مستقرين في الرحمة، فهي ظرف لهم وشاملتهم»[5].

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٥] «قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الجنة وما يتفضل عليهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[6] ولما قال الأعرابي في الصَّلاَة: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا. فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ للأعرابي: «لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا» يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّه جل جلاله.[7]

(١) أخرجه الترمذي ك/ الدعوات ب/ خلق الله مئة رحمة: ٥٤٩/٥ رقم (٣٥٤١) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ١١٦٦/٣ رقم (٣٠٢٢)
(٣) لباب التأويل: ٢٨٣/١.
(٤) التفسير البسيط: ٤٩٠/٥.
(٥) البحر المحيط: ٢٨/٣.
(٦) إرشاد العقل السليم: ٢٦٣/٢.
(٧) أخرجه أبو داود ك/ الصلاة ب/ الدعاء في الصلاة: ٣٢٩/١ رقم (٨٨٢) قال الألباني: صحيح.

- الرحمة بمعنى الهداية الخاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧] فهنا وصف القرآن بأنه «كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع، فإنه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها، مرغب في الأولى، ورادع عن الأخرى، ومبين للمعارف الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة، وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس، وفي مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران، وارتقوا إلى درجات الجنان»(١)، فهو يحصلُ لهم الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه(٢).

- الرحمة بمعنى الرسالة، خاصة بالرسل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨] فالآية تأتي في سياق الحديث عن نوح عليه السلام ودعوته لقومه، فَتَذْكُر هذه الآية أنه قال لهم: أخبروني، إنْ كُنْتُ على حجة شاهدة بصحة دعواي الرسالة أو معجزة. وَآتاني النبوة، فخفيت عليكم، فلا أقدر على أن ألزمكم ما أنتم كارهون له، فالمراد بالرحمة هنا «إمَّا النبوة، وإمَّا المعجزة الدَّالة على النبوَّة»(٣)

ومثل ذلك قوله تعالى: في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود:٦٣] إلا أنه هنا قدم الجار والمجرور على

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/١٥٥.
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٧٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب: ١٠/٤٧٠.

﴿رَحۡمَةً﴾ وأخر في قصة نوح عليه السلام الجار والمجرور ﴿رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ عن ﴿رَحۡمَةً﴾ ﴿رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ لنكتة ذكرها ابن عاشور، فقال: «إن ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل، هو أيضًا أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس. فلما كان مجرور «من» الابتدائية ظرفًا وهو «عند» كان صريحًا في وصف الرحمة بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها. ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ ليكون تقييد الإيتاء بأنه من اللّه مشيرًا إلى إيتاءٍ خاصٍ ذي عناية بالمؤتى، إذ لولا ذلك لكان كونه من اللّه تحصيلًا لما أُفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاءً خاصًّا، ولو أوقع ﴿مِنۡهُ﴾ عقب ﴿رَحۡمَةً﴾ لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة، أي: عن أن يقال: وآتاني رحمته»[1].

وقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] «الظاهر المتبادر أن المراد بـ: ﴿رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ النبوة وإنزال الوحي»[2]، وذلك أنه ذُكر هذا الرد عقب ذِكر اعتراض كفار مكة على نزول القرآن على محمد اليتيم الفقير دون أكابر قريش وثقيف، فكان الرد الإلهي عليهم ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة والرسالة.

المطلب الثالث
من مظاهر رحمته سبحانه وتعالى وآثارها

إذا نظرنا إلى رحمة اللّه تعالى نجد لها مظاهر كثيرة تجل عن الحصر،

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٩٠.
(٢) أضواء البيان: ٧/ ١١١.

وسوف أوجز القول في بعض هذه المظاهر، بما لَعَلَّهُ يفي بالمقام، فأقول:
هذه المظاهر يمكن تقسيمها إلى مظاهر دنيوية وأخرى أخروية:

أولًا: المظاهر الدنيوية، وهي إما عامة لكل الخلق، وإما خاصة بالأنبياء، وإما خاصة بالمؤمنين، فالعامة لكل الخلق منها:

- **إرسال الرسل وإنزال الكتب**، فهذا رحمة لكل الناس، لأن هذه الرسالات يستفيد منها الناس كلهم، لذلك يقول تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧] «وصف سبحانه وتعالى الكتاب بأربعة أوصاف؛ أولها: أنه ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي: هو بَيِّنٌ في ذاته، وفيما دل عليه من شرائع بَيَّنَها وفصَّلها، وأَحْكَمَ بيانها. ثانيها: بأنه ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم ويعرف ما يُصْلِح أموركم، وينفعكم في معاشكم ومعادكم. وثالثها: أنه فيه الهداية إلى الصراط المستقيم وإصلاح نفوسكم، وهداية جمعكم. ورابعها: أن فيه الرحمة بكم؛ لأن فيه الشريعة المحكمة وهي رحمة للعالمين، ولأنه هو نبي الرحمة، قد جاءكم القرآن بما تطلبون أو بما تتمنون، أو بما يكون فيه ادعاؤكم، فهل آمنتم؛ كلا، لم يؤمنوا»(١) وهذه الرحمة عامة لكل الخلق، حيث وضح الطريق لمن أراد أن يهتدي.

- **عدم مؤاخذة الناس بذنوبهم في الدنيا**، حتى يكَون أمامهم فرصة للتوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام] فقد بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة لهذه الآية أن لكل عامل بطاعة أو معصية درجةً على قدر عمله، فَبَيَّن هنا أن ذلك ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصي، بل هو

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٧٤٩.

الغني على الإطلاق وأن جميع الخلق فقراء إليه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه، ذو التجاوز عنهم، فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون(١)، فالمقصُود من الوصف بذي الرّحمة هنا تمهيد لمعنى الإمهال الّذي في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ، أي: أنَّه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم، فما إمهاله إياهم إلا لأنه الغني ذو الرحمة (٢).

ويقول ﷻ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام] يخاطب المولى جل جلاله نبيه ﷺ آمرًا إياه أن يرد على تكذيب المشركين له بأن يقول لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ "بتأخير العقوبة عنكم، فإن رحمته تسع المسيء والمحسن، فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه"(٣) ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ «عذابه إذا جاء الوقت ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الذين كذبوك بما تقول»(٤) وفي الآية «تنبيه لهم بأن تأخير العذاب عنهم هو إمهال داخل في رحمة الله رحمة مؤقتة، لعلهم يسلمون»(٥)

- **خلق الليل والنهار**، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] فهو ﷻ يذكر بعض مظاهر رحمته على جميع خلقه، فإن « ﴿وَمِن﴾ تبعيضية، فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية، لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة... والمقصود إظهار أن هذا رحمة من الله، وأنه بعض من رحمته التي وسعت كل شيء، ليتذكروا بهما نعمًا أخرى»(٦)، ويا لها من نعمة؛ نعمةُ تَعاقُبِ الليل

(١) ينظر: لباب التأويل: ١٥٩/٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٦٥/٧.
(٣) لباب التأويل: ١٦٩/٢.
(٤) التفسير البسيط: ٥١٠/٨.
(٥) التحرير والتنوير: ١٠٨/٧.
(٦) التحرير والتنوير: ١٠١/٢٠.

والنهار، يستراح بالليل، ويسعى الإنسان لتحصيل العيش بالنهار، ولو كان الزمان كله نهارًا أو ليلًا لكان فيه عنتًا ومشقة على الإنسان، ولا يستطيع ذلك الأمرَ إلا الله تعالى برحمته، ولو شاء لأدام الزمان على هيئة واحدة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] فهذه نعمة كبرى، نعمةُ خَلْقِ الليل والنهار متخالفين مختلفين حتى تستمر الحياة.

- **الرزق**، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء] يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنهم لو كانوا يملكون خزائن الأرزاق لأمسكوا بخلًا وشحًّا وخوفًا من الفقر، والخطاب في الآية للناس كلهم، وهذا الرزق عام لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، فهو سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.
- **إنزال المطر**، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] تتضمن الآيتان «ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته»[(١)]، هذه النعمة هي نعمة إنزال المطر من السماء، فـ «المراد بـ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ المطر، لأنه رحمة للناس والحيوان بما يُنْبِته من الشجر والمرعى»[(٢)] وقد «جاء مبينًا في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨]، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]»[(٣)] فالآيات دالة على أن المراد بالرحمة في مثل هذه الآيات المطر، والمطر ينزل رحمة من الله تعالى بكل الناس.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: ٤/ ٣٨١.
(٢) التحرير والتنوير: ١٩/ ٦٩.
(٣) أضواء البيان: ٢/ ٣٣.

- **رفع الضر عنهم**، وشمولهم بالنعم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس:٢١] فالآية تحكي حال الإنسان، فإنه في حال الضر يلجأ إلى ربه ليكشف عنه هذا الضر، وعندما يكشفه تعالى «بدا المكرُ السيئُ الذي أخفته الضراء، فإن تدبير اللَّه ورده عليهم أقوى وأحدٌّ»(١)

وأما الخاصة بالأنبياء فمنها:

- **تخصيصهم بالرسالة**، قال تعالى: حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨] هذه الآية في سياق قصة مجادلة نوح عليه السلام لقومه، فعندما قال له قومه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧] قال لهم: أخبروني إن كنتُ على بيان ويقين من ربي، وأعطاني نبوة من عنده، فخفيت عليكم، لا أقدر على إلزامكم إياها مع كراهتكم لها، أي: «ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى، وإن كان واضحًا جليًا لا لبس فيه، إن لم يهدكم اللّه جل جلاله إليه»(٢)، فالمراد بالرحمة هنا النبوة -كما قال ابن عباس رضي الله عنهما-(٣)، فهي الرحمة العظمى بهم وبالإنسانية كلها، وإنما جعلت رحمة؛ لأن اللّه جل جلاله يتناول بها الخلق من العطب والهلكة، «وذكر الرحمة هاهنا نقضًا عليهم فيما ادّعوه من أنه ليس له عليهم فضل، فبين ذلك بالنبوة والهداية إلى الحق من جهة البرهان المؤدي إلى العلم»(٤) ولا شك أن النبوة خاصة بهم، لا تتخطاهم إلى عوام الناس.

---

(١) زهرة التفاسير: ٣٥٤٣/٧.
(٢) أضواء البيان: ١٧٧/٢.
(٣) ينظر: النكت والعيون: ٤٦٦/٢، زاد المسير: ٩٧/٤. وروي ذلك عن ابن جريج. ينظر: جامع البيان: ٢٩٩/١٥.
(٤) التفسير البسيط: ٣٩٨/١١.

- **حفظهم من إضلال الناس،** قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:١١٣] والآية واضحة الدلالة على أن الله تعالى حفظ رسله من إضلال الناس، برحمته سبحانه وتعالى

- **إنجاؤهم من كيد الكافرين:** قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف] الآية جاءت في سياق ذكر هود عليه السلام فتذكر أن الله تعالى أنجاه والمؤمنين معه من العذاب الذي نزل بقومه عاد، وهذا الإنجاء إنما هو برحمة من الله تعالى، والمراد بالرحمة رحمة خاصة منه تعالى، لا تتم إلا لمثلهم، وهذه الرحمة هي التي طلبها موسى عليه السلام من ربه ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٦] والتعبير عن هذا الإنجاء بالرحمة للدلالة على أن هذه النجاة بفضل الله تعالى وليس باستحقاق.

- **تمكينهم ومن اتبعهم في الأرض،** قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف] فيوسف عليه السلام بعدما أوذي أشد الإيذاء من أقرب الناس إليه إخوته حين ألقوه في الجب، وأوذي من امرأة العزيز، وسجن ظلمًا وعدوانًا، ولكن إرادة الله غالبة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] وهكذا سنة الله في رسله أن ينصرهم ومن اتبعهم بفضله ورحمته ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور] فهذا وعد من الله تعالى

ووعده حق لا يتخلف، وإذا لم نر الموعود في الواقع فذلك لتخلف شرط من شروط الوعد، لا لتخلف الوعد.

والخاصة بالمؤمنين منها:

- **تثبيتهم على الإيمان**، وهم دائمًا يطلبون من ربهم ذلك ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران] فالمؤمنون يطلبون من الله تعالى أن لا يميل قلوبهم عن الحق بعد الهداية إليه، ويسألونه الثبات على الإيمان، إذ معنى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ «وآتنا من لدنك رحمة وتوفيقًا وتثبيتًا للذي نحن عليه من الهدى والإيمان»[1]

- **حفظهم من الشيطان**، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣] أي: «لولا هذا الفضل وتلك الرحمة من الله بهذه الأمة لضل الكثير من أبنائها باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة في النفوس»[2]، ولبقي الكثير من أبنائها على الكفر، إلا طائفة قليلة، فهذه رحمة خاصة بالمؤمنين، حيث حفظهم المولى جل جلاله من اتباع الشيطان وكيده، ووفقهم إلى الإيمان والخير. نسأل الله تعالى أن يديم علينا رحمته.

- **عدم مؤاخذتهم بالذنوب في الدنيا**، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤﴾ [النور]هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الإفك، وقد خاض فيه جماعة من المؤمنين، مع من خاض فيه من المنافقين، فجاءت هذه الآية لتخبر أنهم بفعلهم هذا استحقوا العقوبة، واستوجبوا نزول العذاب، وأنه

(١) الكشف والبيان: ٣/١٧، معالم التنزيل: ٢/١١.
(٢) التفسير الوسيط: ٢/٨٦٤.

لولا وجود فضل الله تعالى ورحمته لأصابهم بسبب ما فعلوا عذاب عظيم، وهذا من رحمة الله بهم، رحمة في الدنيا، حيث لم يُنْزِل بهم العذاب في الدنيا، ورحمة في الآخرة، لأنه لو عاجلهم بالعذاب قبل أن يتوبوا فسوف يكون مصيرهم إلى النار، فلذا أمهلهم في الدنيا، ليكون أمامهم فرصة للتوبة.

- **تخفيفه في التشريعات عليهم**، فالناظر في تشريعات الإسلام كلها يجدها رحمة بالمسلمين، بل وبالبشرية كلها، بل وبكل العالمين، وقد أشار القرآن إلى هذه الرحمة في تشريع القصاص، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ ... ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة١٧٨] «وأضاف هذا التخفيف إلى الرب، لأنه المُصلح لأحوال عبيده، الناظر لهم في تحصيل ما فيه سعادتهم الدينية والدنيوية»[١] وإذا أردنا أن نفصل في بيان الرحمة في تشريعات الإسلام لما استطعنا أن نحصيها، وتفصيل الكلام فيها له مقام آخر.

- **ترقيق قلب الرسول ﷺ عليهم**، وجعله لين الجانب للمؤمنين، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] فأثنى تعالى على رسوله ﷺ بأنه لين الجانب للمؤمنين، «ومعنى ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو توفيق الله جل جلاله نبيه محمدًا ﷺ للرفق والتلطف بهم، وأن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف، حتى فعل ذلك معهم»[٢] وإنما أخبر سبحانه وتعالى أن لينه معهم برحمة الله تعالى، لأن «لينه في ذلك كله لينٌ لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقًا باسم الرحمة»[٣] والآية وإن كانت في سياق الحديث عن غزوة

(١) البحر المحيط: ٢/١٧.
(٢) لباب التأويل: ١/٣١١.
(٣) التحرير والتنوير: ٣/٢٦٥.

أحد، إلا أن حسن الخلق ولين الجانب مع المؤمنين خاصة والناس عامة صفة ملازمة لرسول الله ﷺ وهذا رحمة من الله تعالى

وأما المظاهر الأخروية فهي خاصة بالمؤمنين، وهي تتمثل في:

- **إنجاؤهم من النار**، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٥-١٦] هذه الآيات في سياق الاحتجاج على الكفار، بإثبات أدلة وجود الله تعالى ووحدانيته، فيأمر ﷻ نبيه ﷺ أن يقول لهم: إني أخاف أن أعصي الله تعالى، فيكون مصيري يوم القيامة في العذاب العظيم، فأكون قد حُرِمْتُ من رحمته الواسعة، لأن من مظاهر هذه الرحمة دفع هذا العذاب عن الإنسان، وهذا هو الفلاح الظاهر، كما قال تعالى: في آية أخرى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] ومما لا شك فيه أن النجاة من هذا العذاب تكون للمؤمنين الصادقين في إيمانهم مع الله تعالى.

- **إدخالهم الجنة**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران] أي: «ففي جنة الله»[1]، ومعلوم أن المؤمنين هم الذين تبيض وجوههم يوم القيامة، والدليل على ذلك أنه قابل بينهم وبين الطرف الآخر بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وإنما ذكر سبب تعذيب الكفار ولم يذكر أعمال المؤمنين إشارة إلى أن تعذيب الله لهم عدل وجزاء عن كفرهم، ورحمته بالمؤمنين محض تفضل لا جزاء عملهم بوجه[2].

- **مساواة أصحاب الأعذار للأصحاء في الأجر**، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾

---

(١) التفسير البسيط: ٥/ ٤٩٠.
(٢) ينظر: تفسير ابن عرفة: ١/ ٣٩٤.

[النساء:٩٥] فهذه الآية الكريمة تتحدث عن فضيلة المجاهدين، وتبين أنهم لا يتساوون في الأجر مع من لم يجاهد، فالمجاهدون لهم فضل عظيم وثواب جزيل، وهذه الآية نزلت ابتداءً بدون ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ فشكا أصحاب الأعذار لرسول الله ﷺ أنهم ما منعهم إلا عذرهم، فنزلت هذه الجملة الاعتراضية، فعن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادعوا فلانًا» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾» وخَلْفَ النبي ﷺ ابنُ أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(١)] فهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين يوم القيامة أنه يعطي أصحاب الأعذار من المؤمنين الذين ينصحون لله ورسوله من الثواب على الأعمال التي لا يستطيعون فعلها لعذرهم مثل من فعل هذه الأعمال من الأصحاء، لذلك قال النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[(٢)] وهذه الآية وإن كانت في الجهاد إلا أن العلماء استنبطوا منها "أنّ المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح، إذا كانت نيّته أن يفعل، وقد عمل ما يقدر عليه"[(٣)] وهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري -واللفظ له- ك/ التفسير ب/ سورة النساء: ١٦٧٧/٤ رقم (٤٣١٨)، مسلم ك/ الإمارة ب/ سقوط فرض الجهاد عن المعذورين: ١٥٠٨/٣ رقم (١٨٩٨)

(٢) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ نزول النبي ﷺ الحجر: ١٦١٠/٤ رقم (٤١٦١)

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٣٦/٢٣.

المبحث الثالث
موجبات الرحمة، وأسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

المطلب الأول
موجبات الرحمة

لما كانت رحمة الله تعالى واسعة وشاملة فلا بد للإنسان أن يتعرض لها حتى يستوجب هذه الرحمة، هذا الوجوب وجوب تفضل من الله تعالى لوعده بذلك، ووعده لا يتخلف، وليس وجوب قصرٍ وإلجاء، وقد ذُكِر في القرآن الكريم أشياء كثيرة موجبة لهذه الرحمة، منها:

- **طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ**، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢] بعد أن نهى المولى ﷻ المؤمنين عن أكل الربا، وأمرهم بأن يفعلوا ما ينجيهم من النار التي أعدها للكافرين، يأمرهم في هذه الآية بطاعته ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، راجين بهذه الطاعة أن يفوزوا برحمة الله تعالى، وقد «ذكر الرسول ليعلم أن أوامره شريعة واجبة، وإن لم ينطق بها الكتاب»[1] و(لعل) إما أن تكون بمعنى الرجاء، ويكون الرجاء من جانب المخاطبين، أو بمعنى التوقع، والمعنى: يُتوقع أن تصلوا إلى رحمة الله تعالى إن أطعتموه وأطعتم

(١) درج الدرر: ٢/٥٢٩.

رسوله ﷺ، أو يكون (لعل) من الله تعالى وعد محقق الوقوع، ويكون أتى بلفظ الرجاء مع أن طاعة الله والرسول لازمة للرحمة، على عادة الأمراء والسلاطين في وعدهم أنهم يعبرون عن الأمر الثابت المحقق الذي يلتزمون فعله بلفظ الرجاء، وإما أنه باعتبار نية المكلف، وأنه يفعل العبادة غير معتقد للثواب والرحمة بل يترجى ذلك، ويطمع فيه فقط، ولا ينبغي له أن يكتفي بعمله، ولا يقطع بذلك بوجه(١).

- **اتباع القرآن الكريم**، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام] مما لا شك فيه أن القرآن الكريم أُنزل لأمورٍ ثلاثة، الإعجاز والتحدي، والتعبد بتلاوته، والعمل بما فيه، فهو منهاج تسير عليه البشرية إلى يوم القيامة، ولم ينزل ليهجره الناس، وهذه الآية توضح هذا الأمر، فهي تخبر أن القرآن كثير الخير والنفع والبركة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: فاعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وَاتَّقُوا مخالفته وتركَ العملِ به، وليكن الغرض من اتباعه ومن التقوى رحمة الله(٢)، «أي: إذا اجتمع اتباع القرآن والأخذ بهدايته وشريعته، وكانت التقوى في قلوبكم، فإن الرحمة ترجى لكم»(٣) فهذا سبب من أسباب نزول رحمة الله تعالى.

- **الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له**، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف] يأمر تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن، لكي يصلوا إلى رحمة الله تعالى، فهذا سبب للوصول إلى هذه الرحمة. والاستماع: طلب السماع، و(الإنصات السكوت للاستماع)(٤) و"جمع بين

(١) ينظر: تفسير ابن عرفة: ١/٤١٠.
(٢) ينظر: لباب التأويل: ٢/١٧٤.
(٣) زهرة التفاسير: ٥/٢٧٤٧.
(٤) التفسير البسيط: ٩/٥٦٣.

الاستماع والإنصات، لأنهما معًا أَعون على الفهم والتدبر، وأَتمُّ في الانتفاع، وأَرجى لرحمة الله ﷻ، فضلًا عما فيه من الأَدب مع الله، واحترام كلامه ﷻ"[1]، والمقصود أن لا ينشغل الإنسان عن سماع القرآن، حتى يصل إلى فهمه وتدبره والعمل بما فيه، وإلا فالاستماع والإنصات بدون العمل لا يؤدي إلى رحمة الله تعالى

- **إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة**، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور] جمعت هذه الآية ثلاثة أشياء؛ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول، والمعنى: «افعلوا هذه الأشياء على رجاء الرحمة»[2]، «لأن الله ما أطمعهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم، لما هو معلوم من فضله وكرمه»[3] وقد تقدم القول في طاعة الرسول.

وإقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة الأركان والهيئات والشروط في أوقاتها. وإيتاء الزكاة: إخراج جميع أنواع الزكوات على الوجه المطلوب شرعًا وإعطاؤها لمستحقيها. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة].

- **الاستغفار**، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل] تحكي الآية الكريمة مقولةً لصالح عليه السلام لقومه يستنكر فيها استعجالهم نزول العذاب، حيث عقروا الناقة وطلبوا نزول العذاب، كما قال تعالى:

---

(١) التفسير الوسيط: ١٥٧٥/٣.
(٢) لباب التأويل: ٣٠٤/٣.
(٣) أضواء البيان: ٥٥٤/٥.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف]، وكان الأجدر بهم أن يطلبوا الحسنة، وأن يطلبوا مغفرة الله تعالى ويتوبوا من ذنوبهم، وأولها الشرك رجاء أن يُرحموا في الدنيا والآخرة، فرحمة الآخرة لا تكون إلا للمؤمنين.

- **البعد عن المعاصي**، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [يس] يخبر تعالى «عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويُؤَمنكم من عذابه»[1]، وقيل المعنى: «احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله وَمثُلاته بمن حلّ ذلك به من الأمم قبلكم أن يحلّ مثله بكم بشرككم وتكذيبكم رسوله ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وما بعد هلاككم مما أنتم لاقوه إن هلكتم على كفركم الذي أنتم عليه»[2]، وهو يؤول إلى المعنى الأول، إذ اتقاء هذه الأمور إنما يكون بترك المعاصي. وجواب ﴿إذا﴾ -على القولين- «محذوف، أي: أعرضوا، يدل عليه بعده ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾»[3]، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الذنوب تؤدي إلى العذاب، وأن تركها يؤدي إلى رحمة الله تعالى.

- **الإصلاح بين المؤمنين وتقوى الله تعالى** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] يقرر المولى ﷻ حقيقة يجب أن تسود بين المؤمنين كلهم، وهي حقيقة الأخوة الإيمانية التي تجمعهم، فهناك أخوة النسب، وأخوة الإنسانية، والأخوة الإيمانية، وهذه هي التي ينبغي أن تسود بين أبناء المجتمع الإيماني، وتُقَدَّمُ على

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/٥٨٠.
(٢) جامع البيان: ٢٠/٥٢٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب: ١٦/٢٣٢.

الأُخُوَّتَين الأخريين، فالمؤمنون كلهم أخوة، وإن وقع شقاق بين جماعتين من المؤمنين، فيجب على المجتمع الإيماني أن يقوم بواجب الإصلاح بينهما، وأن يرأب ما بينهما من صدع، وأن يصلح ما وقع من فساد، ولو كانت إحداهما باغية أخذوا على يديها، حتى ترجع إلى حكم الله تعالى، ويجب عليهم أن يتقوا الله سبحانه وتعالى في القيام بهذا التكليف وغيره من التكليفات، فإن هم قاموا بواجب الإصلاح بين المتخاصمتين وتحلوا بتقوى الله تعالى فإنه يرجى لهم أن يصلوا إلى رحمة الله جل جلاله، رحمة الله في الدنيا والآخرة، فإنهم إن تركوا الطائفتين في خلافهما، فسوف تسال الدماء في المجتمع المسلم، وتُزهق الأرواح، فالإصلاح بينهما يرحم المجتمع في الدنيا من ويلات الحروب ودمارها، ويؤدي إلى الرحمة في الآخرة، فإنه (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)[1] فبالإصلاح بينهما تُرجى الرحمة في الآخرة للمُصلح، حيث امتثل أمر الله تعالى، وللمقتتلين حيث يخرجان من هذا الوعيد.

المطلب الثاني
أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

مع سعة رحمة الله تعالى إلا أننا نجد بعض الناس ييأس من هذه الرحمة، واليأس من رحمة الله كبيرة من الكبائر، نهى الله تعالى عنها مهما كثرت ذنوب العبد، فقال جل جلاله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] بل ذهب بعض العلماء إلى أنه كفر، قال الرازي: «واعلم أنَّ اليأس من رحمة الله لا يحصلُ

(١) أخرجه البخاري ك/ الديات ب/ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾: ٦/٢٥٢٠ رقم (٦٤٨١)، مسلم ك/ الفتن وأشراط الساعة ب/ إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: ٤/٢٢١٣ رقم (٢٨٨٨)

إلاَّ إذا اعتقد الإنسان أنَّ إله العالم غير قادر على الكمالِ، أو غير عالم بجميع المعلوماتِ، أو ليس بكريمٍ، بل هو بخيلٌ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر»[1]

هذا اليأس له أسباب كثيرة، وهي على كثرتها ترجع إلى البعد عن منهج اللّه تعالى، وقد أشار إلى ذلك يعقوب عليه السلام عندما طلب من بنيه أن يبحثوا عن يوسف عليه السلام وأخيه، فقال -كما حكى القرآن الكريم-: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف] فنهاهم عن اليأس من رحمة اللّه، و«جعل اليأس من رحمة اللّه وتفريجه من صفة الكافرين، إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات اللّه تعالى»[2]، ومن الملاحظ أن هذا الخبر جاء بصيغة الحصر، فالكفر سبب رئيس من أسباب اليأس من رحمة اللّه، فما أبعد المؤمن عن هذه الصفة، ولا يتصف بها إلا مرضى القلوب، لذلك عندما نهى اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة الكافرين أخبر أن بعض أصحاب أمراض القلوب يوالونهم خوفًا منهم، ويأسًا من رحمته تعالى، فقال ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة] فالمؤمن يرجو رحمة اللّه على كل حال، وفي كل مكان وزمان، ويحسن الظن باللّه، واللّه تعالى عند ظنه، كما قال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء)[3].

وهذا إبراهيم عليه السلام حين أتته ملائكة ربه تبشره بإسحاق عليه السلام، يسألهم عن كيفية هبة هذا الغلام بعد أن صار عجوزًا وانقطع حمل زوجه، فتخبره الملائكة أن هذا خبر صدق، لا ينبغي أن يرتاب فيه، ولا يجوز لأحد أن ييأس من رحمة اللّه تعالى فيخبرهم أنه ليس به يأس من رحمة اللّه ﴿قَالَ وَمَن

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/١٥٩.
(٢) المحرر الوجيز: ٣/٢٧٤.
(٣) أخرجه أحمد: ٣/٤٩١ رقم (١٦٠٥٩) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

﴿يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر]، فيدفع عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة اللّٰه «أي: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة»(١)، فإنه لا ييأس من رحمة اللّٰه تعالى إلا الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يدركون سعة رحمته سبحانه وتعالى ونفاذ قدرته.

وأخبر سبحانه وتعالى عن الكفار أنهم يائسون من رحمته، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت] والتعبير بالاسم الموصول يفيد عِلِّية ما في حيز الصلة، فكأن كفرهم بآيات اللّٰه وتكذيبهم لقاءه سبحانه وتعالى سبب يأسهم من رحمة اللّٰه تعالى، وسبب دخولهم العذاب الأليم، ويقوي هذا باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فـ«اسم الإشارة يفيد أن ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من أوصاف، أي: أنهم استحقوا اليأس من الرحمة، وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث»(٢)، ويأسهم هذا إما في الآخرة حين يتيقنون مصيرهم، ويتحققون منزلهم، ينقطع رجاؤهم لأي سبب يؤدي بهم إلى الرحمة، وإما في الدنيا، فلا ينجح فيهم وعظ ولا تذكير، ولا يؤثر فيهم كتاب اللّٰه تعالى.

فبالنظر في هذه الآيات وغيرها ندرك أن أسباب اليأس من رحمة اللّٰه تعالى ترجع إلى الكفر به سبحانه وتعالى والبعد عن منهجه، وضعف اليقين به تعالى، نسأله سبحانه وتعالى أن يزيدنا يقينًا، وأن يثبتنا على دينه القويم ومنهجه المستقيم.

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/٨٢.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٠/١٥٦.

المبحث الرابع
من وُصِف بالرحمة في القرآن الكريم

المطلب الأول
الكتب السماوية

بالنظر في القرآن الكريم نجد أن الكتب السماوية وُصِفَت بالرحمة، فالتوراة وصفت بالرحمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام]، والمراد بالكتاب هنا التوراة، أنزلت تامة إتمامًا للنعمة على موسى عليه السلام لإحسانه، وفيها بيان كل شيء يحتاجون إليه من أمور الدين، وفيها هدى من الضلالة، وإنزالها رحمة من الله جل جلاله عليهم، لكي يؤمنوا بالبعث، ويصدقوا بالثواب والعقاب[1]. فنزول التوراة رحمة من الله تعالى حيث أنزل عليهم ما به يهتدون، وعن طريقه يصلون للرحمة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف] أي: ألواح التوراة التي كان ألقاها قبل ذلك عندما غضب، حيث عبد قومُه العجلَ، فأخبر الله تعالى أن ألواح التوراة هذه تشتمل على هداية ورحمة، لمن خاف الله سبحانه وتعالى وأراد الانتفاع بها.

وقوله ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧]وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) ينظر: لباب التأويل: ٢/ ١٧٤.

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص] وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢]، فهذه الآيات وغيرها تخبر أن التوراة كتاب رحمة وهداية.

والقرآن الكريم وُصِفَ بالرحمة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف] وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] وقوله ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل] وقوله ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]، فهذا القرآن بما اشتمل عليه من الحجج الواضحة والدلالات الظاهرة يوصلكم إِلى أَعلى درجات الإِيمان، وهو كذلك رحمة شاملة[١]، لكل الخلق، ولكنه خص المؤمنين والمسلمين والمحسنين، لأنهم المنتفعون بهداياته الراجون للرحمة العظمى يوم القيامة.

وهكذا كل الكتب السماوية تشتمل على هدايات لمن أراد أن يهتدي بها، وهي رحمة لمن أراد أن يرحمه الله تعالى.

(١) ينظر: التفسير الوسيط: ٣/١٥٧٥.

المطلب الثاني
الرُّسُل

مما لا شك فيه أن الكتب السماوية أنزلت عن طريق الرسل عليهم السلام، وإذا كانت الكتب الإلهية رحمة فلا ريب أن من هو وسيلة لوصول هذه الكتب رحمة عظمى -أيضًا- وقد وصف نبينا ﷺ بأنه رحمة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] والمراد «توفيق الله جل جلاله نبيه محمدًا ﷺ للرفق والتلطف بهم، وإن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف، حتى فعل ذلك معهم»[١]، فالرحمةُ من الله، والمتصف بها هنا نبيه ﷺ «قال الحسن البصري: هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به»[٢].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء]، قال ابن عباس: «يريد للبر والفاجر؛ لأن كل نبي غير محمد ﷺ إذا كُذِّب أهلك الله من كذَّبه، ومحمد أُخر من كذّبه إلى موتٍ أو قيامةٍ، والذي صدقه عُجلت له الرحمة في الدنيا والآخرة»[٣]، قال ابن عطية: «ويحتمل الكلام أن يكون معناه: وما أرسلناك للعالمين إلا رحمة، أي: هو رحمة في نفسه، أخذ به من أخذ: وأعرض عنه من أعرض»[٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] فهو ﷺ رحمة للمؤمنين، حيث كان سببًا لهدايتهم ونجاتهم من النار، وهو يشفع لهم في الآخرة، و«خص المؤمنين وإن كان رحمة للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم»[٥].

(١) لباب التأويل: ١/٣١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٤٨.
(٣) التفسير البسيط: ١٥/٢٢٩.
(٤) المحرر الوجيز: ٤/١٠٤.
(٥) البحر المحيط: ٥/٦٤.

ونظير هذه الآيات قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ووصف عيسى عليه السلام بأنه رحمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم] وذلك أن السيدة مريم عليها السلام لما بشرتها الملائكة بأنها ستحمل بعيسى عليه السلام سألت عن كيفية الحمل به، وهي لم تتزوج ولم يقربها بشرٌ، فأخبرها جبريل عليه السلام أن الحمل به بأمر الله تعالى دون ذكرٍ، وهذا أمر هين في قدرة الله تعالى، ثم أخبرها أن الحمل به سيكون آية للناس كلهم على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، ثم أخبر أن هذا المولود سيكون رحمة من الله جل جلاله. قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده»[1]، فيعلم من ذلك أن مقام النبوة والرسالة رحمة من الله تعالى بالبشرية، فهي الطريق لاهتداء كثير من الناس، فالأنبياء كلهم رحمة من الله سبحانه وتعالى.

المطلب الثالث
المؤمنون

المؤمنون من أتباع جميع الأنبياء الأصل فيهم أنهم موصوفون بالرحمة، وإن تخلوا عن خلق الرحمة في أي وقت فإن ذلك خلاف الأصل، كما حدث من بني إسرائيل حين قست قلوبهم، فأصبحت أشد قسوة من الحجارة، أما المؤمن الحق فلا يتصور منه إلا الاتصاف بالرحمة المقتبسة من رحمة المنهج الذي معه، ورحمة النبي الذي يتبعه، الرحمة المستمدة من رحمة الإله الذي يعبده، وصف الله تعالى بهذه الرحمة المؤمنين من أتباع عيسى

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٠.

عليه السلام، فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] أي: وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه مودة ولينًا يجمعهم على الخير، ويدفع عنهم الشر، وتعطفًا ومحبة تجلب لهم المنافع، وتقيهم المضار[١].

والمؤمنين من أتباع محمد ﷺ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] يخبر الله تعالى برسالة نبينا ﷺ ثم يخبر عن أتباعه أنهم «﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يرحم أحدهم الآخر، قال ابن عباس: الرجل للرجل منهم كالولد لوالده، والعبد لسيده»[٢]، و«كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم. وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول ﷺ»[٣]، ولا نطيل بذكرها الآن، وإنما الذي يعنينا أن المؤمنين وصفوا بالرحمة في القرآن الكريم، وقد شبههم رسول الله ﷺ في رحمتهم بالجسد الواحد، فقال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٤].

المطلب الرابع
الغيث

وقد أُطلق على الغيث رحمة في القرآن الكريم، فهو رحمة من الله بخلقه، ومواطن وصفه بالرحمة كثيرة، منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ

(١) ينظر: التفسير الوسيط: ١٣٠٨/٩.
(٢) التفسير البسيط: ٣٢٦/٢٠.
(٣) التحرير والتنوير: ١٧٣/٢٦.
(٤) أخرجه مسلم ك/ البر والصلة ب/ تراحم المؤمنين وتعاطفهم: ١٩٩٩/٤ رقم (٢٥٨٦)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان] ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل:٦٣] «يعني: أمام المطر الذي هو رحمته، وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة»[1] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٤٦﴾ [الروم]، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى]، وقد سبق أن المراد بالرحمة في مثل هذه الآيات المطر، فهو مظهر من مظاهر رحمة الله وقدرته، لذلك سيقت هذه الآيات في سياق الاستدلال على قدرته تعالى وانفراده بالخلق والتكوين، فمما يذكرهم به رحمته بهم، ومن ذلك أنهم في جدبهم وقحطهم تتداركهم هذه الرحمة فينزل المطر، فيكون من آثاره أن يحيي الله الأرض الميتة، ويجري الأنهار، وينبت الزرع وتخرج الثمار، فيحيا الزرع والحيوان والإنسان، وتتحول البقعة التي نزل بها المطر إلى حياة تامة فيها جميع مظاهر الحياة.

المطلب الخامس
التشريعات الإلهية

مما لا شك فيه أن التشريعات الإلهية إنما هي رحمة من الله تعالى بعباده، حيث إنه سبحانه وتعالى وضع لهم منهجًا يسيرون عليه، منهجًا لا يصلح لهم ولا يُصلحهم سواه، حتى تشريعاته التي قد تبدو فيها شدة وقسوة، هي في حقيقة الأمر رحمة بهم لمن تأملها حق تأملها، وفهمها حق الفهم، يظهر ذلك جليًّا في آية القصاص، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ

(١) لباب التأويل: ٢/٢١٢.

﴿أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، فبعد أن ذكر القصاص يقول: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فهو وإن كان فيه شدة وقسوة على الجاني إلا أن فيه تخفيفًا ورحمة بالمجتمع كله، لذلك كان التعقيب الإلهي في الآية التالية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة]، إنه حياة للمجتمع كله ورحمة بالمجتمع كله أن يأخذ على يد الظالم الباغي، ليردعه حتى يرعوي عن غيه، وينتهي عن جرمه وتعديه على المجتمع، فضلا عما في تشريع القصاص من رحمة بالجاني أيضًا، "قال المفسرون: إن الله تعالى كتب على أهل التوراة أن يُقيدُوا، ولا يأخذوا الدية، ولا يعفوا؛ وعلى أهل الإنجيل أن يعفوا ولا يقيدوا ولا يأخذوا الدية؛ وخَيّر هذه الأمة بين القصاص والدية والعفو، فقال: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: التخيير بين هذه الأشياء"[(١)].

وإذا كان المولى جل جلاله ذكر أن تشريع القصاص تخفيف ورحمة، فقد ذكر في غيره أنه يسرٌ، كما ذكر في الحديث عن الصيام ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهل إرادة اليسر إلا رحمة من الله تعالى، وذكر في تشريع الجهاد أنه رفع عن هذه الأمة الحرج، فقال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وفي الوضوء يقول: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]، وهل رفع الحرج إلا مظهرًا من مظاهر رحمته تعالى، هذا فضلًا عما في بقية التشريعات من رحمة يدركها المنصف بأدنى تأمل.

(١) التفسير البسيط: ٣/ ٥٤٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد هذه الجولة التي حاولت فيها التأصيل لخلق الرحمة من القرآن الكريم، يطيب لي أن أسجل أهم النتائج، وهي:

- أن الرحمة خلق إسلامي أصيل، ورد التأكيد عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.
- أنها استعملت في القرآن بصيغ كثيرة، منها الفعل والاسم والمصدر، ونكرة ومعرفة.
- أنها وردت في القرآن على أوجه كثيرة، منها: الجنة، والإسلام، والنبوة، والقرآن، والمطر، والمغفرة...
- أن هناك ألفاظًا قريبة في المعنى من الرحمة، منها الرأفة، والنعمة، والمغفرة، والعفو، والرقة.
- أن الرحمة صفة من صفات الله تعالى، فهو الرحمن الرحيم، وهي من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ المخْلُوقِين.

- أن رحمة اللّه تعالى عامة لكل الخلق، وإن كان هناك أنواعًا منها تخص بعضًا دون بعض.
- لرحمة اللّه مظاهر كثيرة، منها، إرسال الرسل وإنزال الكتب، عدم مؤاخذة الناس بذنوبهم في الدنيا وعدم معاجلتهم بالعذاب، خلق الليل والنهار، الرزق، إنزال المطر، رفع الضر عنهم، وشمولهم بالنعم.
- أن موجبات رحمة اللّه تعالى كثيرة، منها؛ طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ، اتباع القرآن الكريم، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، الاستغفار، الإصلاح بين المؤمنين، وتقوى اللّه تعالى.
- أن اليأس من رحمة اللّه منهيٌّ عنه شرعًا، وأن له أسبابًا ترجع في مجملها إلى البعد عن منهج اللّه تعالى.
- أنه ورد وصف الرحمة في حق غير اللّه تعالى، ومن ذلك: الكتب السماوية، الرُّسُل، المؤمنون، الغيث، التشريعات الإلهية.

لذا فإني أوصي الباحثين والدعاة بأن يبرزوا هذا الخلق الرفيع من أخلاق الإسلام، ويؤكدوا عليه، ويبينوا أصالته في الدين الإسلامي، وأوصي المسلمين جميعًا أن يتحلوا بهذا الخلق الإسلامي، الذي طالما كان الاتصاف به من وسائل الدعوة إلى اللّه تعالى

وبعد، فهذه محاولة مني للتأصيل للرحمة من خلال آيات القرآن الكريم، فإن أكن قد وفقت فمن اللّه وحده، وله الحمد والمنة، وإن تكن الأخرى فمن نفسي، وأسأل اللّه تعالى أن يغفرها لي، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله أولًا وآخرًا، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث:

١. الإتقان في علوم القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المتوفى (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، المتوفى (٩٥١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣. الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، المتوفى (٣٢١هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٥. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، المتوفى (٧٥٤هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٦. البحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، المتوفى (١٢٢٤هـ) دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م- ١٤٢٣هـ.

٧. بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية، المتوفى (٧٥١هـ) تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٨. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، المتوفى (٨١١هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للإمام: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المتوفى (٨١٧هـ) تحقيق: عبدالعليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، المتوفى (١٣٩٣هـ) مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١١. تفسير ابن عرفة، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عرفة التونسي، المتوفى (٨٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

١٢. التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي، المتوفى (٤٦٨هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١.

١٣. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المتوفى (٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٤. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

١٥. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، المتوفى (٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٦. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، المتوفى (٩٥٢هـ) تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر- بيروت، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، المتوفى (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
١٩. الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي، المتوفى (٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠. الجامع الصحيح من حديث رسول الله ﷺ وسنّته وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، المتوفى (٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٢١. درج الدرر في تفسير الآي والسور، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ابن محمد الجرجاني، المتوفى (٤٧١هـ)، تحقيق: وَليد بِن أحمد بن صَالِح، وآخرين، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٢٢. دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، دار الكتب العلمية- لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٢٣. زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المتوفى (٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٢٤. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعروف بأبي زهرة، المتوفى (١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي.
٢٥. سنن الإمام أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى (٢٧٥هـ) دار الكتاب العربي- بيروت.

٢٦. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى (٣٩٣هـ)، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٢٧. صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، المتوفى (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٢٨. العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ.
٢٩. الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى (٥٣٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة- لبنان، ط٢.
٣٠. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، المتوفى (١٣٠٧هـ)، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصرية للطباعة والنّشر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٣١. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، المتوفى (٣٩٥هـ)، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، بقم المقدسة، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٢. كتاب العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى (١٧٥هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٣٣. الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المتوفى (٤٢٧هـ)، تحقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٣٤. كتاب الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية– للإمام: أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، المتوفى (١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة– بيروت، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٥. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، المعروف بالخازن، المتوفى (٧٤١هـ) تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٦. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٧. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المتوفى (٧٢٨ه)، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٨. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي السقا، دار نهضة مصر، ط١.

٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المتوفى (٥٤٦هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٤٠. المحيط في اللغة، الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المتوفى (٣٨٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب- بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٤١. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، المتوفى (٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٤٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المتوفى (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

٤٣. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المتوفى (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٤٤. مسند أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، المتوفى (٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٤٥. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى (٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٤٦. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى (٣٩٥هـ) تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٤٧. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، المتوفى (٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٨. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المتوفى (٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة- لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٤٩. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، المتوفى (٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.

٥٠. نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المتوفى (٩١١هـ) جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٥م.

٥١. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، المتوفى (٤٧٨هـ)، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

الرحمة في القرآن الكريم
دراسة تأصيلية موضوعية

إعداد:
د. محمد حامد محمد سعيد
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الإنسانية بولاية قدح ماليزيا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فإن القرآن الكريم كتاب الله سبحانه وتعالى، تعبدنا بتلاوته، وأعطانا الأجر والثواب على قراءته، وبعث به رسولنا ليخرجنا من الظلمات إلى النور، وأنزله إلينا لنتدبره ونتأمله، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

ومن هذا المنطلق -التدبر والتأمل- نعيش في رحاب المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام الذي ينظمه قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية جامعة الملك سعود -تغمده الله برحماته-.

وقد استخرت الله سبحانه وتعالى في الكتابة في المحور الأول من محاور المؤتمر، وعنوانه (تأصيل خلق الرحمة في الإسلام)، ليكون عنوان بحثي هو (الرحمة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية موضوعية).

ونعني بالدراسة التأصيلية الموضوعية أمرين:

أولهما: التأصيل القرآني للفظة الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم.

وثانيهما: التأصيل اللغوي للفظة الرحمة ومشتقاتها في ضوء المعاجم اللغوية.

وقد جاء البحث مشتملًا على أهداف البحث، ومشكلته وخطته ومنهجه.

أما الأهداف:

فهي كما يلي:

أولًا: دراسة هذا الخلق من منظور جديد، منظور التأصيل القرآني لألفاظه وكلماته.

ثانيًا: حاجة الأمة الإسلامية في الواقع المعاصر لمثل هذه الدراسة للاستفادة بها في الحياة العملية والعلمية، التي تدل على رحمة الإسلام من خلال كلماته وعباراته.

ثالثًا: إظهار أن الأخلاق بصفة عامة، والرحمة بصفة خاصة، لها دور أساسي وثابت في بناء أجيال الأمة الإسلامية، فما تفوق المسلمون على غيرهم إلا بحُسن أخلاقهم، واقتدائهم برسولهم الكريم ﷺ.

رابعًا: دفع الشبهات ورد الافتراءات الموجهة إلي الإسلام وأتباعه، بأنه دين يدعو إلى العنف والتطرف والإرهاب، فالبحث في هذا الجانب والتأصيل القرآني للرحمة رد دامغ وواضح على دفع تلك الدعوات التي تظهر بين الحين والآخر وتفنيدها.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في كثرة ألفاظ مادة الرحمة وتعدد مشتقاتها، التي قربت من ٣٠٠ لفظة، حيث جعلت نطاق البحث ضيقًا، ولا أتحدث إلا عن نماذج من الألفاظ وليس كلها، وهذا يجعل البحث من الصعوبة بمكان.

وأما الخطة:

فقد تضمنت مقدمة، وتمهيدًا، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة -وهي ما نحن بصددها- فتشمل: أهداف البحث، وخطته، ومنهجه.

وأما المبحث الأول: فعنوانه التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم، التي وردت بصيغة الفعل.

وأما المبحث الثاني: فعنوانه التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم، التي وردت بصيغة الاسم والمصدر.

وأما المبحث الثالث: فعنوانه التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم، التي وردت بصيغة أفعل التفضيل.

وأما المبحث الرابع: فعنوانه التأصيل اللغوي لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في ضوء المعاجم اللغوية.

ثم الخاتمة، وبها أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس المراجع، ثم الفهرس العام.

وأما المنهج:

فقد سرت فيه على النحو التالي:

أولًا: جمع كل الألفاظ المتعلقة بلفظة (الرحمة) ومشتقاتها، ودراستها دراسة تأصيلية موضوعية، مع مراعاة ذكر اسم السورة ورقم الآية القرآنية الكريمة.

ثانيًا: تناول ألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم من خلال المباحث الثلاثة الأولى.

ثالثًا: التأصيل اللغوي لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في ضوء المعاجم اللغوية، وذلك في المبحث الرابع.

رابعًا: تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من كتبها الصحيحة، مع ذكر الكتاب والباب، والجزء والصفحة، ورقم الحديث.

خامسًا: عزو الأقوال لقائليها.

سادسًا: معايشة الآيات القرآنية معايشة موضوعية من خلال أقوال علمائنا.

والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء الصراط.

تمهيد

إن القارئ للقرآن الكريم يرى أن خُلق الرحمة وأصل مادته (رحم) ذُكر في أغلب سوره وأكثر آياته ما يقرب من واحد وثلاثين موضعًا (٣١)، بعدد ألفاظ بلغت ثلاث مائة وتسع وثلاثين لفظة (٣٣٩)، وفي ذلك ما فيه من الدلالة الواضحة على أصالة المادة، وقوة ساقها، وصلابة فروعها.

وسوف نتناول -بعون الله تعالى- التأصيل الموضوعي للفظة الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم والمعاجم اللغوية من خلال المباحث الأربعة التالية:

المبحث الأول: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها، التي وردت بصيغة الفعل.

المبحث الثاني: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها، التي وردت بصيغة الاسم والمصدر.

المبحث الثالث: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها، التي وردت بصيغة أفعل التفضيل.

المبحث الرابع: التأصيل اللغوي لألفاظ الرحمة ومشتقاتها، في ضوء المعاجم اللغوية.

ونستعين الله سبحانه وتعالى في بيان ذلك وتوضيحه، من خلال المباحث التالية.

المبحث الأول
التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها التي وردت بصيغة الفعل

ونعني بذلك ورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها فعلًا ماضيًا أو مضارعًا أو فعل أمر، سواء جاءت بصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب، أو بصيغة الإفراد أو الجمع.

وهاك توضيح ذلك -بعون الله تعالى- فيما يلي

أما ورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها فعلًا ماضيًا: فقد جاءت بصيغة المتكلم والغائب، وبصيغة الإفراد والجمع، ونجلي ذلك فيما يلي:

لفظة ﴿رَّحِمَ﴾ ذُكرت بصيغة الماضي أربع مرات، استعملها سيدنا نوح في أثناء حواره مع ابنه مرة في رحاب سورة هود ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، ومرة ثانية استعملها ربنا ﷻ في أثناء الحديث عن الناس، وأنهم ما زالوا في اختلاف مستثنيًا من رحمهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٨-١١٩]، وتارة ثالثة في رحاب الحديث عن النفس الأمارة بالسوء، من خلال سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]، والموضع الرابع من خلال

سورة الدخان، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان] وفي هذا الموضع جاء الحديث عن الرحمة من خلال الاستثناء من أهوال يوم القيامة لمن يرحمهم الله ﷻ، فلا رحمة: "إلا من رحم الله بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذن الله العزيز الغالب في انتقامه من الكفار، فلا يُنصر من أراد تعذيبه الرحيم"(١).

ولفظة ﴿رَحِمۡتَهُۥ﴾، وذلك في سياق موضع واحد من خلال سورة غافر بالآية رقم ٩، التي يقول ربنا فيها: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر] حيث وردت الرحمة هنا في رحاب "جملة (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته)، أي: وكل من وقي السيئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله، أي نالته الرحمة كاملة، ففعل رحمته مراد به تعظيم مصدره"(٢).

ولفظة ﴿رَحِمَنَا﴾ الواردة في سورة الملك الآية ٢٨ ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾ وهذه اللفظة وردت مرة واحدة في أثناء حديث رسول الله ﷺ مع الكافرين، وبيان رحمة الله به وبأمته في النجاة من النار، فقوله تعالى: "﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ يعني: إن عذبنا الله أو رحمنا يعني: غفر لنا، ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: من ينجيهم ويغيثهم ﴿مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ يعني: إن النبي ﷺ قال لهم: نحن مؤمنون بالله، ونتقرب بعبادته إليه، لا نأمن عذابه على معصيته، فكيف تؤمنون مع كفركم به، من عذابه وعقوبته؟، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم؟ قل هو الرحمن آمنا به، يعني: قل هو الرحمن بفضله وبرحمته، إن شاء عذبنا، وإن شاء رحمنا"(٣).

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور وهبة الزحيلي ٢٥/٢٣٣.
(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، للطاهر بن عاشور ٢٤/٩٤.
(٣) بحر العلوم، للسمرقندي ٣/٤٥٦، ٤٥٧.

ولفظة ﴿رَحِمْنَاهُمْ﴾ حيث وردت مرة واحدة في سورة المؤمنون في آية رقم ٧٥ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾ ونلاحظ هنا أن الآية تتحدث عن رحمة الله سبحانه وتعالى بالعصاة والمذنبين، وكأنهم حتى بعد رحمة الله سبحانه وتعالى بهم ونجاتهم من غيهم وضلالهم، بعد أن يفيقوا نراهم يرجعون مرة ثانية إلى أصلهم الخبيث، وهو الضلال والغي، ويؤكد هذا المعنى صاحب الظلال، حينما يقول: "هذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس، القاسية قلوبهم، الغافلين عن الله، المكذبين بالآخرة، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستكانة والتضرع عند مس الضر، فهو الدليل على الرجوع إلى الله، والشعور بأنه الملجأ والملاذ، والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان، واستيقظ وتذكر، وكانت هذه الحساسية هي الحارس الواقي من الغفلة والزلل، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء"(١)، ويُدلل على الكلام السابق بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨] "قال الضحاك عن ابن عباس: "كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبدًا"(٢).

وفي سورة الأنعام يأتي الموضع الخامس، حيث وروده مرة واحدة في القرآن الكريم ﴿رَحِمَهُ﴾ والذي تمثله الآية رقم ١٦ بقوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾ ففي هذه الآية يبين الله تعالى: "أن النجاة من هول هذا اليوم غنيمة ليس بعدها غنيمة فقال: "مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ" أي: من يُصرف عنه عذاب هذا اليوم فإنه يكون ممن شملتهم رحمة الله ورعايته، وذلك

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢٤٧٦/٤.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ١٧١/١٣.

هو الفوز الذي ليس بعده فوز، والضمير الذي يعتبر نائب فاعل ليصرف، يعود على العذاب العظيم الذي سيحل بالمجرمين يوم القيامة"[١]. هذه هي المواضع الخمسة التي وردت فيها لفظة الرحمة، أو إحدى مشتقاتها بصيغة الفعل الماضي، والتأصيل القرآني لها.

وأما ورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها فعلًا مضارعًا: فقد جاءت بصيغة المتكلم والمخاطب والغائب، وبصيغة الإفراد والجمع، وبيان ذلك فيما يلي:

أول هذه الألفاظ لفظة ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾ حيث تُعد الموضع السادس من مشتقات الرحمة في القرآن الكريم، نراها في سورة الأعراف آية رقم ٢٣ ترد مرة واحدة على لسان آدم وزوجه من خلال قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف]، حيث جاءت هذه الآية على نسق طلب الدعاء من آدم وزوجته، وذلك بعد إقرارهما بالظلم لأنفسهما بعد الأكل من الشجرة، التي نهاهما الله عن الأكل منها، فنراهما يطلبان من الله سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة، وهذا دأب المذنب دائمًا سؤال الله سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة بعد الوقوع في الذنب. ومعنى الآية: "أي أضررناها بالمعصية "وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا" أي ما سلف "وَتَرْحَمْنا" أي بالتوبة وقبولها "لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ" أي: لنصيرن ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات. قال الضحاك بن مزاحم في قوله: «رَبَّنا ظَلَمْنا .... الآية» هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، ويقال: إن آدم عليه السلام سعِد بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلى التوبة، ولم يقنط من الرحمة، وشقي إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، ولم يتب، وقنط من الرحمة»[٢].

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٥/٤٩.
(٢) محاسن التأويل، للقاسمي ٥/٢٦.

وفي الموضع السابع نرى قوله تعالى ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ على لسان سيدنا نوح عليه السلام يرد مرة واحدة في القرآن، وذلك حين يسأل الله سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود:٤٧]، وفي تعليق لصاحب كتاب السراج المنير على هذه الآية نراه يقول: «﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ﴾ أي: من أن ﴿أَسۡـَٔلَكَ﴾ في شيء من الأشياء ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ تأدبًا بأدبك واتعاظًا بوعظك ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ أي: الآن ما فرط مني، وفي المستقبل ما يقع مني ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ أي: تستر زلاتي وتمحها وتكرمني ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: الغريقين في الخسارة، فإن قيل: هذا يدل على عصمة الأنبياء لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام؟ أجيب: بأنّ الزلة الصادرة من نوح إنما هي كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره؛ لأنّ قومه كانوا على ثلاثة أقسام: كافر يظهر كفره، ومؤمن يخفي إيمانه، ومنافق لا يعلم حاله في نفس الأمر، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلومًا، وأما أهل النفاق فبقي أمرهم مخفيًا، وكان ابن نوح منهم، وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون للأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فأخطأ في ذلك الاجتهاد، كما وقع لآدم عليه السلام في الأكل من الشجرة، فلم يصدر عنه إلا الخطأ في الاجتهاد، فلم تصدر منه معصية -وهذا مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة، حيث إنهم يرون أن الأنبياء معصومون من الكبائر فقط، وليسوا معصومين من الصغائر، وهذ ما ندين لله سبحانه وتعالى به- فلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى، وخشع له ودعاه، وسأله المغفرة والرحمة، لأنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»[1].

أما لفظة ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ فهي اللفظة الثامنة من مشتقات لفظة الرحمة،

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للخطيب الشربيني ٢/٦١.

حيث وردت في القرآن الكريم ثماني مرات في سبع سور مختلفة، فمن ذلك سورة آل عمران بآيتها رقم ١٣٢، وسورة الأنعام بآيتها رقم ١٥٥، وسورة الأعراف بآيتيها رقم ٦٣، ٢٠٤، وسورة النور بآيتها رقم ٥٦، وسورة النمل بآيتها رقم ٤٦، ثم سورة يس بآيتها رقم ٤٥، ثم مِسك الختام بسورة الحجرات بآية رقمها ١٠، وبنظرة تأملية في هذه المواضع نرى أنها جميعًا جاءت بعد ذكر عدة أخلاق طيبة؛ حيث وردت آية آل عمران بعد الحديث عن الطاعة، ثم آية الأنعام وذلك بعد الحديث عن التقوى، ثم الموضع الأول من سورة الأعراف نراه يرد بعد الحديث عن الإنذار والتقوى، وكذلك الموضع الثاني يرد بعد الحديث عن الاستماع والإنصات للقرآن الكريم، ثم موضع سورة النور نراه يأتي بعد الصلاة والزكاة والطاعة، وآية النمل بعد الحديث عن الاستغفار، وآخر المواضع يأتي بعد الإصلاح بين المتخاصمين في ضوء سورة الحجرات.

فهذه عدة أخلاق طيبة يتخلق بها المجتمع المسلم من طاعة، وتقوى، واستماع وإنصات للقرآن، واستغفار، وإصلاح للمتخاصمين فتلكم الأخلاق كلها نرى ثمرتها الحقيقية المرجوة هي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والجملة تعليلية، أي: لكي ترحموا، فالرحمة هنا متوقفة على فضل الله سبحانه وتعالى وإرادته وكرمه على عباده، حيث إن وجود هذه الأخلاق في النفوس يُعد أرضًا خصبة لنزول رحمات الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده.

والسر في ختم الآيات سالفة الذكر بالرحمة، وخاصة آية سورة الحجرات وضحه صاحب التحرير والتنوير حين قال: "وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها"[١].

(١) ٢٦/٢٤٥.

ومما ينبغي ملاحظته كذلك أن لفظة ترحمون في أغلب المواضع دائمًا ما يسبقها أمر إلهي كالأمر بالتقوى أو الأمر بالطاعة، أو الأمر بالإصلاح........ إلى غير ذلك، فنلحظ أن لعل موضوعة للترجي أو للإشفاق، واقتران الرجاء بالأمر يفيد أن المؤمن ينبغي دائمًا أن يكون بين الرجاء والخوف، يخضع لأوامر اللّه ويستجيب لها، ويحذر المخالفة فيتجنب المنهي عنه، وهو في الوقت نفسه يطمع في كرم اللّه، فيرجو الفلاح، ويرجو رحمة ربه.

وفي الموضع التاسع جاء السياق القرآني مرة واحدة من خلال لفظة ﴿وَيَرۡحَمُ﴾ في رحاب قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ في سورة العنكبوت٢١، وبنظرة تأملية في الآية المباركة نرى أنها جاءت بعد حديث اللّه ﷻ عن سيدنا إبراهيم وقومه ومن يعبدون إلهًا غير اللّه ﷻ، وبيان قدرة اللّه ﷻ في إيجادهم من عدم، ثم يلفت اللّه ﷻ الأنظار إلى أن عذابه ورحمته ﷻ لمن يشاء من عباده، وفي النهاية المرجع والمصير إليه وحده، ويلاحظ كذلك في هذه الآية أن اللّه ﷻ قدم العذاب على الرحمة هنا، وهي المسألة الأولى التي تحدث عنها الإمام الرازي، حيث قال ما نصه: " قدم التعذيب في الذكر على الرحمة، مع أن رحمته سابقة، كما قال ﷺ حاكيًا عنه "سبقت رحمتي غضبي"[(١)] فنقول: لأن السابق ذكر الكفار، فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد........ وذكر الرحمة وقع تبعًا لئلا يكون العذاب مذكورًا وحده، وهذا يحقق قوله: (سبقت رحمتي غضبي)، وذلك لأن اللّه حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يخصه في الذكر وحده، بل ذكر الرحمة معه»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري ك/ التوحيد، ب/ قول اللّه تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾٩/١٦٠، برقم (٧٥٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢٥/٤٢.

ونرى الموضع العاشر من مشتقات الرحمة، حيث وردت مرتين قط في القرآن الكريم في سورة واحدة بلفظ ﴿يَرۡحَمَكُمۡ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء]، والثانية في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ [الإسراء:٥٤]، ونلاحظ الفرق بين الموضعين: أن الأول يتحدث عن بنى إسرائيل، ورحمة الله بهم بعد انتقامه منهم فإن عادوا مرة ثانية للمعصية أعاد الله عليهم عذابه وعقوبته، أما الموضع الثاني فيتحدث عن معاملة المؤمنين بالرفق واللين مع المشركين وذلك أثناء مخاطباتهم ومحاوراتهم، فذلك ألين لقلوبهم واستمالتهم للإسلام... ومعنى الآية: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بمن يستحق منكم الهداية والتوفيق للإيمان ومن لا يستحق، فإن شاء رحمكم فأنقذكم من الضلالة، ووفقكم للطاعة والإنابة إليه، وإن شاء عذبكم، فلا يهديكم للإيمان، فتموتوا على شرككم..."[(١)].

ويستنبط هنا أن رحمة الله ﷻ ليست قاصرة على أمة معينة، وإنما كل أمة آمنت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا ورسولًا، فبفضل من الله ﷻ تنالها الرحمة من الرحيم الرحمن، ودليل ذلك أن بني إسرائيل لحظة ندمهم وتوبتهم تاب الله عليهم ورحمهم، وكذلك من رحمة الله ﷻ بالكافرين أن أمر المؤمنين بحُسن معاملتهم ومجادلتهم بالحسنى، وهذه هي أخلاق إسلامنا، التي نحن في أمس الحاجة إليها في واقعنا المعاصر.

وفي الموضع الحادي عشر نرى قوله ﴿يَرۡحَمۡنَا﴾ ذُكر مرة واحدة من خلال الآية رقم ١٤٩ من سورة الأعراف، التي يقول ربنا فيها: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور وهبة الزحيلي١٥/١٠٠.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف] وهذه الآية وردت على سبيل الإقرار بالخطأ والتقصير من بني إسرائيل، حينما عبدوا العجل، ورأوا أنهم قد ضلوا أنفسهم، وأضلوا غيرهم، ببُعدهم عن المنهج القويم، لعبادة الله وحده، فقالوا على سبيل الدعاء والندم والسؤال من الله ﷻ بطلب الرحمة والمغفرة منه ﷻ: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ والمعنى: لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته، ويتغمد بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين، الذين حبطت أعمالهم"[1].

وفي الموضع الثاني عشر الوارد مرة واحدة في القرآن الكريم ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾ الذي تمثله سورة التوبة بآيتها رقم ٧١، وفيها قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة] ونلاحظ في الآية أن: "الرحمة هنا عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب والعقاب في الآخرة، أتى بالسين التي تدل على الاستقبال: إن الله عزيز غالب على كل شيء، قادر عليه، حكيم واضع كلًّا موضعه"[2]، وعلة التعبير بالسين هنا أنها جاءت: «للمبالغة في إنجاز الوعد فالله عزيز لا يغالب، حكيم في أقواله وأفعاله»[3]. فأصحاب هذه الصفات هم من يستحقون الرحمة دون غيرهم من خلق الله ﷻ.

تلك سبعة مواضع لورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها بصيغة الفعل المضارع، وذلك حسب ورودها في الآيات القرآنية الكريمة، والتأصيل القرآني لها.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري ١٠/٤٤٩.
(٢) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان ٥/٤٦٠.
(٣) فتح القدير، للشوكاني ٢/٤٣٥.

وأما ورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها فعل أمر: فقد جاءت بصيغة المتكلم والغائب، وبصيغة الإفراد والجمع، وهاك بيان التأصيل القرآني لها فيما يلي:

ثم يأتي الموضع الثالث عشر ﴿وَٱرۡحَمۡ﴾ الوارد كذلك مرة واحدة في رحاب سورة المؤمنون بالآية الأخيرة منها ورقمها ١١٨ من خلال قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾، حيث ورد اللفظ هنا على سبيل الدعاء والطلب من الله سبحانه وتعالى بالمغفرة والرحمة، فهو سبحانه وتعالى خير من يرحم عباده، فلا راحم لهم غيره سبحانه وتعالى، "والظاهر أن طلب كل من المغفرة والرحمة على وجه العموم له ﷺ ولمتبعيه، وهو أيضًا أعم من طلب أصل الفعل والمداومة عليه فلا إشكال، وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه، وقد علّم ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول نحوه في صلاته، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: " قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"[(١)] "[(٢)].

لفظة ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ هي اللفظة الرابعة عشر، حيث وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، في ثلاث سور مختلفة، هي سورة البقرة بآيتها الأخيرة منها رقم ٢٨٦، وسورة الأعراف بآيتها رقم ١٥٥، وسورة المؤمنون بآيتها رقم ١٠٩، فهذه المواضع الثلاثة، وردت بصيغة الجمع على سبيل الدعاء بألفاظ متقاربة، ففي البقرة ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾، وفي الأعراف والمؤمنون بلفظ واحد وهو ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾ إلا أن تذييل الآيتين مختلف، ففي الأعراف ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾، وفي المؤمنون

(١) أخرجه البخاري ك/الآذان، ب/الدعاء قبل السلام ١/١٦٦، برقم (٨٣٤).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي ٩/٢٧٠.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، ويلاحظ في المواضع الثلاثة أنهم اشتركوا في لفظتين، هي لفظة المغفرة، ولفظة الرحمة، ثم زادت البقرة لفظة ثالثة، وهي لفظة العفو، ويعلق صاحب الفتاوى على هذه الآية بقوله: إنهم: "سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها مدار السعادة والفلاح، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قِبلهم ومسامحتهم به، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم، وإقباله عليهم، ورضاه عنهم، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه، وإعلاء كلمته، وقهر أعدائه، وشفاء صدورهم منهم، وإذهاب غيظ قلوبهم، وحزازات نفوسهم، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذى لا مولى لهم سواه، فهو ناصرهم، وهاديهم، وكافيهم، ومعينهم، ومجيب دعواتهم، ومعبودهم"[(١)].

ثم يأتي الموضع الخامس عشر ﴿ارْحَمْهُمَا﴾، حيث ورد مرة واحدة بين ثنايا الآيات القرآنية في سورة الإسراء بآيتها رقم ٢٤ في سياق قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، وفي تعليق على هذه الآية نرى أن الله ﷻ أمر: "عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن يرحم كل ولد والديه كما رحماه، ويترفق بهما كما رفقا به، إذ ولياه صغيرًا جاهلًا محتاجًا، فآثراه على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاه، وتعريا وكسواه، فلا يجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كان فيه من الصغر"[(٢)]. هذه هي الرحمة الحقيقية

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٤/١٤٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٠/٢٤٤(بتصرف).

التي يطلبها ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عباده تجاه الآباء والأمهات، ليتنا نلتزم بها في الأقوال والأفعال والسلوكيات، وذلك من خلال صيغة فعل الأمر الوارد ثلاث مرات بين ثنايا الآيات المباركة.

المبحث الثاني
التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها التي وردت بصيغة الاسم والمصدر

ونعني بذلك ورود لفظة الرحمة أو إحدى مشتقاتها اسمًا أو مصدرًا، سواء جاءت معرفة أو نكرة أو مضافة، أو جاءت بصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب، أو جاءت بصيغة الإفراد أو الجمع، وهاك توضيح ذلك -بعون اللّه تعالى- فيما يلي:

من خلال الموضع السادس عشر، الذى تمثله لفظة ﴿رَحْمَةٌ، وَرَحْمَةً، رَحْمَةٍ﴾ بالحركات الإعرابية الثلاثة: الضم والنصب والجر، وقد وردت في كثير من آيات القرآن الكريم، وفي أغلب سوره وآياته.

وبالتأمل فيها نرى أنها وردت مع الصلاة تارة، ومع التخفيف تارة ثانية، ومع الرجاء تارة ثالثة، ومع الدعاء تارة رابعة، ومع معية اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تارة خامسة، ومع المغفرة تارة سادسة، ومع لين الجانب تارة سابعة، ومع التفضل من اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده تارة ثامنة، ومع الهدى والبيان، ومع النجاة من الهلاك والدمار، ومع البشارة من اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجنات لعباده المؤمنين، ورحمة اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إرسال الرسول الكريم للأمة، ولفت الأنظار إلى عدم اليأس والقنوط من رحمة اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع الرأفة تُذكر الرحمة فهما قرينان لا يفترقان أبدًا... إلى غير ذلك من المواضع القرآنية التي تدلل

على أصالة اللفظة -الرحمة- التي هي محل حديثنا واشتمالها على كل مناحي الحياة.

إن العبد ينبغي عليه أن: "يحمد ربه على هذه النعم، التي أخذها برحمة اللّه سبحانه وتعالى في ربوبيته، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من الرحمة، فاللّه سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر، فهو الذي استدعاهم جميعًا إلى الوجود، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته، وليس بما يستحقون، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، وهذا من رحمته، والمطر ينزل على من يعبدون اللّه ومن يعبدون أوثانًا من دون اللّه، وهذا من رحمته، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا اللّه ومن لم يقلها وهذا من رحمته، وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية للّه، هي في الدنيا لخلقه جميعًا، وهذا من رحمته، فاللّه رب الجميع من أطاعه ومن عصاه، وهذا من رحمته، واللّه قابل للتوبة، وهذا من رحمته"[1]... إلى غير ذلك من النماذج الدالة على رحمة اللّه سبحانه وتعالى بكل مخلوقاته، التي دللت عليها الآيات القرآنية سالفة الذكر، والرحمة من اللّه صفة ثابتة له عز وجل، تليق بذاته تعالى، ومن الآدميين رقة وتعطف، حيث إن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فوضع في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان.

ثم يأتي الموضع السابع عشر التي تمثله لفظة ﴿رَحۡمَتِكَ﴾، حيث وردت ثلاث مرات في ثلاث سور مختلفة، حيث جاءت على سبيل طلب الدخول في الرحمة مرتين، وواحدة على سبيل طلب النجاة من القوم الكافرين، الأول منها في سورة الأعراف بآيتها ١٥١ وفيها يطلب سيدنا موسى من ربه سبحانه وتعالى له ولأخيه هارون عليهما السلام الدخول في رحمته سبحانه وتعالى، فهو أرحم بنا من أنفسنا

(١) خواطر الشعراوي، لمحمد متولي الشعراوي ١/ ٥٤.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف]، أما الآية الثانية فهي على سبيل طلب النجاة أيضًا لسيدنا موسى وقومه من فرعون وبطشه، وفيها يقول اللّه تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٦﴾، أما الآية الثالثة فهي على سبيل طلب الدخول في الرحمة من سيدنا سليمان عليه السلام، ففي سورة النمل رقم ١٩ يقول اللّه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومعنى الآية: "أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس: يريد مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين، فإن قيل: درجات الأنبياء أفضل من درجات الصالحين والأولياء، فما السبب في أنّ الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين، وقد تمنى يوسف عليه السلام بقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء]، أجيب: بأنّ الصالح الكامل هو الذي لا يعصي اللّه سبحانه وتعالى، ولا يفعل معصية، ولا يهم بمعصية، وهذه درجة عالية، ثم إنّ سليمان عليه السلام لما وصل إلى المنزل الذي قصده، تفقد أحوال جنوده، كما تقتضيه العناية بأمور الملك، وهذا أدعى لطلب الدخول في الصالحين"(١).

ويستفاد من هذه الآية: أنّ دخول الجنة برحمته وفضله سبحانه وتعالى لا باستحقاق العبد، فمهما عمل المسلم من طاعات، فهي لا تؤدي به إلى الجنة، وإنما دخول الجنة بفضل اللّه ومنّه على عبده، يؤكد هذا ما روي في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت؟ يا رسول اللّه قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللّه منه بفضل ورحمة»(٢).

(١) تفسير السراج المنير، للشربيني ٣/٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ك/ صفة القيامة والجنة والنار، ب/لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧٠، رقم (٢٨١٦).

ثم يأتي الموضع الثامن عشر، وتمثله لفظة ﴿رَحۡمَتِنَآ﴾، حيث وردت هذه اللفظة خمس مرات في ثلاث سور متتالية، ففي سورة يوسف بآية رقم ٥٦، وفيها قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ والمعنى: "بعطائنا في الدنيا من الملك والغني، وغيرهما من النعم"[(١)]، وفي سورة مريم مرتين بآية رقم ٥٠، ٥٣ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾، ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ وفي كلتا المرتين نرى أن الرحمة وردت في سياق الهبة من الله ﷻ على سيدنا إبراهيم وأبنائه إسحاق ويعقوب، ولذا جاء التعبير بالضمير "لهم"، الذى يفيد الجمع، وكذلك الهبة تتمثل في جعل لسانهم متحليًا بالصدق على الدوام والاستمرار، أما الهبة الثانية فجاءت من الله ﷻ لسيدنا موسى ﵇، متمثلة في أخيه هارون ﵇ فهارون كان هو الرحمة التي منّ الله ﷻ بها على موسى، ولذا جاء التعبير بالضمير "له" الذى يفيد الإفراد، ثم تأتي السورة الثالثة ألا وهي سورة الأنبياء، وفيها موضعان أيضًا: كلاهما بصيغة الدخول في الرحمة أحدهما مفرد أيضًا، والآخر جمع، المفرد يتحدث عن سيدنا لوط ﵇، ودخوله في رحمة الله فهو من الصالحين ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾، والثاني يتحدث عن جمع من الأنبياء يتفضل ربنا عليهم بإدخالهم في رحمته ﷻ من سيدنا نوح ثم داود ثم سليمان ثم أيوب ثم إسماعيل ثم إدريس فهم من الصابرين الداخلين في رحمة الله ﷻ حيث إنهم جميعًا من الصالحين ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾، وفي علة الوصف بالصلاح هنا أيضًا يعلق صاحب مفاتيح الغيب، فيقول: "أولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين، الذين صلحت أحوالهم عند الله ﷻ ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول، أما القرآن: فهو أن الله ﷻ مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء ﵈،

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي ٢/ ١١٩.

ومدح كذلك المؤمنين، حيث قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤]، وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات»[١]. وكأن سورة مريم اختصت بالهبة من الله ﷻ لعباده، وسورة الأنبياء اختصت بالدخول في الرحمة، ألا وهي الجنة -نسأل الله ﷻ أن نكون جميعًا من أهلها-.

وينتقل بنا الحديث إلى الموضع التاسع عشر، وتمثله لفظة ﴿رَحْمَتُهُ، رَحْمَتَهُ، رَحْمَتِه﴾ بالحركات الإعرابية الثلاث: الضم والنصب والجر، حيث وردت هذه الألفاظ الثلاث بين آيات القرآن الكريم وسوره، ما يقرب من خمس وعشرين مرة في تسع عشرة سورة على الترتيب: سورة البقرة مرتين، سورة آل عمران مرة واحدة، سورة النساء مرتين، سور الأعراف، والتوبة، ويونس، والإسراء، والكهف مرة واحدة، سورة النور أربع مرات، ثم سور الفرقان، والنمل، القصص، والروم، والزمر مرة واحدة، وسورة الشورى مرتين، وسور الجاثية والفتح، والحديد، والإنسان مرة واحدة[٢]. وبالمرور على هذه المواضع، نرى أن منها ما يتحدث عن بني إسرائيل، ومنها ما يتحدث عن المؤمنين، ومنها ما يتوجه فيه الحديث للرسول الكريم ﷺ... إلى غير ذلك، فعلى سبيل المثال نرى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾، يتحدث عن بني إسرائيل، وفيه: "تصريح بما حباهم به ﷻ من رأفة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأن، ﷻ يقول لهم:

(١) مفاتيح الغيب ٣٣٤/٨.
(٢) يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ١٤٧/١ وما بعدها، ويلاحظ هنا أنى أخذت نماذج فقط من التعليق على الآيات، وذلك منعًا للإطالة، وكذلك اقتصرت على أسماء السور ولم أذكر نص الآيات لعدم الإطالة في البحث.

إنكم بإعراضكم عن طاعتي، ونقضكم لعهدي، وإهمالكم العمل بكتابي، وعدم تأثركم بآياتي ونُذري، قد استحققتم غضبي وعذابي، ولكن حال دون حلولهما بكم فضلي الذي تدارككم، ورحمتي التي وسعتكم، ولطفي وإمهالي لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين في دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم، وبذلك تكون الآية قد ذكرت بني إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفي هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ"(١).

وفي آية ثانية نقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى]، ومعنى قوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: "بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب في كل مكان، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان، أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر وغيره، ﴿ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة، المستحق للحمد على ذلك لا غيره"(٢).

وفي آية ثالثة نرى الله تعالى يقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]، وبتعليق عليها يُرى أن من رحمته سبحانه وتعالى بكم: «أيها الخلق تعاقب الليل والنهار وتفاوتهما، فجعل لكم الليل ظلامًا للراحة والسكن والاستقراء وهدوء النفس من عناء العمل النهاري، وجعل لكم النهار مضيئًا، لتبصروا فيه منافعكم، وتحصلوا فيه معايشكم، وتتنقلوا فيه بالأسفار من بلد لآخر، ويمتلئ بالحركات والأشغال، بحثًا عن موارد الرزق، وقضاء الحاجات بأنس ومتعة، لا يتوافران في العمل الليلي، فتشكروا الله بأنواع العبادات

(١) التفسير الوسيط ١/١٦٠.
(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة ٥/٢١٧.

ليلًا ونهارًا، على ما أنعم به عليكم من هذه النعم، دون أن يشاركه فيها شريك؟»(1).

هذه نماذج ثلاثة للفظة ﴿رَحْمَتُه، رَحْمَتَه، رَحْمَتِه﴾ بحركاتها الثلاثة: الضم والنصب والجر، والكلمات الثلاث نراها قد ختمت بضمير الهاء العائد على رب العزة ﷻ، فلا راحم للناس غير الله ﷻ، حيث إنه ﷻ وحده مصدر الرحمة في الكون كله.

أما الموضع العشرون، فيأتي في سياق قوله تعالى: ﴿رَحْمَتِي﴾ بياء الإضافة، وذلك في موضعين لا ثالث لهما، أولهما في سورة الأعراف بآيتها رقم ١٥٦ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآية فيها «عموم، أي: لا نهاية لها، أي: من دخل فيها لم تعجز عنه، وقيل: وسعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها.

والثاني: في رحاب سورة العنكبوت بآية رقم ٢٣، وفيها قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يلاحظ في هذه الآية أن الله ﷻ حصر اليأس من رحمته في طائفة من خلقه، وهي طائفة الكافرين، دون غيرهم، وهذا ما حذر منه سيدنا يعقوب أبناءه، حينما أمرهم بالبحث عن يوسف وأخيه، نراه أوصاهم بعدم اليأس من رحمة الله ﷻ، حيث قال لهم: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وفي تعليق على شاهدنا نرى أن الله تعالى: «بيّن مصير الكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته وعلى ذاته وصفاته، وكفروا أيضًا بالأدلة الدالة على ﴿لِقَائِهِ﴾ بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء، ﴿أُولَٰئِكَ﴾

(١) التفسير المنير، للزحيلي ٢٠/١٥٤.

الذين كفروا بكل ذلك ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: انقطع أملهم في رحمتي إياهم انقطاعًا تامًّا، وعبر سبحانه وتعالى بالماضي لدلالة علمه التام على تحقق وقوع هذا اليأس، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين، وقت أن يقفوا بين يديه للحساب، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وأضاف سبحانه وتعالى الرحمة إليه للإشارة إلى سبقها لغضبه، وأنها تشمل عباده المؤمنين"(١).

﴿الرَّاحِمِينَ﴾ هي اللفظة الحادية والعشرون في سياق بحثنا، حيث وردت هذه اللفظة بين ثنايا الآيات القرآنية ست مرات في أربع سور قرآنية، ثلاث منها بلفظ واحد، وهو: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في ثلاث سور، وهي سورة الأعراف بآيتها رقم ١٥١، حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾، وسورة الأنبياء بآيتها رقم ٨٣، حيث قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾، وسورة المؤمنون بآيتيها رقم ١٠٩، ١١٨، حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾، ومرة واحدة قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾، وفي ثلاث آيات من هذه الآيات، نرى المغفرة تسبق الرحمة، كدأب القرآن الكريم دائمًا في عرضه للمغفرة والرحمة، إلا آية سورة الأنبياء نرى أن طلب الرحمة سبقه مس الضر، ومس الضر سبب من أسباب كونه سبحانه وتعالى أرحم الراحمين، حيث علق الإمام الرازي على ذلك بقوله أما: «الدليل على أنه سبحانه وتعالى: ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أمور: أحدها: أن كل من رحم غيره: فإما أن يرحمه طلبًا للثناء في الدنيا، أو الثواب في الآخرة، أو دفعًا للرقة الجنسية عن الطبع، وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه، أما الحق سبحانه وتعالى: فإنه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه، ومن غير أن يعود إليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال، فكان سبحانه وتعالى أرحم الراحمين. وثانيها: أن كل من يرحم غيره فلا يكون

(١) التفسير الوسيط، لطنطاوي ٢٦/١١.

ذلك إلا بمعونة رحمة الله ﷻ، لأن من أعطى غيره طعامًا أو ثوبًا أو دفع عنه بلاء، فلولا أنه ﷻ خلق المطعوم والملبوس والأدوية والأغذية، وإلا لما قدر أحد على إعطاء ذلك الشيء، ثم بعد وصول تلك العطية إليه، فلولا أنه ﷻ جعله سببًا للراحة لما حصل النفع بذلك، فإذا رحمة العباد مسبوقة وملحوقة برحمة الله ﷻ، فوجب أن يكون ﷻ هو أرحم الراحمين. وثالثها: أن الله ﷻ لو لم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والإرادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه، فكان الراحم هو الحق ﷻ، من حيث إنه هو الذي أنشأ تلك الداعية، فثبت أنه أرحم الراحمين»[1].

ثم مرتين بلفظ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في سورة يوسف بآيتيها رقمي٦٤، ٩٢، ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وهذان الموضعان نرى أنهما حدثا من نبيين كريمين من الأب ومن ابنه من يعقوب، حينما طلب إخوة يوسف أخاه بنيامين للذهاب معهم إلى مصر من أجل إحضار الطعام، فهو يذكرهم بخيانتهم بأخيهم يوسف، ولا يريد تكرار الحادثة مرة ثانية، فيجعل ابنه في معية الله ﷻ وحفظه، حيث يتولاه برحمته، والثانية من الابن وهو يوسف عليه السلام، وذلك حينما تعرف إخوته عليه، وطلبوا منه مسامحتهم بعد إقرارهم بذنبهم فقال لهم ما أخبرنا به القرآن: ﴿الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: "قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتي: لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم، فقد عفوت عما صدر منكم في حقي وفي حق أخي من أخطاء وآثام، وأرجو الله ﷻ أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب، وهو ﷻ أرحم الراحمين بعباده"[2]. والبداء بقوله: ﴿الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ

(١) مفاتيح الغيب، للرازي ٢٢/١٧٥، ١٧٦.
(٢) التفسير الوسيط، لطنطاوي ٧/٤١٣.

لَكُمْ﴾: «بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم»(١). وهنا نرى أن كلًّا من يعقوب ويوسف عليهما السلام عبرا بالضمير «هو» العائد على الله سبحانه وتعالى، فهو وحده من يتولى المغفرة والرحمة.

﴿الرَّحْمَنُ، الرَّحْمَنَ، الرَّحْمَنِ﴾ هي اللفظة الثانية والعشرون في سياق بحثنا، حيث وردت مرفوعة ومنصوبة ومجرورة، ما يقرب من سبع وخمسين مرة في القرآن الكريم(٢) في كثير من آياته وسوره، وأكثر هذه المواضع نراها في رحاب سورة مريم، حيث وردت تلك اللفظة ست عشرة مرة، ولعل السر في ذلك أن سورة مريم تتحدث عن سيدنا عيسى وأحوال حمله وولادته وقصة أمه مع قومه، ونسبتهم سيدنا عيسى لله سبحانه وتعالى، حيث جعلوه ابن الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فأراد الله سبحانه وتعالى أن تكون لفظة الرحمن أكثر ذكرًا في هذه السورة دون غيرها للدلالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، وعدم اتخاذه صاحبة ولا ولدًا، هذا أمر. أما الأمر الثاني فيكمن في رحمة الله سبحانه وتعالى بمريم وابنها في كونه، وُلد بغير أب، وعناية الله سبحانه وتعالى به وبأمه، فناسب ذلك ذكر لفظة الرحمن هنا أكثر من غيرها.

ويمكن لنا أن نلاحظ في الألفاظ الثلاثة أنها برغم وجودها في القرآن لم ترد بعدد واحد من ناحية الشكل القرآني، فنرى لفظة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ترد مرفوعة إحدى وعشرين مرة، ولفظة ﴿الرَّحْمَنَ﴾ ترد منصوبة ثلاث مرات، ولفظة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ترد مجرورة ثلاثًا وثلاثين مرة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أن لفظة الرحمن اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، مشتق من الرحمة، دال على كثرة الرحمة لعباده في الدنيا والآخرة، حيث إنها على وزن فعلان الدال على معنى المبالغة في الرحمة، وهو يطلق على صاحب الرحمة العامة الشاملة، التي شملت كل المخلوقات من إنسان، وحيوان،

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري ٢/٥٠٣.
(٢) هذا على رأي من قال: إن البسملة ليست آية من القرآن، إلا من سورة النمل، وفقط.

ومؤمن، وكافر، وصغير، وكبير... وغيرهم، وهو اسم خاص بالله ﷻ، ولا يُوصف به غيره، وهذا أحد الفروق بين لفظة الرحمن ولفظة الرحيم.

والرحمن كذلك: «الذي الرحمة وصفه، والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجىء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان: للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان، لمن ملئ بذلك؟ فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يُقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرًا كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات؛ فلذلك وسعت رحمته كل شيء»(١).

أما الموضع الثالث والعشرون، فيتمثل في لفظ ﴿**الرَّحِيمُ، الرَّحِيمِ**﴾ بالرفع والجر دون النصب، حيث وردت هذه اللفظة بين آيات وسور القرآن الكريم ما يقرب من خمس وتسعين مرة، بالرفع في تسع وثمانين موضعًا، وبالجر في ستة مواضع فقط، بألف ولام تارة وبدونها تارة أخرى بداية من سورة الفاتحة ونهاية بسورة المزمل بآيتها رقم ٢٠، وبنظرة تأملية موضوعية لورود تلك اللفظة في القرآن الكريم، نرى أنها كثيرًا ما تُذيل بها الآيات القرآنية في أغلب المواضع، ويلاحظ كذلك أن هذا التذييل قد تنوع مع لفظ الرحيم، فتارة نرى التذييل القرآني بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في ست آيات، وتارة يأتي التذييل على هذا النسق القرآني ﴿ٱلتَّوَّابُ

(١) تفسير القرآن الكريم، لابن قيم الجوزية ١/٣٦، ٣٧.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالألف واللام وبدون الألف واللام في سبع آيات أيضًا، وتارة ثالثة يأتي التذييل بهذا الشكل من خلال قوله تعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا التذييل هو الأكثر ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ورد في اثنين وأربعين موضعًا، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبع مرات، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سبع مرات أيضًا، ثم ننتقل إلى تذييل آخر، ألا وهو ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ نراه يُذكر تسع مرات بإضافة اللام لرءوف تارة، وحذفها تارة أخرى، ثم يأتي قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فنراه يُذكر في ثلاث عشرة آية، ﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾مرة واحدة، ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ مرة واحدة، ﴿رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ مرة واحدة.

ويلاحظ أن الرحيم وصف لله ﷻ وللرسول الكريم، أما الرحمن فوصف خاص بالله ﷻ، حيث "روى السُّدِّي عن أبي مالك عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾... الرحمن: المترحم على خلقه، الرحيم بعباده فيما ابتدأهم به من كرامته، ويروى عنه أيضًا أنّه قال: الرحمن الرحيم اسمان رقيقان: أحدهما أرق من الآخر، فالرحمن بمعنى المترحم والرقيق، والرحيم بمعنى المتعطف على خلقه بالرزق، وقيل في الجمع بينهما: إنَّ الرحمن أشد مبالغة، والرحيم أخص منه؛ فالرحمن لجميع الخلق، والرحيم للمؤمنين خاصة، قال محمد بن يزيد: هو تفضل بعد تفضل، وإنعام بعد إنعام، ووعد لا يخيب آمله"(١).

ونعيش الآن مع الموضع الرابع والعشرين والمتمثل في لفظ﴿رَحِيمًا﴾ حيث ورد هذا اللفظ في عشرين موضعًا في سور القرآن الكريم، بداية من سورة النساء بآيتها رقم١٦، وختامًا بسورة الفتح بآيتها رقم ١٤، ونلاحظ على هذه المواضع أن أغلبها ورد في سورة النساء، حيث ورد ١٠ مرات في السورة المباركة، ثم في سورة الأحزاب ٦مرات، وفي سورة الفرقان مرتين، وفي سورة الإسراء مرة واحدة، وفي سورة الفتح مرة واحدة، وبالتأمل في

(١) إعراب القرآن، للأصبهاني ١/٤.

هذه المواضع نرى أنها غالبًا ما تأتى بعد ذكر ذنب أو معصية أو إقرار بذنب، وإبداء توبة وندامة على ما مضى، فآية المحرمات مثلًا جاء ختامها بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣] «أي أن هذا الأمر ما دام قد سلف قبل أن يشرع الله، فهو سبحانه وتعالى من غفرانه ورحمته لم يؤاخذنا بالقانون الرجعي، فلا تجريم إلا بنص، ولا عقوبة إلا بتجريم، وما دام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن»[١]، حيث ورد هذا الختام بعد الحديث عن المحرمات من النساء على الرجال، وآية أخرى نراها جاءت على هذا النسق في نفس السورة رقم١١٠ وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾، إن المراد بالاستغفار هنا: «التوبة وطلب العفو من الله، عما مضى من الذنوب قبل التوبة، ومعنى ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يتحقق ذلك، فاستعير فعل يجد للتحقق، لأن فعل وجد حقيقته الظفر بالشيء ومشاهدته، فأطلق على تحقيق العفو والمغفرة على وجه الاستعارة، ومعنى ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ شديد الغفران وشديد الرحمة، وذلك كناية عن العموم والتعجيل، فيصير المعنى: يجد الله غافرًا له راحمًا له؛ لأنه عام المغفرة والرحمة، فلا يخرج منها أحد استغفره وتاب إليه، ولا يتخلف عنه شمول مغفرته ورحمته زمنًا، فكانت صيغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مع ﴿يَجِدِ﴾ دالة على القبول من كل تائب بفضل الله»[٢]، وفي سورة الأحزاب نرى نموذجًا ثالثًا دالًا على نفس المعنى، الذى نرمي إليه من خلال قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: «في الآخرة إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة، وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت»[٣]، فهذه النماذج وغيرها نرى أن الله سبحانه وتعالى حينما يأتي بالمغفرة والرحمة غالبًا ما يسبقها الذنب أو المعصية أو غيرهما...

﴿رُحَمَاءُ﴾ هي اللفظة الخامسة والعشرون في بحثنا وبنظرة سريعة نرى

(١) خواطر الشعراوي ٢١٠٩/٤.
(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، للطاهر بن عاشور ١٩٦/٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٥٩/١٤.

أنها ذُكرت في موضع واحد في سورة الفتح بالآية الأخيرة منها ورقمها ٢٩، ألا وهي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يعلق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله: «وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ﷺ صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع، والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة، وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة، وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبت الملامح والسمات التي يصورها التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة: أن إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء على الكفار، وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا، رحماء بينهم، وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها، قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله"[1] هذه هي حقيقة المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالله سبحانه وتعالى.

اللفظة السادسة والعشرون، ممثلة في قوله: ﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ حيث وردت مرة واحدة في سورة البلد بآيتها رقم ١٧، وفيها ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ والمعنى: «أَوصى ونَصح بعضهم بعضًا بالصبر على الطاعة، بالرحمة على الناس، أولئك الموصوفون بهذه الصفات، هم أصحاب الميمنة، وأصحاب طريق النجاة والسعادة»[2].

﴿الأرْحَامُ، الأرْحَامَ، الأرْحَامِ﴾ هي اللفظة السابعة والعشرون بالرفع

(١) في ظلال القرآن ٣٣٣٢/٦.
(٢) التفسير المنير، للزحيلي ٢٤٩/٣٠.

والنصب والجر، حيث ذُكرت هذه الكلمة تسع مرات في القرآن الكريم بألف ولام وبدون ألف ولام، ست منها تتحدث عن الرحم باعتباره العضو الخاص بالمرأة، وثلاث تتحدث عن صلة الأرحام باعتبارها قربة لله ﷻ، أولها: سورة النساء بآية رقم ١: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ثانيهما سورة الأنفال آية رقم ٧٥: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ثالثها سورة الأحزاب آية رقم ٦ ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾فهذه الآيات الثلاث فُهم من سياق حديثها: أن المقصود هنا هو صلة الرحم التي تعنى الإحسان إلى الأقربين والعطف عليهم، وإيصال ما أمكن من الخير إليهم، ودفع ما أمكن من الشر عنهم.

أما المواضع الست الباقية نراها تتحدث عن الرحم باعتبار الموضع، فيأتي في سورة آل عمران بآية رقم ٦، ثم سورة الأنعام بآيتيها رقمي ١٤٣، ١٤٤، ثم سورة الرعد بآية رقم ٨، ثم سورة الحج بآية رقم ٥، ثم سورة لقمان بآية رقم ٣٤، وفي تعليق على آية سورة لقمان نرى أنه: «قد تقرر أن الله ﷻ أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطلِع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة، من الأمور التي طُوي علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلًا عن غيرهما... ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤]، فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى؟ ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء،... ولما خصص هذه الأشياء عمم علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا، والسرائر، ومن حكمته التامة: أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي ١/٦٥٣(بتصرف).

أما اللفظة الثامنة والعشرون ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ نراها ترد مرتين: الأولى في سورة محمد بآية رقم ٢٢ من خلال قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾، والثانية في سورة الممتحنة بآية رقم٣: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾، وبدراسة لسياق الآية الأولى نفهم أنها تتحدث عن صلة الأرحام حيث إن الفساد في الأرض سبب من أسباب قطيعة الأرحام، حيث يعلق الإمام ابن كثير، فيقول: «قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله سبحانه وتعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال»[١]، أما الآية الثانية فتتحدث عن يوم القيامة وأهواله، وأنه لن ينفع أحد أحدًا، لا الأهل ولا المال، فيوم القيامة يوم الفصل والجزاء.

أما اللفظة التاسعة والعشرون فنراها تأتي في قوله ﴿أَرْحَامِهِنَّ﴾ في سورة البقرة بآية رقم ٢٢٨، حيث وردت هذه اللفظة مرة واحدة في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، حيث تبين أن من علامات إيمان المرأة عمومًا والمطلقة خصوصًا عدم كتمان وإخفاء الحيض أو الحمل، إن كان هناك حيض أو حمل، ويقصد من الآية « أنه لما دار أمر العدة على الحيض والأطهار ولا اطلاع إلا من جهة النساء، جعل القول قولها إذا ادعت انقضاء العدة أو عدمها، وجعلهن مؤتمنات على ذلك، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/٢٩٣.

خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ ﴾، وقال سليمان بن يسار: لم نؤمر أن نفتح النساء فننظر إلى فروجهن، ولكن وُكل ذلك إليهن إذ كن مؤتمنات، ومعنى النهي عن الكتمان النهي عن الإضرار بالزوج وإذهاب حقه»[١].

أما قوله تعالى ﴿رُحۡمٗا﴾ فهي اللفظة الثلاثون المتعلقة بمشتقات لفظة (الرحمة) حيث وردت مرة واحدة في القرآن في سورة الكهف بآيتها رقم ٨١، وفيها قوله تعالى: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ والمعنى: «أي يكون هذا البدل أقرب عطفًا ورحمة بأبويه، بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما»[٢] بهذه اللفظة ينتهي الحديث عن المبحث الثاني والذى عنونت له بعنوان التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها، التي وردت بصيغة الاسم والمصدر، ونلاحظ أن هذا المبحث احتوى على خمس عشرة لفظة من ألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم.

(١) الجامع لأحكام القرآن٣/١١٨.
(٢) مفاتيح الغيب٢١/٤٩٢.

المبحث الثالث
التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها التي وردت بصيغة أفعل التفضيل

وبحصرنا لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم لم نجد إلا لفظة ﴿أَرْحَمُ﴾ -قط- التي وردت بصيغة أفعل التفضيل، حيث إنها اللفظة الحادية والثلاثون لمشتقات لفظة الرحمة، وبتفحص وتدبر لسور القرآن الكريم، نرى أنها ذُكرت أربع مرات في ثلاث سور، الأولى منها في سورة الأعراف بآيتها ١٥١: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾، وفي سورة يوسف مرتين بآيتيها ٦٤، ٩٢ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ثم في سورة الأنبياء بآية رقم ٨٣: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾، ويمكن لنا أن نقف مع الآيات سالفة الذكر وقفة، حيث نرى أن اثنتين منها جاءت بلفظ واحد، وذلك على لسان سيدنا موسى وأخيه هارون، والثاني جاء على لسان سيدنا أيوب، فكلاهما عبرا بضمير المخاطب ﴿وَأَنتَ﴾، أما الآيتان التاليتان، فوردتا بلفظ واحد أيضًا على لسان سيدنا يعقوب وابنه يوسف، حيث عبرا بضمير الغائب ﴿وَهُوَ﴾، فموسى وهارون وأيوب عليهم السلام طلبوا من الله سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة، وكشف الضر مباشرة، والتجأوا

إليه ﷻ بالدعاء، فعبروا بضمير الغائب، فلا وساطة بينهم وبين الله ﷻ في الدعاء، أما يعقوب ويوسف عليهما السلام فكان الحوار بين يعقوب وأبنائه تارة، وبين يوسف وإخوته تارة أخرى فعبرا بضمير الغائب ﴿وَهُوَ﴾، فهما يريدا أن يلفتا النظر إلى مدى حفظ ورعاية الله ﷻ ومغفرته ورحمته بمن أساء وعصى، وذلك بعد توبته وندمه، فهما لا يتحدثان إلى الله ﷻ مباشرة، وإنما حديثهما موجه إلى الأبناء، والتعبير بضمير الغائب هنا يُوجه على أنه ﷻ غائب عن الإدراك الحسي، الحاضر بعلمه وإرادته وقدرته، مشاهد بآلائه ونعمه ﷻ، وفي تعليق على دعاء موسى نرى أنه: "طلب المغفرة له أولاً ولأخيه ثانيًا، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه قد ندم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم، وتغيير ما وقع منهم ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾، التي وسعت كل شيء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فيه ترغيب في الدعاء، لأن من هو أرحم الراحمين، تؤمل منه الرحمة، وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح مطلبه"[1]. فلفظة ﴿أَرْحَمُ﴾ وردت بصيغة أفعل التفضيل أربع مرات في القرآن الكريم، حيث إنها اللفظة الوحيدة الواردة بهذه الصيغة.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان ٥/٢٥.

المبحث الرابع
التأصيل اللغوي لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في ضوء المعاجم اللغوية

إن لفظة الرحمة من الألفاظ التي احتوت عليها كل المعاجم اللغوية، فهي لفظة أصيلة في القرآن الكريم، أصيلة في لغتنا العربية، لم يخل منها معجم من المعاجم اللغوية أبدًا.

فنراها تأتي بصيغة الماضي (رحم)، (رحمته)، (رحمنا)، (رحمناهم)، (رحمه) تارة بالإفراد وتارة أخرى بالجمع، وتفيد هنا الدعاء.

وترد كذلك بصيغة المضارع (ترحمنا)، (ترحمني)، (يرحم)، (يرحمكم)، (يرحمنا)، (سيرحمهم)، (ترحمون) وهذه الألفاظ فيها الدلالة على صيغة الاستقبال، الذى يعبر عنه الفعل المضارع والسين، وفيها أيضًا التعبير بالإفراد الدال عليه ياء الإضافة، وأيضًا التعبير بالجمع من خلال كاف الخطاب.... إلخ.

وترد ثالثًا بصيغة فعل الأمر (ارحم)، (ارحمنا)، (ارحمهما)، وهذا الأمر حينما يرد فهو طلب من الأدنى للأعلى، فيراد به الدعاء أو الرجاء أو المسألة[1]، وهذا من العبد لربه سبحانه وتعالى، حيث ورد هذا الأمر من خلال المفرد، وكذلك من خلال الجمع للمخاطب.

(١) يراجع: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي ٣/ ٢٨٠

وترد كذلك لفظة (رحمة) معرفة تارة بألف ولام، وتارة أخرى بدون ألف ولام باعتبار المصدر، ونرى معناها الخير والنعمة ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ [يونس:٢١]، ومعناها أيضا الرزق[١] ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ [هود:٩]، وقوله كذلك ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء]، وتارة رابعة يأتي اللفظ مشتركًا، وسياق الجملة هو الذى يحدد المعنى المراد مثل لفظة (الرحم)، فهي من الألفاظ المشتركة، حيث إنها: «موضع تكوين الجنين ووعاؤه في البطن، والقرابة أو أسبابها (يذكر ويؤنث) (ج) أرحام، وذوو الأرحام الأقارب، الذين ليسوا من العصبة، ولا من ذوي الفروض: كبنات الإخوة وبنات الأعمام»[٢]، ونرى كذلك أيضًا لفظة من مشتقات (رحم) وتكون خاصة بالنساء وحدهن، حيث إن الضمير فيها عائد على النساء، وهو ما يفهم من سياق الحديث (أرحامهن).

وبنظرة لغوية إلى الفرق بين لفظ (الرحمن) ولفظ (الرحيم)، نرى أن الرحمن جاءت على وزن فعلان، والرحيم جاءت على وزن فعيل.

حيث إن: «صيغة فعلان تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة فعيل تفيد الثبوت، فجمع الله سبحانه وتعالى لذاته هذين الوصفين، إذ لو اقتصر على رحمن لظن ظان أن هذه صفة طارئة، قد تزول كعطشان وريان، ولو اقتصر على رحيم، لظن أن هذه صفة ثابتة، ولكن ليس معناه استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها، وقد تمر على الرحيم أوقات لا يرحم فيها، والله سبحانه وتعالى متصف بأوصاف الكمال، فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة، وأن رحمته مستمرة

(١) لسان العرب، لابن منظور ١٢/ ٢٣٠.
(٢) لسان العرب، لابن منظور ١٢/ ٢٣٠، تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي٣٢/ ٢٣٠، المعجم الوسيط، تأليف/ مجموعة من الباحثين١/ ٣٣٥.

ومتجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به الوهم بأن رحمة الله ﷻ تعرض ثم تنقطع، أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه ﷻ، فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه»[1].

هذه أهم الألفاظ المتعلقة بلفظة الرحمة ومشتقاتها ودلالتها اللغوية، التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على الجذور الثابتة لموضوع بحثنا، ومدى أصالته ومتانته في المعاجم اللغوية.

(١) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، للدكتور/ محمد محمد داود ص٤٤٤.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الرحمة المهداة، والسراج المنير الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،،،

فبعد معايشة لمدة من الزمن ليست بالقصيرة مع موضوع بحثنا «الرحمة في القرآن الكريم دراسة تأصيلية موضوعية» يمكن لنا أن نستنبط بعض ثمار هذه الدراسة، وتمثلها النتائج التالية:

أولًا: اشتمال القرآن الكريم على كل ما تحتاج إليه البشرية من أخلاق وعبادات ومعاملات، تسمو بالجانب الروحي داخل الإنسان هو في أمس الحاجة إليها.

ثانيًا: مدى أصالة لفظة الرحمة وكل مشتقاتها المتعلقة بها، سواء كان هذا في القرآن الكريم، أو في المعاجم اللغوية، فهي أصل أصيل لا خلاف في ذلك.

ثالثًا: كثرة المعاني الدالة عليها لفظة الرحمة ومشتقاتها، حيث تنوعت الكلمات وتعددت المعاني والعبارات مع أن الأصل واحد غير مكرر (رحم)، وهذا يُعد من إعجاز القرآن الكريم في استعماله للفظ القرآني الواحد بطرق شتى ومعاني متعددة.

رابعًا: ورود لفظة الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم خمس مرات بصيغة الماضي، وبصيغة المضارع سبع مرات، وبصيغة الأمر ثلاث مرات، وبصيغة الاسم والمصدر خمس عشرة مرة، وبصيغة أفعل التفضيل مرة واحدة فقط.

أما عن التوصيات فتتمثل فيما يلي:

أولًا: يوصى الباحث الجامعات عمومًا بأن تحذو حذو جامعة الملك سعود في عقد مثل هذه المؤتمرات، فهي سنة حسنة وفرصة طيبة للقاء العلماء والمفكرين والمثقفين، وفيها دلالة على مدى ترابط الأمة العربية الإسلامية وقوة مركزها.

ثانيًا: يوصي الباحث الجامعة خصوصًا أن تتبنى في المؤتمرات القادمة ولو على هامش المؤتمر تدارس -إن لم يكن مؤتمرًا مستقلًا- سلسلة الجانب الأخلاقي في الدين الإسلامي، فهذه المؤتمرات إحدى الوسائل الدعوية لبيان وتوضيح وأصالة أخلاقنا الإسلامية، التي أصبحنا في حاجة ملحة لها كحاجتنا للطعام والشراب، فمثلًا هذا العام الرحمة، يليه مثلًا الصبر، يليه مثلًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.... وهكذا.

ثالثًا: يوصي الباحث أبناء الإسلام بأن يترحموا فيما بينهم قولًا وسلوكًا وفعلًا، وذلك لكون الرحمة هي الأساس الذى أرسل الله سبحانه وتعالى الرسول من أجلها، حيث لخص الله سبحانه وتعالى رسالة رسولنا الكريم في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

رابعًا: دراسة الأخلاق الإسلامية من منظور جديد منظور التأصيل القرآني للفظة ومشتقاتها في سياق ورودها في الآيات والسور، وهذا المنظور قلما تجد من يهتم به في المؤتمرات والحوارات

العلمية، حيث إن القرآن الكريم دستور حياتنا، وعلى منهجه تسير أوطاننا.

خامسًا: إنشاء لجنة من جامعة الملك سعود تعكف على طبع ونشر سلسلة الأخلاق، لتكون زادًا للأمة الإسلامية عمومًا - والدعاة إلى الله خصوصًا- تستضيء بنورها، وتسير في ضيائها، فلا شك أن الماضي فيه أعظم الإفادة للمستقبل، وإلا لما قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف-١١١].

هذه بعض النتائج والتوصيات، التي منّ الله ﷻ بها عليّ؛ فإن كنت قد وُفقت فهذا من فضل الله علي وعلى الناس، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان، وأسأل الله أن يرحمنا برحمته، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للإمام/ أبي السعود العمادي محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون).

٢. إعراب القرآن، للإمام/إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني (ت: ٥٣٥هـ)، تقديم وتوثيق: د/فائزة بنت عمر المؤيد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام/محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبدالله المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، نشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٤. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام/محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبدالله المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٥. بحر العلوم، للإمام/أبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)، تحقيق: د/محمود مطرجي، نشر دار الفكر، بيروت، (بدون).

٦. البحر المحيط في أصول الفقه، للإمام/ أبي عبدالله بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، نشر: دار الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٧. البحر المحيط في التفسير للإمام/أبي حيان محمد بن يوسف أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٨. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للإمام/أبي العباس أحمد ابن المهدي بن عجيبة (ت: ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبدالله القرشي رسلان، نشر: د/حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.
٩. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، للإمام/محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، نشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
١٠. تفسير القرآن العظيم، للإمام/أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.
١١. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، نشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.
١٢. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للإمام/محمد سيد طنطاوي، نشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة: الأولى (بدون).
١٣. جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام/محمد بن جرير أبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٤. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للإمام/ محمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري، تحقيق/محمد زهير ابن ناصر الناصر، نشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
١٥. الجامع لأحكام القرآن للإمام/أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، نشر: دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٦. خواطر الشعراوي، للإمام/محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، نشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام/ شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبدالباري عطية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١٨. الزاهر في معاني كلمات الناس، للإمام/أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٩. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للإمام/شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، نشر: مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٢٠. فتح البيان في مقاصد القرآن، للإمام/أبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري (ت: ١٣٠٧هـ)، تقديم/عبدالله بن إبراهيم الأنصَاري، نشر: المكتبة العصريَّة، صَيدَا، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢١. فتح القدير، للإمام/محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، نشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام/أبي القاسم أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٢٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للإمام/أحمد بن محمد الثعلبي، (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: محمد بن عاشور، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٢٤. في ظلال القرآن، للإمام/سيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ)، نشر: دار الشروق، القاهرة، الطبعة: السابعة عشرة، ١٤١٢هـ.

٢٥. مجموع الفتاوى للإمام/تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: أنور الباز عامر الجزار، نشر دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٦. محاسن التأويل، للإمام/محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام/ أبي البركات عبدالله بن حافظ الدين النسفي (ت: ٧١٠هـ) المعروف بتفسير النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، نشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٨. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف بصحيح مسلم، للإمام/مسلم ابن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩. معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، د/ محمد محمد داود، نشر دار غريب للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٣٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للأستاذ/محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي دمشق.

٣١. المعجم الوسيط، تأليف/ إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار، تحقيق/ مجمع اللغة العربية، نشر: دار الدعوة.

٣٢. مفاتيح الغيب، للإمام/ أبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

إستراتيجية الإقناع
في آيات الرحمة المبدوءة بـ (قُلْ)
مقاربة لغوية تداولية

إعداد:
أ. م. د. عائشة خضر أحمد هزاع
قسم اللغة العربية بكلية التربية للبنات
جامعة الموصل – العراق

المقدمة

ليس خافيًا أنه ليس بوسع أي باحث الإلمام بكل ما ورد في القرآن الكريم عن الرحمة، ولاسيما أن سياقاتها تنوعت بتنوع المواقف والموضوعات في القرآن، من هنا حرصت الباحثة على تناول جانبًا من هذه الموضوعات وتحديدًا تلك التي اقترنت بالفعل (قُلْ)، والهدف من اختيار هذه السياقات لما في فعل الأمر من قوة إنجازية أولًا، وظاهرة خطاب الله لرسوله الكريم ﷺ بالفعل (قُلْ) التي نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ثانيًا، وسنحاول أن نتبين الأغراض والمقاصد من اقتران آيات الرحمة بهذا الفعل.

مشكلة البحث

لكل خطاب إستراتيجية مناسبة يعمد إليها المرسل في خطابه، لتعبر عن قصده وتحقق هدفه، ولقد تميز القرآن الكريم بإعجازه اللغوي وبأنساقه التركيبية التي انفرد بها، ومن هنا تولدت مشكلة البحث في محاولة الكشف عن الدلالات والمقاصد من اقتران الفعل (قُلْ) بسياقات الكلام عن الرحمة التي وجدناها متنوعة، وسنحاول الكشف عما بوسعنا كشفه من دلالات ومقاصد من خلال البنى التركيبية لهذه الآيات، والموضوعات التي أُريد التنبيه عليها من خلال هذه الصياغة، وأوجه العلاقة التي

جمعت الفعل (قُلْ) بما يليه من خطاب، وغير خافٍ ما في هذا الفعل من قوة إنجازية تتحقق بمجرد النطق به، وتوظيف هذا الفعل يلمح إلى أهمية ما يليه من خطاب، ولاسيما أن اللّٰه هو الآمر، والرسول ﷺ هو المأمور.

منهج البحث:

عمدت الباحثة إلى توظيف منهج التحليل اللغوي والتداولي.

خطة البحث:

توزعت خطة البحث بين تمهيد ومبحثين، فعمدنا في التمهيد إلى بيان مفهوم إستراتيجية الإقناع وأبعادها، ووظائف الفعل (قُلْ) اللغوية والتداولية، فضلًا عن تأصيل لمفهوم الرحمة في الحقل اللغوي والاصطلاحي. وفقًا لما تتضمنه إستراتيجية من آليات جاء تقسيم البحث على مبحثين. تخصص المبحث الأول بالبعد الحجاجي لاستعمال الأدوات اللغوية في آيات الرحمة. وتصدى المبحث الثاني للبعد الحجاجي لاستعمال العلاقات شبه المنطقية (السلم الحجاجي) في آيات الرحمة. هذا وخلص البحث إلى خاتمة لُخصت فيها أهم النتائج. ومن اللّٰه التوفيق.

إستراتيجية الإقناع: المفهوم والأبعاد

تستعمل اللغة بكيفيات منظمة ومتناسقة تتناسب مع مقتضيات السياق، وهنا تبرز سمة التخطيط عبر تَبَنِي إستراتيجية معينة للوصول بهذه الكيفيات اللغوية إلى تحقيق أغراضها ومقاصدها.

ومصطلح (الإستراتيجية) ذو مرجعية حربية، إذ يكثر تداوله بالعلوم الحربية، فدخول المعركة لابد من أن يسبقه تخطيط، وأن نستعين بإستراتيجية محكمة لبلوغ الهدف، وذلك بطرائق وأساليب يتم وفقها إنجاز أقوال في

سياق ونسق محكمين بقواعد الخطاب(١)، فالإستراتيجية خطة في المقام الأول للوصول إلى الغرض المنشود، وهي خطة ذات بعدين: أولهما: البعد التخطيطي، وهذا البعد يتحقق في المستوى الذهني. وثانيهما: البعد المادي الذي يجسّد الإستراتيجية لتتبلور فيه فعلًا على أرض الواقع، وتمثله اللغة(٢).

وإستراتيجية الإقناع تنضوي تحت إستراتيجيات الخطاب، وتعني الأخيرة أن الخطاب المنجز يكون خطابًا مخططًا له بصفة مستمرة، إذ يعمد المرسل في خطابه إلى توظيف إستراتيجية مناسبة تعبر عن مقصده وتحقق هدفه(٣). وهي إستراتيجية تداولية، تكتسب اسمها من هدف الخطاب، وينبني فعل الإقناع وتوجيهه دومًا على افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصًا المرسل إليه، وتستعمل هذه الإستراتيجية من أجل تحقيق أهداف المرسل. وهناك عدة مسوغات ترجح استعمال إستراتيجية الإقناع من أهمها(٤):

- أن تأثيرها التداولي في المرسل إليه أقوى ونتائجها أثبت وديمومتها أبقى، لأنها تنبع من حصول الإقناع عند المرسل إليه غالبًا.
- فضلًا عمَّا تحققه من نتائج تربوية، إذ تستعمل هذه الإستراتيجية في الدعوة، وهذا ما نجده ماثلًا في دعوة الرسول ﷺ سواء في القرآن أو في السنة النبوية.
- الأخذ بتنامي الخطاب بين طرفيه (المرسل والمرسل إليه) عن طريق استعمال الحجاج، فالحجاج شرط في ذلك، لأن من شروط التداول

(١) ينظر: إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية، رسالة تقدمت بها صفية حمادو إلى جامعة مولود معمري-تيزي وزو/ الجزائر- كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية لنيل شهادة الماجستير: ٨٠
(٢) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري: ٥٣.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٦.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٤٤-٤٤٧.

شرط الإقناعية، فالمرسل عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته، فإن مطالبته لا تكتسي صفة الإكراه، ولا تندرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلًا استدلالية متنوعة تجر الغير إلى الاقتناع برأي المحاور.

وللوصول إلى مستويات إقناعية في أي خطاب لابد من آليات نستعين بها لتحقيق هذه الغاية، ويعد الحجاج الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع، وللحجاج تعاريف كثيرة، بيد أن أكثرها شمولًا التعريف الذي وضعه بيرلمان وتيكيتاه، إذ يجمع بين شكل الحجاج والغاية منه، إذ يريان أن "إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حِدّة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو بالإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل باللحظة الملائمة".

والملاحظ أن هذا التعريف يولي الإقناع مكانته بأن جعل منه لُبَّ العملية الحجاجية، كما اعتبره أثرًا مستقبليًّا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب، لينتج عنه القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف ما سواء بالإقدام أو بالإحجام، وبهذا فدور الحجاج يقف عند تحقيق الإقناع. وهذا الحد هو ما يمنحه صلاحية لاستعماله آلية في السياقات المتنوعة مثل الدعوة إلى اللّٰه، وطلب الحقوق، والإقلاع عن المخدرات، وما إلى ذلك[(١)].

إن اللغة بوصفها عنصرًا تواصليًّا فعالًا تعد الوسيلة المثلى لتجسيد الفعاليات الحجاجية، بأساليب تخضع للمقتضيات السياقية، وهذه (الفعالية الحجاجية، باعتبارها فعالية خطابية لا تظهر إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية، فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكارية باعتبارها متطلبات

(١) ينظر: إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية،: ٤٥٦-٤٥٧.

جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية، هكذا تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوي الحجج وتزيد من فعاليتها، أي تعمل لمصلحة التأثير والإقناع)[1]. ولقد حرص البيان القرآني في خطابه لمتلقيه على تعزيز دعوة الرسول ﷺ بالحجج والبراهين التي طالما دفعت بهم إلى التسليم والإذعان والتصديق والاقتناع بصدق دعوته عليه الصلاة السلام، بل وتبنيها بدخولهم في الإسلام.

قُلْ: وظائفها اللغوية والتداولية

بادئ ذي بدء إن هذا الفعل أخذ حيزًا لافتًا للانتباه في الاستعمال القرآني، نظرًا لكثرة وروده، وهو خطاب موجه إلى الرسول ﷺ، وهنا تتزاحم في الذهن تساؤلات عن الأغراض والمقاصد، التي تستدعي توظيف هذه المادة المعجمية، وبهذه الصياغة النحوية واستحضارها في سياقات دون غيرها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرسول ﷺ مكلف بقول كل آية تُوحى إليه، فلماذا يُستحضر الفعل (قُلْ) في آيات ولا نجده في آيات أخرى؟

وللشيخ محمد متولي الشعراوي وقفة عند هذا الفعل وبواعث توظيفه والتبليغ بذكره على لسان الرسول ﷺ، وذلك حين يقول: «ولنا أن نعرف أن كل «قل» إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول ﷺ عن ربه، بلاغ للأمر وللمأمور به، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول ﷺ ذلك لكان قد أدى «المأمور به» ولم يؤد الأمر بتمامه. لماذا؟ لأن الأمر في «قل».. والمأمور به ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وكأن الرسول ﷺ في كل بلاغ عن الله بدأ بـ«قل» إنما يبلغ «الأمر» ويبلغ «المأمور به» مما يدل على أنه مبلغ عن الله في كل ما بلغه من

(١) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، عالم الفكر، العدد٢، المجلد ٤٠-٢٠١١: ٦٩.

الله. إن الذين يقولون: يجب أن تحذف «قل» من القرآن، وبدلًا من أن نقول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص] فلننطقها: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. لهؤلاء نقول: إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى «المأمور به» ولم يؤد «الأمر»»(١).

ولعل في استعمال هذا الفعل تبليغ مزدوج وتكرار لما بعد فعل القول، إذ إن أمر الله لنبيه الكريم أن يقول، هو إخبار وتبليغ أول من الآمر إلى المأمور بأن يقول: كذا وكذا، والتبليغ الثاني يتمثل في إشهار هذا الخطاب بين الناس، وبذكر الفعل، وكأن في هذا الفعل تنبيه وتذكير للمخاطبين أن القرآن هو وحي من عند الله سبحانه وتعالى، وليس من عند الرسول يقوله من ذات نفسه، وهذا تفنيد لتلك المقولات التي وجهت إلى الرسول ﷺ من لدن الكفار بأن القرآن ليس منزلًا، وأنه ابتدعه الرسول ﷺ، فمجيء هذا الفعل يومئ إلى وجود سلطة عليا آمرة، فلا قول ولا فعل يكون إلا بمقتضى هذه السلطة.

والقضية الأخرى على صلة بالمادة اللغوية ودلالاتها المعجمية، فالقَوْل: الْكَلَام على التَّقْرِيب، وأصله (قول) وَهُوَ كل لفظ قَالَ به اللِّسَان تَاما كَانَ أَو نَاقِصًا. وَ « قلت» فِي كَلَام الْعَرَب: إِنَّمَا وَقعت على أَن تحكي بهَا مَا كَانَ كلَامًا لَا قولا. يَعْنِي بالْكَلَام: الْجمل، كَقَوْلك: زيد منطلق وَقَامَ زيد. والكلام لابد من أن يكون مقترنًا بالفائدة، وإلا لا يعد كلامًا. فَأما التجوز فِي تسمية الاعتقادات والآراء قولًا، فَلِأَن الاعْتِقَاد يخفى فَلَا يعرف إِلَّا بالْقَوْل، أَو بِمَا يقوم مقَام القَوْل من شَاهد الْحَال، فَلَمَّا كَانَت لَا تظهر إِلَّا بالْقَوْل، سميت قولًا، إِذْ كَانَت سَببا لَهَا، وَكَانَ القَوْل دَلِيلا عَلَيْهَا، كَمَا يُسمى الشَّيْء باسم غَيره إِذا كَانَ ملابسا لَهُ وَكَانَ القَوْل دَلِيلا عَلَيْهِ(٢). من هنا ومن خلال هذا التفسير المعجمي لفعل القول يمكن أن نستنتج المقتضى المعجمي الذي يشير إلى أن وجود فعل الأمر (قُل) فيه معنى الاعتقاد، لأن كلام الله متضمن شرائعه وأحكامه، والرسول مؤمن بكل ما يُوحَى إليه، فعندما يجهر الرسول

(١) تفسير الشعراوي: ٣/١٤١٧-١٤١٨.
(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٥٦١.

ﷺ بهذا الفعل يكون قد جهر بمعتقده ورأيه الذي يؤمن به، فمنطوق الفعل (قُلْ) يحيل إلى مقتضاه المعجمي وهو الاعتقاد، فضلًا أن الرسول ﷺ ملزم بتوصيل القرآن كما يتنزل عليه من دون زيادة أو نقصان، فهو ﷺ مُبَلِّغ للرسالة الإلهية. وهنا تبرز الوظيفة التداولية لهذا الفعل التي تخدم مهمة الرسول ودعوته، لأن في الأصل الفعل قال ومشتقاته تستعمل ليُحكى بها، قال سيبويه: «واعلم أن «قلتَ» إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها»(١). أي: يُحكى بها القول، وهو استعمال يُخرج هذا الضرب من فعل «قال» عن سائر الأفعال الموجودة في اللغة، ويفرده بحكم لا يتوفّر في سواه، فهو بمثابة آلة التسجيل الطبيعية التي توفرها اللغة للإنسان، فاستعملها لنقل الكلام من دون أن ينتظر اختراع الآلات التي تستعمل لهذا الغرض(٢).

يتضح لمتأمل السطور السابقة أن المقتضى المعجمي لفعل القول يفضي إلى أنه لا بد من أن يتلفظه اللسان أي: ينطقه، وهذا الفعل اللغوي يكتنز قوة إنجازية تتحقق بمجرد القيام بهذا العمل، وهو فعل القول انطلاقًا من المقتضى المعجمي له الذي مفاده أن القول (كل لفظ قَالَ بِهِ اللِّسَان) فهذه الكلمة لها في ذاتها مقتضى معجمي، حتى إذا ما أقحمت في التركيب غدت مسؤولة عن ظهور مقتضى ذلك التركيب، انطلاقًا من معناها المعجمي، وبناء عليه يكون من شأن المقتضى المعجمي أن يسم الملفوظ الذي يحمله بمسمى دلالي وحجاجي خاص، أو ما يسمى (بوقع الكلمة المعنوي)(٣).

والمسألة الأخرى التي لابد من النظر فيها هي الوظيفة النحوية التي ينهض بها الفعل (قُلْ)، وهي كونه فعل أمر، ولا شك أن لهذه الصياغة النحوية وظائف تواصلية إبلاغية أو أغراض ومقاصد، لا يمكن أن تتحقق إلا بهذه الصياغة، وفي الأمر لا بد من النظر إلى أحوال المتكلم ومنزلته

(١) الكتاب: ١/١٢٢. وينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش: ٢/٦٢٣.
(٢) ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: ٢/ ٦٢٢.
(٣) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة: ٨٨ و٩٠.

مقارنة مع المخاطب، وهذه رؤية تداولية [١]، لأن الأمر بصيغته هذه يعد فعلًا ذا قوة إنجازية، إنه فعل لا يستعمل للوصف والإخبار، وليس خاضعًا للصدق أو الكذب، فمن خلال هذه الأفعال يمكن إنجاز أفعال، فمجرد النطق بها يشكل في حد ذاته فعلًا معينًا، أي: نشاطًا يهدف إلى تغيير واقع، وللتأثير في الغير وفي الأشياء، ومن هنا تتجلى سلطة الكلام وسلطانه وقوته الإنجازية، وفعل الأمر يتمثل إنجازه في محاولة دفع المخاطب للقيام بفعل معين، ومعلوم أن المتكلم لا يصدر أمرًا إلا إذا كان راغبًا فعلًا في أن ينفذه المخاطب، فهو إلزام من قبل المتكلم، والتزام من قبل المخاطب[٢]، وعندما يكون الأمر صادرًا من الله ﷻ ستتضاعف قوته الإنجازية، من حيث إن القصد من ورائه تحقيق مصلحة للعباد، وإحداث التأثير ومن ثَمَّ الإقناع.

تأصيل مفهوم الرحمة في الحقل اللغوي والاصطلاحي.

لن نأتي بجديد إذا قلنا: إن الرحمة مبدأ راسخ في الإسلام، إنها متماهية بدعوته وشرائعه، وليس بالضرورة ذكر لفظ الرحمة أو إحدى مشتقات هذا الجذر للتدليل على رحمة الإسلام، إذ كثيرًا ما نستشعرها بكل ما جاء في القرآن الكريم، والأفعال والأقوال التي صدرت عن الرسول ﷺ.

والرَّحْمة: من رحم، وتعني: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمَرْحَمَةُ مِثْلُه، وَقَدْ رَحِمْتُه وتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ. وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والرَّحِمُ: «رَحِمُ المرأة، وامرأة رَحُومٌ تشتكي رحمها. ومنه استعير الرَّحِمُ للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحدة، يقال: رَحِمٌ ورُحْمٌ»[٣]. قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨١]، والرَّحْمَةُ رقّة تقتضي الإحسان إلى المَرْحُوم، ودوافع الرحمة متعددة، فقد

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي: ١٠٥.
(٢) ينظر: سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، السنة ٢٥- العدد: ٦٢-٦٣، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م: ١٣٥-١٤٠.
(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٤٧.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، نحو: رَحِمَ اللّه فلانًا. والرَّحْمَةُ: الْمَغْفِرَةُ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى.. فأما الرَّحِيمُ فإنما ذُكِرَ بَعْدَ الرَّحْمن لأَن الرَّحْمن مَقْصُورٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالرَّحِيمَ قَدْ يَكُونُ لِغَيْرِه؛ قَالَ الْفَارِسِيُّ: إنما قِيلَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. فَجِيءَ بِالرَّحِيمِ بَعْدَ اسْتِغْرَاقِ الرَّحْمنِ مَعْنَى الرحْمَةِ لِتَخْصِيصٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّحْمنُ اسْمٌ مِنْ أَسماءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَذْكُورٌ فِي الْكُتُبِ الأُوَلِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَسماءِ اللَّهِ؛ وَيَعْنِي أَصحاب الْكُتُبِ الأُوَلِ، وَمَعْنَاهُ عِنْدَ أَهل اللُّغَةِ ذُو الرحْمَةِ الَّتِي لاَ غَايَةَ بَعْدَهَا فِي الرَّحْمةِ، لأَن فَعْلان بِنَاءٌ مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ، ورَحِيمٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعلٍ[1].

والرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ من صفات اللّه ﷻ، ولا يطلق الرَّحْمَنُ إلّا على اللّه تعالى، من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رَحْمَةً، والرَّحِيمُ يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٨٢]، وقال في صفة النبيّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨]، وقيل: إنّ اللّه تعالى: هو رحمن الدّنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعمّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] تنبيهًا أنها في الدّنيا عامّة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصّة بالمؤمنين[2]. إن اسم الرحمن يستغرق كُل رحمة تلازم المخلوقات كافة، من حيث الوجود والتقدير والتقويم، والعناية واللطف والإحسان، فما من مخلوق إلا واللّه تبارك وتعالى تفضل عليه برحمته، عندما أوجده بعد أن لم يكن، وعندما خلقه باتزان وقدر وعدل وتسوية[3].

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ١٢/ ٢٣٠-٢٣١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٧-٣٤٨.
(٣) ينظر: من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين، عمران نزال، http://almarefh. net/

ولابن القيم نظرات في اسمي الله تعالى (الرحمن والرحيم)، وما اختص بكل اسم من صفات، وذلك حين يقول: وَصِفَاتُ الْإِحْسَانِ، وَالْجُودِ وَالْبِرِّ، وَالْحَنَانِ وَالْمِنَّةِ، وَالرَّأْفَةِ وَاللُّطْفِ أَخَصُّ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ. فَالرَّحْمَنُ الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، وَالرَّحِيمُ الرَّاحِمُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] وَلَمْ يَجِئْ: رَحْمَنُ بِعِبَادِهِ، وَلَا رَحْمَنُ بِالْمُؤْمِنِينَ، مَعَ مَا فِي اسْمِ الرَّحْمَنِ الَّذِي هُوَ عَلَى وَزْنِ فَعْلَانِ مِنْ سَعَةِ هَذَا الْوَصْفِ، وَثُبُوتِ جَمِيعِ مَعْنَاهُ الْمَوْصُوفِ بِهِ. فَبِنَاءُ فَعْلَانِ لِلسَّعَةِ وَالشُّمُولِ، وَلِهَذَا يَقْرِنُ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِهَذَا الِاسْمِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». وَفِي لَفْظٍ: «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ». وَالرَّحْمَةُ هِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأْلِيهُ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ(١).

وللرحمة في القرآن الكريم قيمة عظيمة وواسعة، فلا تكاد تجد قضية تناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها، ولو أمكن استبدال اسم الدين الإسلامي بكلمة أخرى لكانت

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ٣٤-٣٦.

كلمة الرحمة هي الكلمة الأولى، ولكان اسم الدين هو دين الرحمة، وقد أثبت الله تعالى هذا المعنى في ذكره لمهمة الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة للعالمين كافة، بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧][1].

(١) ينظر: من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم.

المبحث الأول
البعد الحجاجي لاستعمال الأدوات اللغوية في آيات الرحمة

عمدنا في تقسيم البحث إلى اعتماد تقنيات الحجاج منطلقًا في هذا التقسيم، من هنا سنرصد في المبحث الأول الأدوات اللغوية. ويندرج تحت هذه الأدوات ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللغوية والحجاج بالتبادل والوصف، وتحصيل الحاصل، ويستعمل المرسل هذه الأدوات لتركيب خطابه الحجاجي وبناء حججه، بحسب مقتضيات السياق وظروف الخطاب[1]، من هنا تعد هذه الأدوات وسائل توظف في خطاب يقصد المرسل إلى إقناع المرسل إليه بقضية ما.

التركيب الشرطي:

يبرز الشرط بوصفه تقنية حجاجية من خلال ذلك التعالق، الذي يتشكل بين جملتي الشرط والجزاء، فبواسطة هذا التعالق تتولد طاقة حجاجية تستعمل في سياقات المحاورة والجدال، التي يحرص فيها طرفا الحوار على إقناع الطرف الآخر بقوة حجته. وتعد أداة الشرط (إنْ) أمَّ هذا الباب، واستعملت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام].

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٤٧٧.

تتنوع سياقات ذكر الرحمة بتعدد الأغراض والمقاصد، فما اللغة إلا وسيلة توظف فيها المهارات الأسلوبية والمؤثرات البلاغية، لإحداث التأثير والإقناع، ومن ثَمَّ تحقيق المقاصد. ولقد استعمل البيان القرآني التركيب الشرطي في مواضع كثيرة، كالذي نشهده في هذه الآية الكريمة، فالآية تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ الَّذِي أَبْطَلَ تَحْرِيمَ مَا حَرَّمَهُ اليهود، ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام:١٤٣] والرحمة مستعملة في هذا السياق للإمهال، فقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] تَنْبِيهٌ لَهُمْ بِأَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ هُوَ إِمْهَالٌ دَاخِلٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ رَحْمَةً مُؤَقَّتَةً، لَعَلَّهُمْ يُسْلِمُونَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ مَعْنَى فِعْلِ: كَذَّبُوكَ الِاسْتِمْرَارَ، أَيْ: إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى التَّكْذِيبِ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَجِ[1]. واستعمال أداة الشرط (إنْ) يفيد أن هذا التكذيب محتمل الوقوع، فهي لتعليق أمر بغيره[2]. «والتعبير بأداة الشك مشير إلى أن الحال يقتضي أن يستبعد أن يقع منهم تكذيب بعد هذا»[3]، ولفظ (واسعة) من وسع: ومن أَسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الواسِعُ: هُوَ الَّذِي وَسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه ووَسِعتْ رحمتُه كُلَّ شَيْءٍ وغناه كُلَّ فَقْر. والواسع ضد الضيِّق[4]، وجاء لفظ (واسعة) باسم الفاعل لبيان أن هذه السعة سمتها الثبات، والذي يعزز هذا الثبات أن موقعها الإعرابي نعت لـ (رحمة) والنعت عنصر مُبَيِّن لماهية الرحمة ومدياتها لتنهض هذه الكلمة بسلطة حجاجية تكتسبها من مقتضاها المعجمي، ومن صيغتها الصرفية، ومن وظيفتها الإعرابية، فالقول: (اللّه ذو رحمة) لن يكون كافيًا لإقناع المرسل إليه، وضامنًا له بمديات هذه الرحمة، من حيث إنها تستوعب سلوك خصوم الرسول بالصبر عليهم وإمهالهم، لعلهم في نهاية المطاف يؤمنوا، من هنا كان اقتران الرحمة بأنها (واسعة) عنصر إقناع وحجة على المقصودين

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٨/١٤٤-١٤٥.
(٢) ينظر: معاني النحو، فاضل صالح السامرائي: ٤/٥٩.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي: ٧/٣١٠.
(٤) ينظر: لسان العرب: ٨/ ٣٩٢.

بالخطاب -وهم اليهود أو المشركون- وأيًّا كان المقصود من هذا الخطاب، وتضعهم في منطقة آمنة. وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه. بل حتى التهديد والوعيد هو مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه، وحجة على عدله ﷻ، وذلك حين يقول ﷻ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، لأننا نلمس من ذلك الترهيب إرادة إلهية رحيمة تقيم الحجج والبراهين على تحقق العذاب، ومن ثَمَّ رغبة تلح عليهم لإنقاذهم، مما ينتظر المكذب من أهوال، فالله ﷻ خلقنا ويعلم ميول النفس الإنسانية، وهذه النفوس جُبِلَتْ على حب من يرحمها وينعم عليها واتباعه، وتميل بالفطرة إلى تحاشي ما يؤدي بها إلى مهاوي العذاب، فحق على هذه النفس أن تكون ممتنة لمن ينذرها ويرهبها، بل وحق عليها اتباعه والفوز برضاه، لأن في الإنذار دليلًا على أن الله لا يريد أن يعذبهم، بل من رحمته بهم أن أنذرهم، وأنزل عليهم كتابًا فيه تفصيل لكل شيء، وفيه كشف للغيب، لتتحصل لهم النجاة بذلك، من هنا كان إنذار الكافرين بدعوة الإسلام استدلالًا على رحمة الله ولاسيما أنهم ما زالوا في دار الأمن والسلامة، وحري بصاحب الفطرة السليمة الاقتناع والاتباع بأن يتدارك ما هو عليه من الضلالة، ومن ثَمَّ في ذلك دليل على أن من تمرد وعصى فقد عدل عن الفطرة، وانسلخ من إنسانيته، فكان حقًا عليه وصف الحق ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

والمتأمل للبنى التركيبية في القرآن يلمس حضورًا واضحًا لأسلوب الشرط والجزاء، ولعل ميزة تعليق أمر بآخر، يجعل منه آلية حجاجية، وتضع المتلقي أمام وضع يكون فيه للمرسل سلطة وأثر، إذ إن جملة الشرط تنهض بدور توجيه المتلقي إلى الجزاء، وهذا الجزاء يعود فيوجه فهمه لمحتوى الشرط، وهو ما يعني أن التأثير متبادل بين الشرط والجزاء[1].

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٤٠٤-٤٠٥.

وهو ما يعني بنية حجاجية تمتلك وسائل إقناعية بالقضية المطروحة، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:٣١].

هذا تركيب لغوي آخر صيغ بأسلوب الشرط يجسد مظاهر رحمته ﷻ، فَجَعَلُ مَحَبَّة اللَّه فعْلًا للشَّرْط في مَقَام تَعْليق الْأَمْر باتِّبَاع الرَّسُول ﷺ، فَالتَّعْلِيقُ عَلَيْه تَعْليقُ شَرْط مُحقَّق، ثُمَّ رُتِّبَ عَلَى الْجَزَاء مَشْرُوطٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ لكَوْنه أَيْضًا مَقْطُوعَ الرَّغْبَة منَ الْمُخَاطَبِينَ، وَتَعْليقُ مَحَبَّة اللَّه إِيَّاهُمْ عَلَى ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ الْمُعَلَّق عَلَى قَوْله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُحبُّونَ اللَّهَ يَنْتَظمُ منْهُ قيَاسٌ شَرْطيٌّ اقْترَانيٌّ، وَيَدُلُّ عَلَى الْحُبِّ الْمَزْعُومَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ اتِّبَاعُ الرَّسُول فَهُوَ حُبٌّ كَاذبٌ، لأَنَّ الْمُحبَّ لمَنْ يُحبُّ مُطيعٌ، وَلأَنَّ ارْتكَابَ مَا يَكْرَهُهُ الْمَحْبُوبُ إغَاظَةٌ لَهُ وَتَلَبُّسٌ بِعَدُوِّه[1].

ولابد من الإشارة إلى أن القرآن قد استعمل الأدوات اللغوية بطريقة تفضي إلى إقناع المتلقي وإفحامه، وذلك ببيان أن محبة اللّه تستلزم أمورًا لابد من التقيد بها، بل والحرص على تمامها، وتمثل ذلك بالتركيب الشرطي الذي استعمل ليقوم بوظيفة حجاجية عبر التسلسل الشرطي، فمحبة اللّه مقدمة، مرتبطة بمقدمة أخرى، هي اتباع الرسول، والنتيجة في هذا الخطاب هي محبة اللّه التي تقتضي غفرانه، التي عبر عنها بالفعل المضارع (يغفر)، للتدليل على أن دوام هذه المغفرة واستمرارها، فضلًا عن أن هذا الفعل يعد من الأفعال الكلامية، التي تتحقق بمجرد النطق بالفعل، وجاء متعلقًا بالفعل (يحببكم) بالعطف، وهو الأثر الثاني الذي يترتب على اتباع الرسول، ومن ثَمَّ عقب بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فاتباع الرسول ﷺ من لوازم محبة اللّه ومغفرته، ومن لوازم محبة اللّه رحمته، واستعمل القرآن التركيب الاسمي، لأنه قد يتبادر للأذهان أن هذه المحبة والمغفرة قد

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٢٢٥-٢٢٨.

تتغير، فجاءت هذه الآية بالصياغة الاسمية دليلًا على ثبات هذه المغفرة، بل واقترانها بالرحمة، ولفظ (رحيم) يومئ إلى أن هذه الرحمة للمؤمنين خاصة، من هنا نلمح أن هذه الرحمة مرهونة أيضًا باتباع الرسول ﷺ. لذا جاء هذا التتابع اللغوي وعبر تلازم بعضه ببعض، ليولد بنية حجاجية لكل من يدعي محبة اللّه، واضعًا له المنهج الرباني مسالك الظفر بهذه المحبة.

وسياق الآية يشير إلى أن المخاطبين لا بد قد ادعوا أنهم يحبون اللّه، ولكنهم لم يتبعوا اللّه فيما جاء به رسول اللّه ﷺ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئًا، واتباع التكليف شيئًا آخر، واللّه سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد، وإمداد، وتلك نعمة، ولله على خلقه فضل التكليف، والحق سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد. وهو سبحانه وتعالى عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان رحمة به، ولو لم يعطنا نظام حركة الحياة في «افعل» و «لا تفعل» لفسد علينا الإيجاد والإمداد. فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضًا من ناحية قبول التكليف، وأن يحب العبد ربه، لأنه كلف بالتكاليف الإيمانية، وأن يتحسس الحكمة والمنفعة من وراء التكليف، حتى وإن خالفت ميوله، من هنا حري بالإنسان أن يبحث عن تكاليف اللّه ليقوم بها، طاعة منه وحبًّا للّه، ليتلقى محبة اللّه له بآثارها، من عفو، ورحمة، ورضا[1].

والمحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا للّه، وأن كل ما يراه كمالًا من نفسه أو غيره فهو من اللّه وباللّه وإلى اللّه لم يكن حبه إلا للّه وفي اللّه، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وعبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة[2].

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: ٣/١٤١٧-١٤١٨-١٤١٩.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٢/ ١٣.

وقد يأتي الشرط في القرآن الكريم في سياق حجاجي، يكشف للإنسان عن حقيقة جبلته البشرية، عندما يكون الأمر مناطه الإنفاق والعطاء، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء].

تشير الآية الكريمة إلى مدلول آخر لرحمة الله بخلقه، الذي يتوزع بدوره على جانبين الأول: مدلول عام على صلة بمشيئة الله في إدارة شؤون الكون، التي تفضي إلى جعل كل أمر الرزق والمقدورات التي منعها الناس، لأن الخزن ضرب من المنع، وقيل: جوده الواسع وقدرته [1]. فمشيئة الله اقتضت أن يكون متحكمًا بأرزاق الخلق، وهذه رحمة منه بخلقه، والجانب الآخر متعلق بمنطوق الآية الكريمة، حيث اقترنت الخزائن بالرحمة اقتران إضافة، للتدليل على أن الرزق والنعم والمقدورات مقيدة بالرحمة، وهذا التقييد يورث طمأنينة وأمَنَة، إذ يكون حجة على أنه دائم غير منقطع، ولتتولد المقارنة فيما لو كانت خزائن الرزق بيد الله أو بيد الإنسان، وهنا تتصدى الأدوات اللغوية لتسوق المتلقي إلى الاقتناع والتسليم بأن من قرن عطاءه بالرحمة أحق أن يتبع من الذي حظه إن ملك الرزق المنع والبخل، وهو إفحام لخصوم النبي في عدم قدرتهم على البذل والعطاء.

وتصدرت جملة الشرط بالأداة «لَوْ» التي جاءت متسقة مع القضية المطروحة لاستحالة تحققها، والتي «تُفِيدُ انْتِفَاءَ الشَّيْءِ لِانْتِفَاءِ غَيْرِهِ»[2]، وَشَأْنُ (لَوْ) أَنْ يَلِيهَا الْفِعْلُ مَاضِيًا فِي الْأَكْثَرِ أَوْ مُضَارِعًا فِي اعْتِبَارَات، فَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالدُّخُولِ عَلَى الْأَفْعَال، فَإِذَا وَقَعَ الِاسْمُ بَعْدَهَا فِي الْكَلَامِ وَأُخِّرَ الْفِعْلُ عَنْهَا فَإِنَّمَا يَفْعَلُ الْعَرَبُ ذَلِكَ لِقَصْدٍ بَلِيغ: إِمَّا لِقَصْدِ التَّقَوِّي وَالتَّأْكِيد لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ ذِكْرَ الْفِعْلِ بَعْدَ الْأَدَاةِ ثُمَّ ذِكْرَ فَاعِله ثُمَّ ذِكْرَ الْفِعْلِ مَرَّةً ثَانِيَةً

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٣٥. وينظر: فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني: ٣/٣١١.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: ٢١/٤١٣.

تَأْكِيدٌ وَتَقْوِيَةٌ، وَإِمَّا لِلانْتِقَالِ مِنَ التَّقْوِيَةِ إِلَى الاخْتِصَاصِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مَا قُدِّمَ الْفَاعِلُ مِنْ مَكَانَهُ إِلَّا لِمَقصد طَرِيق غَيْر مَطْرُوق[1]. وَ«(إِذًا) دَالَّةٌ عَلَى الْجَوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى الْجَوَابِ، الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّامُ الْمُقْتَرِنَةُ بِجَوَابِ (لَوْ)، الامْتِنَاعِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَى امْتِنَاعِ حُصُولِ جَوَابِهَا، لِأَجْلِ امْتِنَاعِ وُقُوعِ شَرْطِهَا، وَزَائِدَةٌ بِأَنَّهَا تُفِيدُ أَنَّ الْجَوَابَ جَزَاءٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمُجَابِ»[2]. فَالْمَقْصُودُ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى شدة الشح الذي اختصت به أنفسهم.

لقد تضمنت الآية الكريمة أكثر من تقنية حجاجية، فإلى جانب أسلوب الشرط يبرز المفعول لأجله (خشية الإنفاق) عنصرًا لغويًّا حجاجيًّا، فهو من أدوات التعليل التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، ودليلًا آخر على شح المخاطبين وبخلهم، وذلك لبيان علة الإمساك، إذ «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشى منه»[3]. فالمقتضى المعجمي لهذه اللفظة يضع الإنسان أمام حقيقة نفسه التي تستعظم الإنفاق خوفًا، لذلك يسلك السلوك الذي يتماشى مع هذا الشعور، وهو البخل والإمساك.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ فجاءت هذه الجملة (جملة التذييل) متضمنة معنى الجملة السابقة لها ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ (الجملة الأصلية) على نحو يبدو معه مضمون الجملة الأولى قد تكرر مرتين: مرة بالمطابقة ومرة بالتضمن، ذلك أن جملة التذييل تفهمنا معنى الجملة الأصلية، فهي تتضمنه وتزيد عليه، مع ما فيها من تعميم وشمول، اللذين عبرت عنهما طرائق أسلوبية مختلفة احتوتها جملة التذييل. ومن هذه الطرائق ما هو صرفي يتعلق بصيغة بعض الكلمات الواردة في التذييل

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٥/ ١١١.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٥٥.

مثل صيغة المبالغة المفيدة تكثيرًا ومبالغة وزيادة(١)، على نحو ما نجده في الآية ﴿قَتُورًا﴾ على وزن فعول، وهي صيغة مبالغة أكدت مع الجملة الواردة فيها مضمون السابقة، فخشية الإنفاق جزء من القتر، ويعني تقليل النفقة، وهو بإزاء الإسراف، والآية تنبيه على ما جبل عليه الإنسان من البخل(٢).

الاستفهام:

للاستفهام من الناحية الحجاجية أهمية تبرز انطلاقًا من طبيعة بنية الاستفهام اللغوية ووظائفه الدلالية، إذ لما كان الكلام إثارة السؤال أو استدعاء له فإنه يولد نقاشًا، ومن ثَمَّ حجاجًا، فإذا بالكلام والحجاج متصلان على نحو عميق، وإذا بالحجاج ماثل في كل نوع من أنواع الخطاب. على هذا النحو ندرك خطورة طرح الأسئلة، إنها وسيلة من وسائل الإثارة، ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشكل مطروح، على أن طاقة الاستفهام الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على الصريح، وهي التي تجعل من الاستفهام أسلوبًا حجاجيًا(٣). والقرآن الكريم استعمل الاستفهام بأنواعه الحقيقية والمجازية، وذلك بحسب مقتضيات السياق، فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك:٢٨-٢٩].

يطالعنا موقف حجاجي آخر، كان للفعل (قُلْ) دور بارز في سوق الحجج والبراهين، عبر تتابع حواري قصد من ورائه الرد على مشركي مكة، الذين كانُوا يَتَمَنَّوْنَ مَوْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ(٤). فكان جواب الرسول ﷺ بصيغة تساؤلات:

(١) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٧٤-٣٧٦.
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٩٣-٣٩٤.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٨/٢٢١.
(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي: ١٤١-١٤٢.

فَالْاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إِنْكَارِيٌّ، أَنْكَرَ انْدِفَاعَهُمْ إِلَى أُمْنِيَاتٍ وَرَغَائِبَ لَا يَجْتَنُونَ مِنْهَا نَفْعًا وَلَكِنَّهَا مِمَّا تُمْلِيهِ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ الْخَبِيثَةُ مِنَ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ. وَالْاسْتِفْهَامُ بِقَوْلِهِ: (فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ) إِلَخْ إِنْكَارِيٌّ. وَالْاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: (فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ) اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ[1].

يرصد القارئ لهذه الآية الكريمة تتابعًا نسقيًّا لأسلوب الاستفهام، وتكرارًا لفعل الأمر (قُلْ)، والاستفهام في الآية هو حجج بذاته، عبر ما يثير في المتلقي من تساؤلات، لا تحتاج إلى إجابة أحيانًا، وإنما تحتاج إلى إعمال الفكر في المستفهم عنه، فالاستفهام هنا هو فعل حجاجي بالقصد المضمر فيه، ولاسيما بهذا الترتيب الوارد في الآيات، الذي يؤدي بالمرسل إليه إلى التسليم المرة بعد الأخرى للتنازل عن معتقداته شيئًا فشيئًا، والمرسل يدرك كما يدرك المرسل إليه أن هذه الأسئلة ليست استفهامًا عن مجهول، ولهذا فهي حجج باعتبار قصد المرسل لا باعتبار الصياغة، والمعنى الحرفي فقط[2]، من هنا جاءت في سياق الإنكار.

وَمُقَابَلَةُ (أَهْلَكَنِي) (بِرَحِمَنَا) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ: أَوْ رَحِمَنَا بِالْحَيَاةِ، فَيُفِيدُ أَنَّ الْحَيَاةَ رَحْمَةٌ، وَأَنَّ تَأْخِيرَ الْأَجَلِ مِنَ النِّعَمِ، وَإِنَّمَا لَمْ يُؤَخِّرِ اللَّهُ أَجَلَ نَبِيِّهِ ﷺ مَعَ أَنَّهُ أَشْرَفُ الرُّسُلِ لِحِكَمٍ أَرَادَهَا. وَإِنَّمَا سَمَّى الْحَيَاةَ رَحْمَةً لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ، لِأَنَّ فِي حَيَاتِهِ نِعْمَةً لَهُ وَلِلنَّاسِ، مَا دَامَ اللَّهُ مُقَدِّرًا حَيَاتَهُ، وَحَيَاةُ الْمُؤْمِنِ رَحْمَةٌ لِأَنَّهُ تَكْثُرُ لَهُ فِيهَا بَرَكَةُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ[3].

وَجَاءَ هَذَا الْأَمْرُ بِقَوْلٍ يَقُولُهُ لَهُمْ بِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ: (أَوْ رَحِمَنَا) فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ سَوَّى بَيْنَ فَرْضِ إِهْلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَإِحْيَائِهِمْ فِي أَنَّ أَيَّ الْحَالَيْنِ فُرِضَ لَا يُجِيرُهُمْ مَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ، أَعْقَبَهُ بحجة بالغة أن علامات رحمة الله، ومن

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.
(٢) ينظر: إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٤٨٥.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.

ثَمَّ نجاتهم تتمثل بالإسلام والإيمان بالرحمن، بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ آمَنُوا بِالرَّحْمَنِ، فَهُمْ مَظِنَّةُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِمْ هَذِهِ الصِّفَةُ، فَيَرْحَمَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[١].

إن القرآن وهو يستعمل أسماء الله الحسنى يفيد من البعد الحجاجي لهذه الأسماء، ويتمثل في العلاقة التي تقيمها مقتضيات هذه الأسماء بين المتكلم، وهو الذات الإلهية المتصفة بهذه الأسماء والصفات وبين مُتلقي القرآن الكريم. إن هذه الأسماء إذ تكشف عن قوة المتكلم (الذات الإلهية) بواسطة السمات الدلالية المنطوقة، وتكشف بواسطة سماتها الدلالية المقتضاة عن ضعف المتلقي، بحيث يبدو البون شاسعًا جدًّا في عملية التخاطب بين المتكلم والمخاطب؛ إنّ هذا الوضع في التخاطب يجعل المتلقي واقعًا تحت سلطة الخطاب القرآني[٢]، عبر الوسائل الحجاجية التي ترغمه على الاقتناع والتسليم، ولاسيما عندما يضع بين يديه النتيجة والأثر، الذي يترتب على تبنيه طرحًا يخالف به التوجيه الإلهي، ليس عن اقتناع بهذا الطرح وإنما كبر وتعنت، لذا يأتي التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والاستفهام هنا أفاد التهديد والوعيد، فأثر الكفر لا محالة واقع بالحرمان من رحمة (الرحمن)، وعلة الحرمان الضلال المبين، وهذا يقتضي عمى بصيرتهم عن استشعار ضلالتهم، وهنا تقام عليهم الحجة، فَيَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَيَّ الْفَرِيقَيْنِ فِي ضَلَالٍ، حِينَ يَرَوْنَ أَثَرَ الرَّحْمَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَانْتِفَاءَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، وَخَاصَّةً فِي الْآخِرَةِ. وَأَصْلُ الْغَوْرِ: ذَهَابُ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ، مَصْدَرُ غَارَ الْمَاءُ إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَالْإِخْبَارُ بِهِ عَنِ الْمَاءِ مِنْ بَابِ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، مِثْلَ: عَدْلٍ وَرِضًى. وَالْمَعِينُ: الظَّاهِرُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْبِئْرُ الْمَعِينَةُ: الْقَرِيبَةُ الْمَاءِ عَلى وَجهِ التَّشَبُّهِ[٣].

وهذا من عظيم رحمته بعباده المؤمن والكافر، وهو بذل الماء وتسهيل مهمة

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩/٥٢-٥٦.
(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ١١٤.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/٥٢-٥٦.

الحصول عليه، ويعرف الإنسان حق المعرفة جسامة فقدان الذي فيه قوام حياته، فعندها ستشرئب الأعناق إلى السماء طلبًا لغوث الله.

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، وذلك لتقوية حجة المتكلم، وهدم قضية الخصم ومعتقده، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام:١٢].

تأتي الآية في سياق طغى عليه نمط الأمر المتمثل بالفعل (قُلْ)، وجُمْلَةُ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تَكْرِيرٌ فِي مَقَامِ الِاسْتِدْلَالِ، فَإِنَّ هَذَا الِاسْتِدْلَالَ تَضَمَّنَ اسْتِفْهَامًا تَقْرِيرِيًّا، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ تَصْدِيرُ هَذَا الْكَلَامِ بِالْأَمْرِ بِأَنْ يَقُولَهُ ﷺ مَقْصُودًا بِهِ الِاهْتِمَامُ بِمَا بَعْدَ فِعْلِ الْأَمْرِ بِالْقَوْلِ، وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي التَّقْرِيرِ. وَالتَّقْرِيرُ هُنَا مُرَادٌ بِهِ لَازِمُ مَعْنَاهُ، وَهُوَ تَبْكِيتُ الْمُشْرِكِينَ وَإِلْجَاؤُهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمَا يُفْضِي إِلَى إِبْطَالِ مُعْتَقَدِهِمُ الشِّرْكَ، فَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَاهُ الْكِنَائِيِّ مَعَ مَعْنَاهُ الصَّرِيحِ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ الْمَعْنَى الْكِنَائِيُّ. ويعد الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجًا، لِكَوْنِه مُرَادًا بِهِ الْإِلْجَاءُ إِلَى الْإِقْرَارِ، وكَانَ الْجَوَابُ عَنْهُ بِمَا يُرِيدُهُ السَّائِلُ مِنْ إِقْرَارِ الْمَسْؤُولِ مُحَقَّقًا لَا مَحِيصَ عَنْهُ، إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْجَحْدِ فِيهِ أَوِ الْمُغَالَطَةِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَنْتَظِرِ السَّائِلُ جَوَابَهُمْ وَبَادَرَهُمُ الْجَوَابَ عَنْهُ بِنَفْسِه بقَوْله: (لله) تَبْكِيتًا لَهُمْ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِبْلَاغِ الْحُجَّةِ مُقَدَّرَةً فِيهِ مُحَاوَرَةٌ، وَلَيْسَ هُوَ مُحَاوَرَةً حَقِيقِيَّةً[1].

وفي هذا السياق المشحون بإثبات ضلالة الكفار وإثبات أن ملك كل شيء عائد إلى الله وحده، يأتي قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَةَ﴾، وَهِي جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَهِيَ مِنَ الْمَقُولِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنْ يَقُولَهُ. ولابد من الوقوف عند هذه الجملة، من حيث إنها أعقبت قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٥٠.

وتتجلى مزية هذا الاعتراض، لأن مع عظمة خلقه واستغنائه عنهم جاءت هذه الجملة، لتقرر مفهوم أن رحمة اللّه عهد والتزام، فدلالة هذه الجملة المعترضة تتسق مع دلالة سابقتها، من حيث إنه قد يخطر خاطر في النفس الإنسانية أنه قد يلتبس بهذا الملك ظلم وجور، كالذي نعهده عند ملوك البشر، وتبرزُ هنا ميزة توظيف الفعل (كَتَبَ) وهو في اللغة: ضَمُّ الشَيءِ إلى الشَيء، نحو ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كَتَبْتُ السّقاء[١]، ومن المجاز قولنا: «كتب عليه كذًا: قضي عليه. وكتب اللّه الأجل والرزق، وكتب على عباده الطاعة وعلى نفسه الرحمة»[٢]، ويقال: الإرادة مبدأ، والكِتَابَةُ منتهى. ولقد تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ، بِأَنْ جَعَلَ رَحْمَتَهُ الْمَوْصُوفَ بِهَا بِالذَّاتِ مُتَعَلِّقَةً تَعَلُّقًا عَامًّا مُطَّرِدًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَزْمَانِ وَالْجِهَاتِ. فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُطَّرِدًا شُبِّهَتْ إِرَادَتُهُ بِالْإِلْزَامِ، فَاسْتُعِيرَ لَهَا فِعْلُ (كَتَبَ)، الَّذِي هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْإِيجَابِ، «فَخُوطِبَ الْعِبَادُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنَّهُ مَنْ كَتَبَ شَيْئًا فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ»[٣]. فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا تَأْكِيدَ وَعْدٍ أَوْ عَهْدٍ كَتَبُوهُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَخَلَّفُ كَالْأَمْرِ الْوَاجِبِ الْمَكْتُوبِ. وَالرَّحْمَةُ هُنَا مَصْدَرٌ، أَيْ: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الصِّفَةَ، أَيْ: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الِاتِّصَافَ بِالرَّحْمَةِ، أَيْ: بِكَوْنِهِ رَحِيمًا، وَفِي الْمَقْصُودِ مِنْ شُمُولِ الرَّحْمَةِ لِلْعَبِيدِ الْمُعْرِضِينَ عَنْ حَقِّ شُكْرِهِ، وَالْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي مُلْكِهِ غَيْرَهُ. فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ لَا ينعم، ولا بأن يَعِدَ بِالْإِنْعَامِ، بَلْ أَبَدًا يُنْعِمُ، وَأَبَدًا يُعِدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ ذَلِكَ، وَأَوْجَبَهُ إِيجَابَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ[٤]. وَمِنْ مَعَانِي هَذَا الِاعْتِرَاضِ، أَنَّ فِيهِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَجَّى أُمَّةَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مِنْ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ،

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٦٩٩.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري: ٢/ ١٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٤٣٥.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٨٩.

الَّذي عَذَّبَ به الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلُ، وَذَلكَ بِبَرَكَةِ النَّبِيءِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذْ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالمينَ فِي سَائِرِ أَحْوَاله بِحُكْمِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وَإِذْ أَرَادَ تَكْثِيرَ تَابِعِيه فَلذَلكَ لَمْ يَقْضِ عَلَى مُكَذِّبِيه قَضَاءً عَاجلًا، بَلْ أَمْهَلَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، ليَخْرُجَ منْهُمْ مَنْ يُؤْمنُ به، كَمَا رَجَا رَسُولُ اللَّه ﷺ. وَقَدْ حَصَلَ مَا رَجَاهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ مَنْ بَقِيَ منَ الْمُشْرِكينَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُوله بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا، وَأَيَّدَ اللَّهُ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ دِينَهُ وَرَسُولَهُ، وَنَشَرُوا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ.

وقد ورد هذا الوعد بالرحمة في سياق آخر، اختص هذه المرة بالمؤمنين، وإن لم يكن بأسلوب الاستفهام، بل بأسلوب خبري، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام:٥٤].

فَعنْدَهَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، والقصد منه إِمَّا أَنْ يَكُونَ أُمِرَ بِتَبْلِيغِ سَلَامِ اللَّه إِلَيْهِمْ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أُمِرَ بِأَنْ يَبْدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ، إِكْرَامًا لَهُمْ وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ، وقيل: مَعْنَى السَّلَامِ هُنَا الدُّعَاءُ بالسلامة مِنَ الْآفَاتِ، السَّلَامُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَكُونُ هَذَا التَّسْلِيمُ بِشَارَةً بِحُصُولِ الْكَرَامَةِ، عَقِيبَ تِلْكَ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ بَحْرِ عَالَمِ الظُّلُمَاتِ[(١)]. وهو التكريم -بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب، والرحمة في الجزاء، حتى ليجعل اللّه سبحانه وتعالى الرحمة كتابًا على نفسه للذين آمنوا بآياته، ويأمر رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه. واسند الفعل (كتب) إلى الفاعل (ربكم)، فصفات «الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القدرة، وتدبير أمر الخليقة»[(٢)]

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٤/ ٥٢٧.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم: ٢٧.

أخص بالربوبية، وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله، متى تابوا من بعده وأصلحوا- إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب، فما يذنب الإنسان إلا عن جهالة، وعلى ذلك يكون النص شاملًا لكل سوء يعمله صاحبه متى تاب من بعده وأصلح. ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب -أيًّا كان- والإصلاح بعده، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة(١).

(١) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢/ ١١٠١.

المبحث الثاني
البعد الحجاجي لاستعمال العلاقات شبه المنطقية (السلم الحجاجي) في آيات الرحمة

يعرف السلم الحجاجي بأنه: مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية قوامها الشرطين التاليين[1]:

أ. كل قول يقع في مرتبة ما من السلم الحجاجي يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب. كل قول كان في السلم دليلًا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى عليه.

ويعتمد السلم الحجاجي على الوصف الدلالي للملفوظ، ويستند أوزوفالد ديكرو في الوصف الدلالي للملفوظ على أفعال الاقتضاء بالدرجة الأولى، ذلك لأن الاستعمال التداولي للغة غالبًا ما يلجأ إلى الإشارات والتلميحات في التعبير بعبارات غير التي وضعت له في الأصل اللغوي، وفعل الاقتضاء هو الذي يقدم لنا وصفًا دلاليًّا تداوليًّا للملفوظات. فالحجاج يدل على صنف خاص من العلاقات المتضمنة في الخطاب والمدرجة في اللغة، ضمن المحتويات الدلالية. والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن

(١) ينظر: اللسان والميزان العقلي أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن: ٢٧٠.

تكون تدرجية أو قابلة للقياس بالدرجات، أي: أن تكون واصلة بين سلالم، حيث يؤمن ديكرو بفكرة وجود قوة حجاجية لكل الملفوظات، أمّا ترتيبها الحجاجي فمرتبط بملفوظ ما يسميه «موجّه القوة»؛ لذلك وضع أنموذج السلم الحجاجي[1]. ويتحقق الحجاج بالسلم الحجاجي باستعمال أدوات لغوية، وآليات شبه منطقية، يمكن تلخيصها التالي:

- الأدوات اللغوية، كالروابط الحجاجية (بل، لكن، حتى، ليس كذا فحسب، فضلًا عن...) السمات الدلالية، أدوات التوكيد.
- الصيغ الصرفية (أفعل التفضيل، صيغ المبالغة).
- (المفهوم: الموافقة، المخالفة).
- حجة الدليل.

على هذا النحو تتشكل عناصر السلم الحجاجي، إذ تبرز في أي سياق بوصفها عنصرًا أساسيًّا يوجه الخطاب وجهة تصب في تحقيق مقاصد المرسل، من جهة، وتحقيق الاقتناع لدن المرسل إليه من جهة أخرى. وسنقف عند أحد هذه العناصر، وتتمثل بالأداة (إنما) لنشهد وقعها الحجاجي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف].

هذه آية أخرى تقرر لمفهوم الرحمة، ردًّا على المشركين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ وحكي عن الفراء أنه قال: العرب تقول: اجتبيت الكلام، واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من قبل نفسك. والثاني: هلَّا طلبتها لنا قبل مسألتك؟ والأول أصح[2]. والله أعلم.

(١) ينظر: الحجاج في اللسانيات التداولية.. دراسة لنماذج من القرآن الكريم، ابن أحمد عالم فايزة، http://kalema. net/

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي: ٢/ ١٨٢.

والرد جاء مصدّرًا بفعل الأمر (قُلْ) تحقيقًا لما سيأتي بعده من كلام، لأن الرسول سيجعل من هذا الفعل عملًا منجزًا على أرض الواقع، ومن ثم قوة حجاجية تنقض على افتراءات المشركين، وستنسحب الحال على الفعل (أتبع). والعنصر الحجاجي الآخر هو أداة القصر (إنما)، التي "تفيد إثباتًا لما بعدها ونفيًا لما سواه"، فصنف هذا الخطاب أن ما يتبعه في أعلى درجات السلم الحجاجي، وكل ما عداه خارج هذا الترتيب السلمي، إذ كل ما يتبعه الرسول ﷺ هو من الله وليس اختلاقًا، وكل ما دون ذلك مما يتبعه المشركون هو إفك وبدع والذي يدعم هذا كله التفصيل الذي يلي هذا الكلام في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، إذ جاء هذا التفصيل ليرفع من سقف الأدلة والبراهين في كون ما يتبعه الرسول ليس باختلاق، لأنه بصائر «أَيْ: هَذَا الْمُوحَى إِلَيَّ الَّذِي أَنَا أَتَّبِعُهُ لَا أَبْتَدِعُهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ بَصائِرُ، أَيْ: حُجَجٌ وَبَيِّنَاتٌ يُبْصَرُ بِهَا، وَتَتَّضِحُ الْأَشْيَاءُ الْخَفِيَّاتُ، وَهِيَ جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وهو هُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، أَيْ: دَلَالَةٌ إِلَى الرُّشْدِ، وَرَحْمَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، وَفِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَبْصِرُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْوَحْيِ، يَتَّبِعُونَ مَا أَمَرَ به فيه، وَيَجْتَنِبُونَ مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ فيه، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا تَضَمَّنَهُ، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِيُّ: أَصْلُ الْبَصِيرَةِ الْإِبْصَارُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ سَبَبًا لِبَصَائِرِ الْعُقُولِ فِي دَلَالَةِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْبَصِيرَةِ، تَسْمِيَةً لِلسَّبَبِ بِاسْمِ الْمُسَبَّبِ(١).

ويمكن تصنيف الحجج الواردة في الآية على النحو التالي:

الذي يتبعه الرسول ﷺ:

- الذي اتبعه من ربي هو الحق.
- الذي أتبعه بصائر.

(١) ينظر: البحر المحيط: ٥/ ٢٦١.

- الذي أتبعه هدى.
- الذي أتبعه رحمة.
- كل ما دون ذلك مما يتبعه المشركون هو إفك، إذن هو باطل.

ووصف القرآن بكونه هدى ورحمة في هذا السياق عائد إلى أن استشعار كون القرآن هدى ورحمة لا يكون من أي بشر، ولذلك قيد هذا الوصف بقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾. ولفظ الرحمة هنا يستمد دلالته من القرآن نفسه بكل ما جاء به من أحكام وقصص وترغيب وترهيب بمخاطبته للنفس البشرية، وهو شفاء للنفس السقيمة، التي حط بها الكفر والضلالة في الدرك الأسفل من مستويات النفس الإنسانية، وعندما يوصف القرآن بكونه (بصائر) فهو رحمة، وعندما يوصف بكونه (هدى) فهو رحمة، من هنا لا بد من أن يتقرر ويترسخ في روع المخاطب أن كل ما يُوحى إلى الرسول ﷺ ويتبعه -وهو القرآن- هو رحمة بحججه وبراهينه وهَدْيِهِ.

إن الرحيم وبالمفهوم الذي تحمله هذه الصفة لن يشرّع حكمًا، أو يمنح رزقًا، أو يوحي وحيًا، إلا وتحفه رحمة فيها مصلحة للعباد وسعادة لهم في الدارين، من هنا كان الاحتجاج يمحو ما دونها من أسباب السعادة الفانية، التي يعتدُّ بها الكافرون، وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

هذا مقام آخر يوصف القرآن فيه بكونه رحمة، ويَتَفَرَّعُ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، تَنْبِيهُهُمْ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّه عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يَحِقُّ لَهُمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِهِمَا، وَأَنْ يقدروا قدر نعمتها، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهَا نِعْمَةٌ تَفُوقُ نِعْمَةَ الْمَالِ، الَّتِي حُرِمَ مِنْهَا أَكْثَرُ الْمُؤْمنين، وَمُنِحَهَا أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ، فَكَانَتِ الْجُمْلَةُ حَقِيقَةً بِأَنْ تُفْتَتَحَ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ. وَجِيءَ بِالْأَمْرِ

بِالْقَوْلِ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعَةِ وَالْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعِ عَلَيْهَا تَنْوِيهًا بِالْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعَةِ، بِحَيْثُ يُؤْمَرُ الرَّسُولُ ﷺ أَمْرًا خَاصًّا بِأَنْ يَقُولَهَا، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ مَا يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ مَأْمُورًا بِأَنْ يَقُولَهُ[1]، بيد أنه هناك مواضع كهذه الآية وغيرها كثير في القرآن جاء الخطاب فيها مبدوءًا بالفعل (قُلْ)، ولا يخفى ما في الصيغة الأمرية من التنبيه.

يبرز في هذه الآية الكريمة ضرب من المقارنة بين ما عند الله ﷻ وما عند المشركين بين فضل الله ورحمته، وما يجمع المشركون من أموال وما لهم من أولاد، ولا شك أن الأخير هو مظهر من مظاهر الفرح والبهجة للنفس الإنسانية، لأنها جبلت على حبه، ناهيك عن التباهي والتفاخر، بيد أن البيان القرآني يضع من قيمة كل هذه المظاهر المبهجة، عندما يقابلها بفضل الله ورحمته، محاججًا المشركين عبر منظومة لغوية صيغت بأسلوب، يجعل من فضل الله ورحمته مصدرًا للفرح، «فَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: (فَلْيَفْرَحُوا) فَاءُ التَّفْرِيعِ، و(بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) مَجْرُورٌ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ (فَلْيَفْرَحُوا) قُدِّمَ عَلَى مُتَعَلَّقِهِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِإِفَادَةِ الْقَصْرِ، أَيْ: (بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) دُونَ مَا سِوَاهُ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)، فَهُوَ قَصْرُ قَلْبٍ تَعْرِيضِيٌّ بِالرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ ابْتَهَجُوا بِعَرَضِ الْمَالِ فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا»[2] من هنا يظهر ما للقصر من قوة حجاجية تُقصي كل ما دونه، وعزز هذا التوجه استعمال افعل التفضيل (خير) لتحيل كل سبب لفرح المشركين هباء لا قيمة له. وَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: (فَبِذَلِكَ) لِلْمَذْكُورِ، وَهُوَ مَجْمُوعُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَاخْتِيرَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْهُ اسْمُ الْإِشَارَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنْوِيهِ وَالتَّعْظِيمِ مَعَ زِيَادَةِ التَّمْيِيزِ وَالِاخْتِصَارِ. وَلَمَّا قَصَدَ تَوْكِيدَ الْجُمْلَةِ كُلِّهَا بِمَا فِيهَا مِنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ قَرَنَ اسْمَ الْإِشَارَةِ بِالْفَاءِ تَأْكِيدًا لِفَاءِ التَّفْرِيعِ الَّتِي فِي

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤

(٢) المصدر نفسه: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤

(فَلْيَفْرَحُوا) لِأَنَّهُ لَمَّا قُدِّمَ عَلَى مُتَعَلَّقِه قُرِنَ بِالْفَاءِ لِإِظْهَارِ التَّفْرِيعِ فِي ابْتِدَاءِ الْجُمْلَةِ، وَقَدْ حُذِفَ فِعْلُ (لِيَفْرَحُوا) فَصَارَ مُفِيدًا مُفَادَ جُمْلَتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ مَعَ إِيجَازٍ بَدِيعٍ. وَتَقْدِيرُ مَعْنَى الْكَلَامِ: قُلْ فَلْيَفْرَحُوا بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ، لَا سِوَاهُمَا، فَلْيَفْرَحُوا بِذَلِكَ لَا سِوَاهُ. وَالْفَرَحُ: شِدَّةُ السُّرُورِ(١).

وجاء قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ليلخص حال المشركين، ويتضح من ذلك مدى التعالق بين هذه الجملة والجملة التي تسبقها تعالقًا، يؤدي وظيفة الإقناع وبسط الحجة وإقامتها على المتلقين من الخصوم، وذلك عبر التصريح بالمفهوم من الجملة السابقة وتعيينه وإقصاء مفاهيم أخرى من شأنها: أن تجعل ما يجمعون مصدرًا للفرح إلى جانب فضل الله ورحمته، فهذه الجملة سدت سبل كون ما عندهم سبب من أسباب فضل الله ورحمته.

إن البيان القرآني حين خاطب الناس، إنما هو يخاطبهم بما ألفوا وعهدوا، فلا يختلف اثنان على أن شفاء الصدر هو خلوه من كل عاهة نفسية، التي بدورها تورث راحة النفس وطمأنينتها، وهذا مطمح كل إنسان، ولقد عزز اختيار العناصر اللغوية الجانب الحجاجي في الخطاب، ليتولد الإقناع والتأثير.

وكثيرة هي الأوامر والنواهي التي جاء بها القرآن، وهي في مجملها يُراد من ورائها مصلحة العباد وسعادتهم في الدارين، ومن ثمراتها أيضًا راحة النفس وطمأنينتها، وخلق الله الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وما يثقلها وما يشق عليها، وبالمقابل فرض عليها ما فيه خيرها وسعادتها، ومن حكمته ﷻ أن جعل من هذه الطاعات بعد عبادته وتوحيده، على نحو ما نشهده في أدب معاملة الوالدين، وذلك في سياق قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٠٣-٢٠٤

﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

تعد هذه الآية الكريمة مظهرًا من مظاهر الرحمة بالإنسان، التي اقتضتها الحكمة الإلهية، وهي من آثار رحمة الله بالإنسان، وهو في أشد أحوال ضعفه، وهي استدلال على حرص الإسلام على أن يكون مبدأ التراحم ركنًا في النواة الأولى لتأسيس المجتمع وهي الأسرة، من هنا جاء هذا الاقتران بين عبادة الله وبر الوالدين. ولقد عمد البيان القرآني إلى مد هذه القضية بأدوات لغوية، تلح على منزلة البر وتفصل أحوال الوالدين، وتضع له أسس التعامل وكيفيتها، فكان أن استهلت الآية الكريمة بالفعل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بكل ما في هذا الفعل من قوة إنجازية، تحيل إلى أن الأمر مقطوع فيه وفي إنجازه، لتتولد بذلك طاقة حجاجية ترغم المتلقي على الخضوع والتسليم بهذا القضاء، ولاسيما إذا علمنا أن المقتضى المعجمي لكلمة الْقَضَاءِ هُوَ الْحُكْمُ الْجَزْمُ الْبَتُّ، الَّذِي لَا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ، وَلَفْظُ الْقَضَاءِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ يَرْجِعُ إِلَى إِتْمَامِ الشَّيْءِ وَانْقِطَاعِهِ، ومن هذا المقتضى يتضح البعد الحجاجي والتداولي لهذه الكلمة ووقعها المعنوي، إذ نشهد الحزم والجزم الذي يمنح الكلام سلطة لا يملك معها المتلقي إلا الامتثال، أما الْمُقضَى به فهو أَمَرَ بِعِبَادَتِه اللَّه تَعَالَى، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ،[1] وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِه الطَّاعَةَ مِنْ أُصُولِ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُفِيدُ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ. وَأَنَّهُ تَعَالَى بَدَأَ بِذِكْرِ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَثَنَّى بِطَاعَةِ اللَّه تَعَالَى، وَثَلَّثَ بِالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَهَذِه دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ وَمُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَعْظِيمِ هَذِه الطَّاعَةِ. وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ: وَإِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ، بَلْ قَالَ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ فَتَقْدِيمُ ذِكْرِهِمَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الِاهْتِمَامِ. وقَالَ: إِحْسانًا بِلَفْظِ التَّنْكِيرِ، وَالتَّنْكِيرُ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، وَالْمَعْنَى: وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا عَظِيمًا كَامِلًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ إِحْسَانُهُمَا إِلَيْكَ قَدْ بَلَغَ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٠/٣٢٣.

الْغَايَةَ الْعَظِيمَةَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ إِحْسَانُكَ إِلَيهِمَا كَذَلِكَ(١).

وَانْتَصَبَ إِحْسانًا عَلَى المفعولية الْمُطلقة مصدر نَائِبًا عَنْ فِعْلِه. وَالتَّقْدِيرُ: وَأَحْسِنُوا إِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا يَقْتَضِيه الْعَطْفُ عَلَى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أَيْ: وَقَضَى إِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ. وَعَطْفُ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عَلَى مَا هُوَ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّه،، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ فَاسْتَحَقَّ الْعِبَادَةَ، لِأَنَّهُ أَوْجَدَ النَّاسَ. وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْأَبَوَيْنِ مَظْهَرَ إِيجَادِ النَّاسِ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَالْخَالِقُ مُسْتَحِقُّ الْعِبَادَةِ لِغِنَاهُ عَنِ الْإِحْسَانِ، وَلِأَنَّهَا أَعْظَمُ الشُّكْرِ عَلَى أَعْظَمِ مِنَّةٍ، وَسَبَبُ الْوُجُودِ دُونَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْإِحْسَانَ لَا الْعِبَادَةَ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِحْسَانِ دُونَ الْعِبَادَةِ، وَشَمِلَ الْإِحْسَانُ كُلَّ مَا يَصْدُقُ فِيهِ هَذَا الْجِنْسُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْبَذْلِ وَالْمُوَاسَاةِ(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ تصدر بفعل الأمر (قُلْ) لتتشكل بذلك منظومة متكاملة في أدب المعاملة مع الوالدين على وجه الوجوب، فالدعاء لهما رحمة، والدعاء لهما بالرحمة رحمة، فعن أيّ دليل نبحث على رحمة الإسلام، وكل ما في الإسلام رحمة، سواء أظهرت مظاهرها أم خفيت. وَالْكَافُ فِي قَوْلِه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾: لِلتَّشْبِيهِ الْمَجَازِيِّ يُعَبِّرُ عَنْهُ النُّحَاةُ، بِمَعْنَى التَّعْلِيلِ فِي الْكَافِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٨]، أَيْ: ارْحَمْهُمَا رَحْمَةً تُكَافِئُ مَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَمْثِيلُ حَالَةٍ خَاصَّةٍ فِيهَا الْإِشَارَةُ إِلَى تَرْبِيَةٍ مُكَيَّفَةٍ بِرَحْمَةٍ كَامِلَةٍ، فَإِنَّ الْأُبُوَّةَ تَقْتَضِي رَحْمَةَ الْوَلَدِ، وَصِغَرَ الْوَلَدِ يَقْتَضِي الرَّحْمَةَ بِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدًا، فَصَارَ قَوْلُهُ: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ قَائِمًا مَقَامَ قَوْلِه: كَمَا رَبَّيَانِي وَرَحِمَانِي بِتَرْبِيَتِهِمَا. فَالتَّرْبِيَةُ تَكْمِلَةٌ لِلْوُجُودِ، وَهِيَ وَحْدَهَا تَقْتَضِي الشُّكْرَ عَلَيْهَا. وَالرَّحْمَةُ حِفْظٌ لِلْوُجُودِ مِنِ اجْتِنَابِ انْتِهَاكِه، وَهُوَ مُقْتَضَى الشُّكْرِ،

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠/٣٢٠-٣٢١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/٦٧-٦٨.

فَجَمَعَ الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِالدُّعَاءِ لَهُمَا بِالرَّحْمَةِ. وَالأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ(١).

وَمَقْصِدُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ يَنْحَلُّ إِلَى مَقْصِدَيْنِ(٢):

أَحَدُهُمَا: نَفْسَانِيٌّ وَهُوَ تَرْبِيَةُ نُفُوسِ الْأُمَّةِ عَلَى الِاعْتِرَافِ بِالْجَمِيلِ لِصَانِعِهِ، وَهُوَ الشُّكْرُ، تَخَلُّقًا بِأَخْلَاقِ الْبَارِي تَعَالَى فِي اسْمِهِ الشَّكُورِ، فَكَمَا أَمَرَ بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ أَمَرَ بِشُكْرِ الْوَالِدَيْنِ عَلَى نِعْمَةِ الْإِيجَادِ الصُّورِيِّ وَنِعْمَةِ التَّرْبِيَةِ وَالرَّحْمَةِ. وَفِي الْأَمْرِ بِشُكْرِ الْفَضَائِلِ تَنْوِيهٌ بِهَا وَتَنْبِيهٌ عَلَى الْمُنَافَسَةِ فِي إِسْدَائِهَا.

وَالْمَقْصِدُ الثَّانِي: عُمْرَانِيٌّ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ أَوَاصِرُ الْعَائِلَةِ قَوِيَّةَ الْعُرَى مَشْدُودَةَ الْوُثُوقِ فَأَمَرَ بِمَا يُحَقِّقُ ذَلِكَ الْوُثُوقَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ، وَهُوَ حُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ، لِيُرَبِّيَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ التَّحَابِّ وَالتَّوَادِّ مَا يَقُومُ مَقَامَ عَاطِفَةِ الْأُمُومَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْأُمِّ، ثُمَّ عَاطِفَةِ الْأُبُوَّةِ الْمُنْبَعِثَةِ عَنْ إِحْسَاسٍ بَعْضُهُ غَرِيزِيٌّ ضَعِيفٌ، وَبَعْضُهُ عَقْلِيٌّ قَوِيٌّ.

ويمكن بيان الإحسان للولدين ومقتضياته بالتدرج الذي سيكون وفقًا للسلم الحجاجي على النحو التالي:

- وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرًا.
- قل لهما قولًا كريمًا.
- واخفض لهما جناح الذل من الرحمة (تذلل لهما).
- لا تنهرهما.
- لا تقل لهما: أفٍّ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٧٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ٧٣.

لقد شرع البيان القرآني في تفصيل أدب المعاملة مع الوالدين، ويظهر من خلال هذا السلم الحجاجي أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ يقع في أسفل السُّلَّم، وذلك يقتضي عدم النهر أو الضرب، ثم تتصاعد درجة الإحسان بالتذلل لهما، وذلك يقتضي أن لا يسمعا إلا كل قول كريم، والقول الكريم يقتضي فعلًا كريمًا، وتصدر أعلى درجات السلم الدعاء لهما بالرحمة، والدعاء قد يكون في أثناء حياتهم أو بعد مماتهم، وذلك اعترافًا بفضلهما لكونهما سببًا في وجود الولد، ولتحملهما مشقة الرعاية والتربية في الصغر. على هذا النحو تتجلى رحمة الإسلام، رحمة بالضعيف. وجاء بها في هذا السياق على وجه الإلزام بالأوامر والنواهي الموظفة فيه، ولنا أن نلمس في هذا الإلزام رحمة فعبادة اللّه منجاة للإنسان، وبر الولدين فيه ما فيه من خير للإنسان ولو جهله أحيانًا، أو أخذته مشاغل الحياة عن الاهتمام بهما، ناهيك عن مشقة التعامل مع الإنسان في كِبره وشيخوخته يولد أحيانًا تنصلًا أو تهربًا أو حتى قسوة عليهما من قبل الأبناء، فيقع العقوق عن قصد أو من دون قصد، ومن ثَمَّ العقوبة بالعاق في الدنيا والآخرة، من هنا نلمس آثار رحمة هذا الأمر الإلهي بالوالدين والأبناء معًا.

وتستعمل أفعل التفضيل في سياق طلب المغفرة والرحمة من اللّه بناء على ما في التفضيل من طاقة حجاجية تجعل المفضل في أعلى درجات السلم الحجاجي ويمحو ما دونه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨].

لو تأملنا هذه الآية وآيات كثيرة في القرآن الكريم، لوجدنا أن مفهوم الرحمة لا يتبدى فقط في لفظ الرحمة وللإخبار عنه، وإنما يتبدى أيضًا في جانب التوجيه الإلهي وإرشاده إلى الأسباب، التي تمهد له

الفوز والظفر برحمة الله ﷻ. ويتمثل هنا بالتحفيز والتنبيه إلى الدعاء، وإرشاد المخاطب إلى ذكر تتحقق به أسباب الرحمة، والله ﷻ عندما يرشد الإنسان إلى ذكر معين، فلا شك أن فيه الإجابة، وهذا مظهر من مظاهر رحمته بعباده وتفضله عليهم. فَأَمْرُهُ بِأَنْ يَدْعُوَ بِذَلِكَ يَتَضَمَّنُ وَعْدًا بِالْإِجَابَةِ(1).

وَوَجْهُ الاتِّصالِ بين الآيتين أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا شَرَحَ أَحْوَالَ الْكُفَّارِ أَمَرَ بِالانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالالْتِجَاءِ إِلَى غُفْرَانِه وَرَحْمَتِه(2). والعَطفَ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية بِاعْتِبَارِ قَوْلِه: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾. فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْجُمْلَةِ خطاب النبي ﷺ بِأَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. وَفِي حَذْفِ مُتَعَلِّقِ (اغْفِرْ وَارْحَمْ) تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ فِي تَعْيِينِ الْمَغْفُورِ لَهُمْ وَالْمَرْحُومِينَ، وَالْمُرَادُ مَنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(3).

ثم أمر رسول الله بالدعاء في المغفرة والرحمة والذكر له تعالى بأنه خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، لأن كل راحم متصرف على إرادة الله وتوقيفه وتقديره لمقدار هذه الرحمة، ورحمته تعالى لا مشاركة لأحد فيها، وأيضًا فرحمة كل راحم في أشياء وبأشياء حقيرات بالإضافة إلى المعاني التي تقع فيها رحمة الله تعالى من الاستنقاذ من النار(4). وهذا جسدته صيغة التفضيل ﴿خَيْرُ﴾ ويدل اسم التفضيل على الزيادة في أصل الفعل غالبًا، ولا يخلو المفضل عليه من مشاركة المفضل في المعنى في الغالب، وعندما يضاف اسم التفضيل يجوز فيه المطابقة مع المفضل عليه، ويجوز فيه الإفراد، على نحو ما ورد في الآية الكريمة، أي: أن اسم التفضيل مفرد، والمضاف إليه جمع، والإفراد يقصد به التفضيل تنصيصًا(5)، من هنا كان استعمال

(1) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٣٧
(2) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٥٩.
(3) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ١٣٧
(4) ينظر: فتح القدير: ٣/٥٩٣.
(5) ينظر: حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: ٢/٤٦. وينظر: معاني النحو: ٤/ ٢٦٧و٢٧٢.

اسم التفضيل ﴿خَيْرُ﴾ وإضافته إلى لفظ (الراحمين) مفضٍ إلى أن هناك راحمين غير الله من خلقه، بيد أن صفة الخيرية مقترنة بالله دون غيره، وأن كل رحمة هي دون رحمة الله سبحانه وتعالى، بل ولا تدانيها، فضلًا عن القصر بقوله: (أنت): التي عززت هذا التفضيل، وعلى هذا النحو تبري هذه الأدوات اللغوية لتعبر عن المقاصد القرآنية، بأسلوب ألفه العرب، وبألفاظ مشحونة بطاقة حجاجية ودلالية لتصل بالمتلقي إلى أن يوقن أن الله وحده هو الرحمن الرحيم، ورحمته أوسع من أن تدركها بصيرة البشرية.

وترد جملة التوكيد لكونها يمكن قياسها وفقًا لأوضاع المرسل إليه، التي تترتب عليها أحوال الخبر (الخبر الابتدائي، والخبر الطلبي، والخبر الإنكاري). فالنوع الأول للمتلقي الخالي الذهن، والنوع الثاني يستعمل مع المتلقي المتردد في تصديق الخبر، والنوع الثالث يستعمل عندما يكون المتلقي منكرًا للخبر. وكل هذا التدرج في الخطاب مراعى فيه أحوال المتلقي، ومن هنا يبرز البعد الحجاجي لهذا الأسلوب، إذ القصد منه إقناع المخاطب والتأثير فيه. من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر].

لقد تصدرت الآية الكريم بعنصرين تنبيهين تمثلا في الأمر (قُلْ) والنداء (يا عبادي)، ولعل في ذلك تمهيدًا لما سيأتي من كلام فيه إخبار لن يكون عاديًّا بكل المقاييس، فالسياق سياق مغفرة ورحمة، وظف فيه البيان القرآني عناصر لغوية تضافرت في ترسيخ مفهوم المغفرة والرحمة، بل والدعوة إلى عدم القنوط واليأس.

فَالْخِطَابُ بِقَوْلِه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تَمْهِيدٌ بِإِجْمَالٍ يَأْتِي بَيَانُهُ فِي الْآيَاتِ بَعْدَهُ، وَعُمُومُ (عِبَادِي) وَعُمُومُ صِلَةِ (الَّذِينَ أَسْرَفُوا) يَشْمَلُ أَهْلَ الْمَعَاصِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ مِنَ الْخِطَابِ

الْمُشْرِكِينَ، عَلَى عَادَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي، الَّتِي تُفَرَّغُ فِي قَوَالِبِ تَسَعُهَا. وَالْإِسْرَافُ: الْإِكْثَارُ. وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْإِسْرَافُ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَالْأَكْثَرُ أَنْ يُعَدَّى إِلَى مُتَعَلِّقِهِ بِحَرْفِ مِنْ، وَتَعْدِيَتُهُ هُنَا بِـ(عَلَى)، لِأَنَّ الْإِكْثَارَ هُنَا مِنْ أَعْمَالٍ تَتَحَمَّلُهَا النَّفْسُ وَتَثْقُلُ بِهَا، وَذَلِكَ مُتَعَارَفٌ فِي التَّبِعَاتِ وَالْعُدْوَانِ، تَقُولُ: أَكْثَرْتُ عَلَى فُلَانٍ، فَمَعْنَى أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَنَّهُمْ جَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا تَثْقُلُهُمْ تَبِعَتُهُ، لِيَشْمَلَ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ شِرْكٍ وَسَيِّئَاتٍ[1]. من هنا وبإزاء هذا الإسراف الذي يولد ثقلًا وعناء على النفس يدفع بصاحبه نحو اليأس والقنوط من أن يغفر الله له، وهذا الشعور لا تستشعره إلا نفس مؤمنة، تكابد وطأة ثقل الذنب وتطمح للخلاص بمغفرة، والآية بعد ذلك تنبيه للنفس الغافلة للرجوع إلى الله، لذا نشهد في هذا التتابع الجملي ولاسيما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فالمفهوم من الجملة الأولى ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، يؤكده المنطوق في الجملة الثانية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فهذه الجملة تعليل لما سبقها، وهي إنما تأتي لتعيّن بمنطوقها المفهوم الذي تقتضيه خطة الخطاب، مُقْصِيَةً (الجملة الثانية) في الوقت نفسه مفاهيم أخرى محتمل ظهورها في عالم الجملة، وهي تسد الثغرات التي يمكن أن تتخلل كيان الكلام فَتَقْعُدَ به عن أداء وظيفته الحجاجية وأهدافه الإقناعية، التي يروم تحقيقها في أذهان المتلقين[2]. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ سبحانه وتعالى، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى أَعْظَمِ بِشَارَةٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلًا أَضَافَ الْعِبَادَ إِلَى نَفْسِهِ لِقَصْدِ تَشْرِيفِهِمْ، وَمَزِيدِ تَبْشِيرِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِسْرَافِ فِي الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْقُنُوطِ مِنَ الرَّحْمَةِ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْثِرِينَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَالنَّهْيُ عَنِ الْقُنُوطِ لِلْمُذْنِبِينَ غَيْرِ الْمُسْرِفِينَ مِنْ بَابِ الْأَوْلَى، وَبِفَحْوَى الْخِطَابِ، ثُمَّ جَاءَ بِمَا لَا يُبْقِي بَعْدَهُ شَكٌّ، وَلَا يَتَخَالَجُ الْقَلْبَ عِنْدَ سَمَاعِهِ ظَنٌّ، فَقَالَ:

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/٤١-٤٢.
(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣٧٣.

إنَّ اللَّه يَغفرُ الذُّنُوب، فَالْأَلَفُ وَاللَّامُ قَدْ صَيَّرَت الْجَمْعَ الَّذي دَخَلَتْ عَلَيْه لِلْجِنْس، الَّذي يَسْتَلْزِمُ اسْتِغْرَاقَ أَفْرَاده، فَهُوَ في قُوَّة: إنَّ اللَّهَ يَغْفرُ كُلَّ ذَنْبٍ كَائنًا مَا كَانَ، إلَّا مَا أَخْرَجَهُ النَّصُّ الْقُرْآنيُّ وَهُوَ الشِّرْكُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] ثم لم يكتف بما أخبر عباده من مَغْفرَة كُلِّ ذَنْب، بَلْ أَكَّدَ ذَلك بقَوْله: (جَميعًا) فَيَا لَهَا منْ بشَارَة تَرْتَاحُ لَهَا قُلُوبُ الْمُؤْمنينَ الْمُحْسنينَ ظَنَّهُمْ بِرَبِّهِمُ الصَّادقينَ في رَجَائه. وَمَا أَحْسَنَ مَا عَلَّلَ سُبْحَانَهُ به هَذَا الْكَلَامَ قَائلًا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فَهُوَ كَثيرُ الْمَغْفرَة وَالرَّحْمَة عَظيمُهُمَا بَليغُهُمَا وَاسعُهُمَا[1]، وتساوق التعليل مع التأكيد لمنطوق الكلام الذي قبله ومفهومه بأكثر من مؤكِد، تمثل أولًا بـ(إنَّ) وبالقصر بقوله (هو) وبصيغ المبالغة (الغفور) (الرحيم)، فهو وليس غيره الذي يغفر ويرحم، ومغفرته لا تدانيها مغفرة، ورحمته لا تدانيها رحمة، فبلغت هذه الجملة كل هدف وغاية قصد إليها الحق ﷻ من هذا الخطاب، وتتحول بذلك مع التعليل الذي قبلها إلى خطاب عام لا يتعلق بالمقصودين من الآية، وإنما كل ذي ذَنْب من المؤمنين، معززة بكل الأدوات اللغوية المذكورة آنفًا، والتي شحنتها بطاقة حجاجية وإقناعية لا يمتلك معها المتلقي إلا التسليم والاقتناع.

ومن استعماله صيغة المبالغة والتوكيد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ [الفرقان:٥-٦].

جاءت الآية الكريمة ردًّا على مقولات سردها المشركون تطعن بمصداقية ما جاء به القرآن، وإنه وحي من الله ﷻ، من هنا تصدير الرد بالفعل (قُلْ) يعد عنصر حجاج أول، بأن القرآن ليس بإفك ولا أساطير اكتتبها، وللإيماء أنه منزل من الله، ولابد في هذا المقام من ملاحظة مدى التعالق بين الفعل وما يليه من كلام تعالقًا يؤدي وظيفة الإقناع وبسط الحجة وإقامتها على

(١) ينظر: فتح القدير: ٤/٥٣٨.

المتلقين من الخصوم، أما الاحتجاج على فيض رحمة الله، فظهر بالتذييل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فجملة التوكيد هذه جاءت لتقرر حقيقة أنه قد يتسلل للأذهان أن مقترف هذه الأفعال والأقوال حقيق على الله أن لا يغفرها له، وأن لا تناله رحمة منه، فجاء الخبر على هذه الصيغة من التوكيد لدفع كل شك وإنكار، ولاسيما أنه اقترن بصيغ المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للتدليل على عِظَم هذه الرحمة والمغفرة. والخبر بعد ذلك للتنبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات المحكية، لكن أخر عنهم لما أنه سبحانه وتعالى أزلًا وأبدًا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير، فكأنه قيل: إنه جلَّ وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار، فلذلك لا يعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه مع كمال استجابكم إياها وغاية قدرته سبحانه وتعالى عليها ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صبًّا، وجوز أن يكون الكلام كناية عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال: ذكر المغفرة والرحمة بعد ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب العظيمة المتجاوزة عن الحد مغفورة إن تابوا، وأن رحمته واصلة إليهم بعدها، وأن لا ييأسوا من رحمته تعالى بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصمة الشديدة(1). وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨].

وتأتي صيغ المبالغة في سياق الأوامر الشرعية لتكشف للمتلقي عن أن الرحمة والمغفرة متماهية مع كل أمر وتشريع إلهي على نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب:٥٩].

جاءت هذه الآية لترصد عادة ألفتها النساء، إذ "كان من عادة العربيات

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، أبو الثناء الآلوسي: ٩/٤٢٦-٤٢٧.

التبذل في معنى الحجبة، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكر فيهن، أمر الله تعالى رسوله عليه السلام بأمرهن بإدناء الجلابيب، ليقع سترهن، ويبين الفرق بين الحرائر والإماء، فيعرف الحرائر بسترهن فكيف عن معارضتهن من كان عَزِلًا [أي: من عرف عنه كثرة التغزل بالنساء] أو شابًا، وروي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤية النساء ومعارضتهن ومراودتهن"(١).

والتذييل الذي ختمت به الآية في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ جاء متناسبًا للقضية المطروحة، فهي تمس النساء من جانب، فالحجة الأولى هو التزام اللباس الشرعي طاعة لله سبحانه وتعالى، الذي لم يشرع شرعًا إلا وفيه مصلحة للعباد، وهي هنا حفظ الجسد من أن تغتاله أعين الفاسدين، وحفظ النفس من الأذى، فضلًا عن أن فيه صَفْحًا عَمَّا سَبَقَ مِنْ أَذَى الْحَرَائِرِ قَبْلَ تَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى هَذَا الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ من جانب آخر. واستعمال فعل الكينونة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ القصد منه التعبير عن الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، أي: أزلًا وأبدًا، وفي ذلك تعزيز لكونه سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ أي: محَّاء للذنوب عينًا وأثرًا ﴿رَّحِيمًا ﴾ مكرمًا لمن يقبل عليه، ويمتثل أوامره، ويجتنب مناهيه(٢). فخروج المغفرة والرحمة من قيد الزمان والمكان والأشخاص يوقع أبلغ الأثر في نفس المتلقي، ولاسيما النفوس الأوابة بعد زللها.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: ٤/ ٣٩٩.
(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٥/٤١٢

الخاتمة

على هذا النحو تتجلى القوة الحجاجية للفعل (قُلْ)، وذلك بما يحمله من مقتضى معجمي وتداولي، يرشحه ليكون عنصرًا فاعلًا وطاقة حجاجية، قادرة على إقناع المتلقي بالخطاب الذي يلي هذا الفعل، ولقد شكل مع أدوات لغوية كثيرة عنصر تنبيه، ولا سيما أن الآمر هو الله سبحانه وتعالى، والمأمور الرسول صلى الله عليه وسلم، والخطاب قيد الدراسة كان مختصًّا بآيات الرحمة التي تنوعت سياقاتها القضايا المطروحة فيها، بحسب أغراضها ومقاصدها، ولم يقتصر ذكر رحمة الله على مواضع التبشير، وإنما نجد رحمة الله ماثلة في مواضع التهديد، واحتدام الجدل مع خصوم القرآن، بإمهالهم وتأجيل العقوبة لعلهم يؤمنون بدعوة الرسول ويصدقون بالقرآن، ولا يخفى على ذي الفطرة السليمة أن الله غني عن إيمانهم، وهو سبحانه وتعالى إن أمهلهم فهذا من حلمه ولطفه بعباده، وهذا مظهر من مظاهر رحمته سبحانه وتعالى بخلقه، فتتجلى آثار رحمته حتى في تهديده. كل هذه المدلولات وغيرها عمد القرآن إلى التعبير عنها بأساليب لغوية، تحمل ما تحمله من مهارات أسلوبية ومؤثرات بلاغية وطاقة حجاجية، لتوصل المتلقي إلى الاقتناع والتسليم بما جاء به القرآن، بل ويتبنى الإيمان بالله سبحانه وتعالى فكرًا وعقيدةً.

فهرس المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت-لبنان ٢٠٠٤م.

٣. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، محمد الشاوش، الطبعة الأولى، جامعة منوبة/ كلية الآداب/ تونس- المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، المحقق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الطبعة: الأولى دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٨هـ.

٥. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٤٢٠هـ.

٦. التحرير والتنوير، ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ.

٧. التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة، بيروت ٢٠٠٥م.

٨. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م

١٠. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، الطبعة الثانية، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن ٢٠١١م

١١. التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤١٠هـ.

١٢. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، الطبعة الثانية، دار الفارابي، بيروت- لبنان ٢٠٠٧م.

١٣. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

١٤. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، أبو الثناء الآلوسي، المحقق: علي عبدالباري عطية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

١٥. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، المحقق: عبدالرزاق المهدي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٢هـ.

١٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة السابعة عشرة، دار الشروق، بيروت- القاهرة ١٤١٢هـ.

١٧. الكتاب، سيبويه، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٨. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ.

١٩. لسان العرب، ابن منظور الأنصاري الإفريقي، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ.

٢٠. اللسان والميزان العقلي أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٨م.

٢١. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيد المرسي، المحقق: عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الطبعة الأولى،، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
٢٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيِّم الجوزية، المحقق: عماد عامر، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢٤. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، الطبعة السادسة، دار المعرفة بيروت - لبنان ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٢٥. فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت ١٤١٤هـ.
٢٦. معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، الطبعة الثانية، شركة العاتك للطبع والنشر، القاهرة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٢٧. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت
٢٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

- **الدوريات:**

١. الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، عالم الفكر، العدد٢، المجلد ٤٠-٢٠١١
٢. سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، السنة ٢٥- العدد: ٦٢-٦٣، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

- **الرسائل الجامعية:**

١. إستراتيجية الخطاب في أخبار الثقلاء مقاربة تداولية، رسالة

تقدمت بها صفية حمادو إلى جامعة مولود معمري-تيزي وزو/ الجزائر- كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية لنيل شهادة الماجستير.

- **بحوث من الإنترنت:**

١. الحجاج في اللسانيات التداولية.. دراسة لنماذج من القرآن الكريم، ابن أحمد عالم فايزة، http://kalema.net/

٢. من مفاهيم الرحمة في القرآن الكريم: رحمة الهداية.. رحمة العلم.. رحمة التمكين، عمران نزال، http://almarefh.net/

الرحمة في القرآن
(الطفل أنموذجًا)

إعداد:
د. عبدالرؤوف أحمد بني عيسى
أستاذ مساعد – كلية العلوم التربوية
قسم التربية الإسلامية
جامعة العلوم الإسلامية العالمية –الأردن

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛ فإن الرحمة خلق عظيم وصفة نبيلة، اتصف بها الله جل جلاله، ونبيه ﷺ، والمؤمنون، وهي كذلك سمة بارزة في ديننا الإسلامي الحنيف. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقد اهتم الإسلام بالرحمة في جميع المخلوقات، ومن بينها اهتمام الإسلام برحمة الطفل، والطفولة من حيث كونها نعمةً وهبةً ربانيةً، تحث المنعم عليه بها لأن يحمد الله سبحانه وتعالى ويشكره؛ لكونها فضلًا كبيرًا، ونلحظ ذلك في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاءه الولد، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]. فالأطفال تشتاقهم النفوس، وتهفو إليهم القلوب، علت درجة ذلك الإنسان أو قلت، ويستوي في ذلك صفوة الله من خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، ومن عداهم من البشر أيا كانوا، بدليل قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن

لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران]. وطلب الأطفال تحقيقًا للأبوة المستمرة دعوة يتقرب بها الإنسان إلى ربه واهب الحياة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان].

كما أن رحمة القرآن بالطفل، إشارة واضحة إلى أن الإسلام لم يجعل تلك الرحمة، وصايا أخلاقية ومبادئ مثالية، متروك للأفراد أمر تجسيدها في الواقع، بحيث يمكن انتهاكها وتجاوزها خفية، وإنما ربى عليها، وأقام الوازع الداخلي لمراقبتها، ورتب الثواب الأخروي على التزامها والعقاب على انتهاكها، وعضد ذلك بالتشريعات الفقهية الملزمة.

وكان ذلك من رحمة الله سبحانه وتعالى، حيث قال جل شأنه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ [مريم:٥٠]، وقوبلت هذه الهبة وتلك الرحمة بالحمد والثناء والشكر والدعاء؛ لأنها استجابة لمطلبٍ تهفو إليه النفس الإنسانية لأنسها به.

وقد جاء التوجيه كذلك إلى سيدنا زكريا عليه السلام بأن يكثر من الذكر والتسبيح بعد بشارته بالولد، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١]، وهنا قرن بين البشارة بالولد والإكثار من الذكر والشكر لله سبحانه وتعالى؛ لأن الولد من كبرى النعم على الوالد.

ويتضح من هذا الاقتران أن الذكر والشكر فيهما طلب منةٍ أخرى، وهي أن يبارك في الطفل، وهي رغبة أخرى، فكما أن نعمة الوجود للطفل قد تحققت، فإن نعمة البركة في وجوده مرجوة كذلك.

ونظرًا لعمق هذا الموضوع، وأثره في الناحية الاجتماعية والتربوية والنفسية، فقد اتجه القصد إلى البحث في رحمة القرآن بالطفل من الولادة حتى البلوغ، وتتبع عرض القرآن لهذا الجانب، والأخذ بما فقهه

المفسرون والعلماء من الآيات التي ذكر فيها الطفل وما يقاربه من المدلول، وقد استنبط الباحث من خلال تلك الآيات الكريمة ما قدره الله ﷻ له من الفوائد والتعليقات التي يرجو أن يكتب لها القبول والنفع.

وحسبما تقتضيه طبيعة البحث العلمي، فقد جاء هذا البحث مقسمًا إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة:

المبحث الأول: أهمية الرحمة في القرآن الكريم، وفيه مطلبان، هما:

المطلب الأول: مفهوم الطفل والرحمة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: القرآن الكريم يدعو إلى الرحمة.

المبحث الثاني: الطفل في معرض الامتنان، وفيه ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: بيان كون الطفولة نعمةً تستحق الشكر.

المطلب الثاني: تحقيق إنسانية الطفل ومشهده في الوجود.

المطلب الثالث: احترام ذاتية الطفل وطموحاته.

المبحث الثالث: مظاهر الرحمة بالطفل في القرآن الكريم، وفيه أربعة مطالب، هي:

المطلب الأول: الرحمة بالطفل يتيمًا.

المطلب الثاني: الرحمة بالطفل مستضعفًا.

المطلب الثالث: الرحمة بالطفل رضيعًا.

المطلب الرابع: التوجيهات التربوية والأدبية المستفادة من رحمة القرآن بالطفل.

الخاتمة، وفيها أبرز نتائج البحث.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

يحتل الطفل في أي مجتمع مكانة خاصة في الأسرة والبناء الاجتماعي وتقدم له خدمات صحية، وتعليمية، وترفيهية، واجتماعية لحماية حقوقه ورعايته قبل ميلاده وبعده، اعتمادًا على المواثيق الدولية التي تنادي بحقوق الطفل. وفي المقابل يوجد ضعف في الوعي العام في المجتمع بما يتعلق بنظرة القرآن الكريم إلى الطفل، ولذا فإن مشكلة الدراسة تتحدد بالإجابة عن السؤال التالي: ما المضامين القرآنية المتعلقة بالرحمة بالطفل منذ ولادته وحتى بلوغه؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق زمرة من الأهداف، يمكن إجمالها، بـ:

١. تأصيل خلق الرحمة في القرآن الكريم.

٢. الكشف عن المضامين المرتبطة بالرحمة بالطفل من منظور قرآني.

٣. دعم البحث في مجال التربية القرآنية بوصفه أحد مجالات البحث في التربية.

٤. تزويد المؤسسات التربوية التي تعنى بالطفل بمعلومات قرآنية تربوية، يمكن الاستفادة منها في العصر الحالي.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية الدراسة لأهمية الموضوع، وهو الرحمة في القرآن، وجوانب الرحمة فيه متعددة في صورها وأشكالها، وتم اختيار الطفل أنموذجًا، لأن الاهتمام به ظاهرة قديمة حديثة، والدراسات المتعلقة بها متعددة، ومع ذلك فالدراسات التي انبرت للحديث عن إبراز جوانب الرحمة في القرآن الكريم، تعد قليلة في حدود علم الباحث؛ لذلك فإن

دراسة الرحمة في القرآن الكريم، "الطفل أنموذجا"، تظهر بشكل واضح سبق القرآن الكريم للمواثيق المستحدثة التي نادت برعاية الطفل، وفي ذلك دعوة وترغيب إلى الالتزام المهتدي بما سبق إليه القرآن الكريم من إشارة لتلك الجوانب، وتفعيلها تفعيلًا جادًّا فكرًا وسلوكًا في المجتمع المسلم، وفي المنظومة التربوية الإسلامية المعاصرة.

ويمكن إجمال أهمية الدراسة بالنقاط التالية:

١. تنمية الاتجاهات الصحيحة من خلال الرجوع إلى فكر الأمة الإسلامي، والأخذ به وتطبيقه.

٢. إن دراسة الآثار المتعلقة بالطفل من منظور قرآني تسهم في إبراز:

أ. الأحكام التربوية إذا استندت إلى القرآن الكريم نجد لها تأثيرًا مرجعيًّا، وقوة مؤثرة تؤدي إلى التطبيق.

ب. تزويد المؤسسات التربوية، وخاصة من يتعامل مع الأطفال بمعلومات جديدة، ومن منظور قرآني تساعدهم على تقديم الإرشاد والتوجيه للأطفال، فهم أحوج الناس إلى اللطف والشفقة والرفق والرحمة، لأنهم من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث في الكشف عن المضامين المتعلقة بالرحمة بالطفل في القرآن الكريم، على منهجيّ البحث: (المسحي/ الوصفي)، و(التحليلي/ الاستنباطي)؛ من خلال استقراء وتحليل الآيات القرآنية الكريمة، وذلك من أجل وصف واستنباط هذه المضامين والآثار المتعلقة بها.

المبحث الأول
أهمية الرحمة في القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
مفهوم الطفل والرحمة في القرآن الكريم

مفهوم الطفل:

يلحظ على معنى الطفل في اللغة الصغر والمولودِيّة، وهي حالة ظاهرة من الضعف، تستدعي العناية والرعاية، قال في لسان العرب: (الطفل والطفلة: الصغيران، والطفل: الصغير من كل شيء، والجمع: أطفال، لا تُكسر على غيره، والطفل: المولود، وولد كل وحشية أيضًا طفل، ويكون الطفل واحدًا وجمعًا مثل الجنب)[(١)].

والطفل كما يظهر في القرآن الكريم هو: من سن الولادة حتى البلوغ، وهذا ما صرّحت به الآية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٩]، كما عرفَت هيئة الأمم المتحدة الطفل بأنه: (إنسان لم يتجاوز الثامنة عشرة، ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك، بموجب القانون المنطبق عليه)[(٢)].

(١) ابن منظور، لسان العرب، (١١/٦٠٠)، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (٤/٦-٧).
(٢) قنديل، مدخل لرعاية الطفل والأسرة، ص٢٣.

مفهوم الرحمة:

الرحمة لغةً: الرقّة والتّعطّف، والرحمة: المغفرة، وتأتي كذلك بمعنى: الرزق والغيث، والرحمة في بني آدم: رقّة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه، وإحسانه، ورزقه.(١)

أما في الاصطلاح: فالرحمة إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك، فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة بعض الأمهات.(٢)

ومن معاني الرحمة في القرآن:

ان اختص الله ﷻ من اتبع هدي القرآن الطريق السديد الذي من شأنه أن يوصل ذاك المهتدي إلى بلوغ رضا الخالق، وهو مراد كل من ارتضى الإسلام دينا، وبما أنَّ الرحمة التي اختص الله بها عباده لا تكون إلا لمن أراد له الهداية، فقد جاءت نصوص القرآن الكريم في كثير من مواضعها مؤكدة ذلك ومبينةً له كما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

بعد تأمل هذه الآيات، يتبين أنَ الله عز وجل هو الأصل والمصدر الأول

(١) لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٢٣٠ ط، صادر
(٢) ابن القيم، اغاثة اللهفان ج٢، ص١٦٩-١٧٥

للرحمة، فمن أسمائه الحسنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢]. يقول العلماء: كلمة هو: تفيد الحصر والقصر.

والمسلم يفتتح قراءة سور القرآن الكريم بالبسملة، مع إقرار الرحمة لله رب العالمين، بحيث يقول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والمسلم يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رحمته الواسعة في صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة خلال قراءته لسورة الفاتحة. في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٢-٣].

فرحمة الله واسعة وشاملة وعظيمة، أعظمها تكون يوم القيامة.

المطلب الثاني
القرآن الكريم يدعو إلى الرحمة

الرحمة خلق متأصل في النفس الإنسانية، وشامل لكل قيم السلوك الفاضل في التعامل بين الناس، ومن هنا كانت الهدف الأسمى، والغاية العظمى للرسالة الإسلامية، لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

ويؤكد الله جل جلاله، هذا المفهوم في نفوس المسلمين من خلال تكرر مفهوم الرحمة في القرآن الكريم؛ في أول كل سورة من سوره، ومواضع أخرى منه، حتى يكون التعامل بينهم مبنيًّا على هذا الأساس، كما يؤكد النبي ﷺ إلى أن الراحمين يستحقون رحمة الله، لقوله ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)]، وقوله «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»، في قوله «من عباده» بيانية، ومقتضاه أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة، وتحقق بها، بخلاف من فيه أدنى رحمة، لكن ثبت في

(١) البخاري (١٢٢٤)، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله، ص٤٣٣.

حديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود وغيره «الراحمون يرحمهم الرحمن»[١]، والراحمون جمع راحم، فيدخل كل من فيه أدنى رحمة، وإن قلَّت.[٢]

والقرآن الكريم يدعو إلى الرحمة من خلال حثه على الصدقة والإنفاق، والعفو والتسامح، والرفق والمحبة، والصلح بين الناس، ونبذ البخل والكره والقسوة والعنف والظلم والاستبداد والحقد والانتقام، وخص الله سبحانه وتعالى اسمه بالرحمن، بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرحمن] والرحمن صيغة شمول واستغراق في الرحمة، بحيث تشمل كل ما خلقه الله من إنسان وشجر وسماء وأرض وشمس وقمر ونار وجنة وغيرها، فكل ما ذكره الله سبحانه وتعالى من مخلوقاته في سورة الرحمن، والذي أعقبه بالسؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تذكيرًا بحقيقة الرحمة، التي كتبها الله على نفسه، بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ [الحجر]، تعليم للمؤمنين أن يدعوه باسم الغفور الرحيم.

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[٣].

وهذه الرحمة هي رحمته التي خلقها لعباده، وجعلها بينهم، والتي أمسكها هي ما يتراحمون به يوم القيامة، مما كان بينهم في الدنيا، ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها، أي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دليل على أن في نفوس الملائكة رحمة على أهل الأرض[٤].

(١) سنن الترمذي (١٩٢٤)، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في رحمة المسلمين، (ج٤)، ص٢٨٤. خلاصة حكم المحدث: قال ابو عيسى: حديث حسن صحيح.
(٢) فتح الباري لابن حجر (ج٣/ص١٥٨) بتصرف
(٣) البخاري (٥٦٥٤)، ص ٢٢٣٦.
(٤) شرح ابن بطال (٢٥٤/١٧)

المبحث الثاني
الطفل في معرض الامتنان

وفيه أربعة مطالب، هي:

المطلب الأول
تحقيق إنسانية الطفل ومشهده في الوجود

إن من يتأمل الآيات الكريمة في شأن الطفولة، يجد أنها أخذت من الاهتمام والحفاوة البالغة شيئًا كثيرًا، فهي حق إنساني جدير بالبحث والبيان؛ فالطفل كائن له الحق بأن يعترف به في الوجود الإنساني والكوني، ولذا حذر القرآن الكريم من الوأد في موضعين، جاءا بصيغة منفرة مهولة، تجرّد صاحبها من الرأفة الإنسانية، وتبين أنه يئد إنسانيته كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، ففي هذه الآيات يصور لنا القرآن أحوال الناس في الجاهلية تجاه الطفلة الأنثى؛ فهم مترددون بين أمرين: إما إبقاء الطفلة حيةً على مضض، أو الخيار الآخر وهو: دفنها حية، والتعبير ﴿يَدُسُّهُۥ

﴿فِي ٱلتُّرَابِ﴾ يوحي بالمبالغة في القتل والوأد، قال أبو السعود: "﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾: أي أُخبر بولادتها، ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾: أي صار أو دام النهار كله، ﴿مُسۡوَدّٗا﴾: من الكآبة والحياء من الناس، واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش، ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾: ممتلئ حنقًا وغيظًا، ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾: أي يستخفي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: من أجل سوءته، والتعبير عنها بـ ﴿مَا﴾؛ لإسقاطها عن درجة العقلاء، ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾: أي مترددًا في أمره، محدثًا نفسه في شأنه: أيمسكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: ذل ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ﴾: يخفيه ﴿فِي ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، والتذكير باعتبار لفظ ﴿مَا﴾"[(١)].

وهذا التردد علاوةً على ما فيه من فراغٍ للقلب من العاطفة، فيه أيضًا تردد في الاعتراف بإنسانية هذه الطفلة، وهذا لا يقبله القرآن.

ومن رحمة القرآن بالطفل أن جعل له الحق في العيش والحياة، ولم يصوّره عبئًا ثقيلًا على الأسرة والمجتمع، فنهى الآباء عن قتل أولادهم مخافة الفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء]، وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١].

وهناك سرٌّ في التغاير في التعبير القرآني بين ما جاء في سورة الإسراء، وما جاء في سورة الأنعام، وممن ذكر ذلك من العلماء الآلوسي، حيث قال: "وقيل: الخطاب في كل آية لصنف، وليس خطابًا واحدًا، فالمخاطب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ من لا فقر له، ولكن يخشى وقوعه في المستقبل، ولهذا قدم رزقهم ها هنا في قوله جل جلاله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية، فقيل: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، وهو كلام حسن"[(٢)].

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/١٢١)
(٢) الآلوسي، روح المعاني، (٨/ ٥٤).

وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل الوالد برزق ولده، فيدفعه ذلك إلى التخلص منه، فهذه صورة أخرى، ووجه آخر للوأد، ولكنه للذكر والأنثى معًا.

وقد رغَّب القرآن بالمولود الأنثى، وبين أنه ربما كان أفضل من المولود الذكر بكثير، وربما فاقه ومازه، وهذا يتضح لنا في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٣٦].

وبتأمل الجملة المعترضة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يتبين أنها رفعت شأن هذا المولود الأنثى، وبيّنت أن الطفل لا ينبغي أن يحكم عليه لمجرد جنسه، فليس الجنس عائقًا للرقي في الرتبة الإيمانية، وليس مانعًا من الكمالات العقلية والنفسية، وعلى هذا الأساس لم يفرق القرآن بين المولود الأنثى والمولود الذكر في الإنسانية.

قال الزمخشري: "﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ من التعظيم للموضوع والرفع منه، وليس الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها"(١) وقال محمد عبده: "﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾أي بمكانة الأنثى التي وضعتها، وأنها خير من كثير من الذكور، ففيه دفع لما يوهمه قولها من خشية المولود وانحطاطها عن مرتبة الذكور، وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلب أو تمنت ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر"(٢).

وقد بين القرآن الكريم في سورة الشورى أحوال الناس في الأولاد، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (١/ ٣٨٥).
(٢) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٣/ ٢٥٥).

قال ابن كثير: "جعل الناس أربعة أقسام؛ منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد له"(١).

وفي تقديم ذكر الإناث تنويهٌ بشأنهن، ورفع لمكانتهن، قال البيضاوي: "المعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفةً على مقتضى المشيئة؛ فيهب لبعض إما صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جميعًا، ويعقم آخرين، ولعل تقديم الإناث؛ لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدّهن بلاءً، أو لتطييب قلوب آبائهن"(٢).

إذن يظهر أن السر في تقديم الإناث على الذكور هنا لبيان أحقية الأنثى في الوجود، ومكانتها في المجتمع، ويؤخذ هذا أيضًا من آيات أخرى من مثل ما جاء في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١]، حيث حفظ القرآن حق الأنثى وأثبته؛ اعترافًا منه بإنسانيتها، قال الشيخ محمد عبده: "اختير فيها هذا التعبير؛ للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء، فكأنه جعل إرث الأنثى مقررًا معروفًا، وأخبر بأن للذكر مثله مرتين، أو جعله هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولًا عليه، يعرف بالإضافة إليه، ولا يلتئم السياق بعده كما ترى"(٣).

وقد بين القرآن فاعلية الطفولة في الحياة، وأن من باب الإنسانية للطفولة أن تحفظ من الضياع، ويبرز هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف:٢١].

والبعد الاجتماعي الذي ترمي إليه الآية هنا: هو أن لا تجعل الطفولة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ١٥٤)
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، (٢/٣٦٦)
(٣) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٤/ ٣٣٣).

ضائعةً تائهةً أو بائسةً، فلربما كان فيها من المواهب والنبوغ ما يمكن أن يعود بالفائدة والنفع على المجتمع، لا أن يكون عنصر فساد، وهذا ما عليه حقوق الإنسان اليوم، حيث تثبت للطفل الحق في التمتع بطفولته ومعيشته، وعدم تكليفه بالعمل الشاق الذي لا يتوافق مع سنه، وهذه الحقوق أخذت بها الهيئات الإنسانية، وأصدرت ميثاقًا لحقوق الطفل في اليونيسيف تتلخص مبادئه في (عدم التمييز، وتضافر الجهود من أجل المصلحة الفضلى للطفل، والحق في الحياة، والحق في البقاء، والحق في النماء، وحق احترام رأي الطفل)[1].

المطلب الثاني
احترام ذاتية الطفل وطموحاته

مما ركز عليه القرآن الكريم رحمة بالطفل، تحقيق إنسانيته واحترام مشاعره وطموحاته ومواهبه، فقد قدم القرآن نموذجًا في ذلك، وهو ما جاء في سورة سيدنا يوسف ﵇، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف:٤-٦].

هنا لدى سيدنا يوسف ﵇ رؤيا وطموح وتطلعات، وقد قوبلت هذه التطلعات وتلك الرؤيا بتعزيز من قبل والده نبي الله يعقوب ﵇، فلم يلحظ منه تعنيفًا على تلك الرؤيا، ولم يأمره بصرف النظر أو الإضراب صفحًا عن

(١) هدى الناشف، الأسرة وتربية الطفل، ص ٤٨-٥١ باختصار.

هذه الرؤيا، بل أراه احترامًا لذاتية الطفولة، وتكريمًا لقيمة الموهبة، وحسن تعامل مع التطلعات والإبداع، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، استخدم هذه الكلمة للتلطف والتحبب، وهي كلمة يُحتاج إليها لتقع في نفس الطفل موقعها، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾، قال ابن عاشور: "﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وهذا التصغير كناية عن تحبيب ورحمة وشفقة. نزل الكبير منزلة الصغير؛ لأن شأن الصغير أن يحب ويشفق عليه، وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له"[1]. ثم بدأ يبين له أن هذه الرؤيا سيكون لها شأن، حيث سيجتبيه ربه، ويعلمه من تأويل الأحاديث.

وهذا تعزيز للطموح، وهو أثر نفسي عميق في الطفل، فإذا رأى تحفيزًا نشأ في نفسه الإبداع، وتعززت لديه القدرة على المضي قدمًا في تحقيق تطلعاته وآماله.

ويكشف هذا الموقف القرآني أن الطفولة مرحلة عمرية حرجة، تحتاج إلى الحذر والحيطة في التعامل معها، وتحتاج إلى معرفة كيف يفكر الطفل، وكيف يشعر، وكيف ينبغي أن يوجه، وما هي الطرق في تدارك مواقفه، بعيدًا عن الضغط النفسي، الذي يحد من نشاطه وفاعليته.

وهذا الموقف القرآني يرشد إلى ما يسمى التوازن النفسي أو القيمة النفسية، ويقصد بذلك: (التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية، التي تطرأ عادةً على الإنسان مع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية، ويعني: التكامل بين الوظائف النفسية؛ أي خلو الإنسان من الصراع الداخلي، وما يترتب عليه من توتر نفسي وقلق وتردد، كما يعني: قدرة الفرد على حسم الصراع في حال وقوعه)[2].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١٧)

(٢) أ.د. هناء يحيى أبو شهبة، ملخص بحث (السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية)، ص١٣٤، ضمن المؤتمر العلمي الأول للسنة النبوية (السنة النبوية في الدراسات المعاصرة)، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٩ - ٣٠ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ١٧ - ١٨ نيسان ٢٠٠٧م.

المطلب الثالث
بيان أثر الطفولة في الحياة

بين القرآن الكريم نفع الطفولة وفاعليتها في الحياة، وأبرز القيم التي انطوت عليها، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

فهذه صورة من الطفولة في طور النشأة، وقد عبّر القرآن عن هذه المرحلة العمرية بهذا التعبير: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، إذ قد توكل بعض الأعمال للطفل تعويدًا له على الاحتمال والصبر والجلد، وهذا أمر مرغوب فيه، ولكن أن يكون ذلك ضمن المقدور والمستطاع، وفي إطار هذا الهدف.

والملاحظ هنا: أن الخطاب بين النبي الوالد وولده فيه مشورة من جهة، واختبار للجانب التربوي الذي ينتظره الوالد من ولده ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

هذه الآية حملت من معاني الفاعلية للطفولة النوعية الواعية ما يجعلها مثالًا للسلوك النوعي والأدب العظيم.

وثمة نموذج آخر يحتوي على جانب عميق الدلالة في الناحية التربوية والنفسية في الاهتمام بنبوغ الطفل وتنمية إدراكاته، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم:٥٠].

قال ابن كثير: "﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير، والانكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث"[١].

وهذا نبوغ على غير العادة في الأطفال، قال ابن عاشور: "هذا يقتضي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/ ١٥٣).

أن اللّه ﷻ أعطاه استقامة الفكر، وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيه محمدًا ﷺ الاستقامة وإصابة الرأي في صباه، ويبعد أن يكون يحيى عليه السلام أعطي النبوة وهو صبي؛ لأن النبوة رتبة عظيمة، فإنما تعطى عند بلوغ الأَشُدّ"[(١)].

والقرآن هنا يشير إلى وجود النبوغ في حال الطفولة والصبا، وينبه إلى ضرورة استغلال هذه الطاقات التي تظهر بين أفراد الأطفال، وقد يكون النبوغ بالعلم والمعرفة والإدراكات العقلية والملكات الفكرية، حيث يصبح لهذه الإدراكات الذهنية أثر في صوغ تصوراته وتكوينها حول الوجود، وحيال المواقف المختلفة في الحياة.

وقد يكون على المستوى التقني والعملي، على معنى أن مشارب النبوغ والفاعلية في الطفولة متعددة، ومتنوعة تنوّع الإنسان واستعداداته التي وهبه اللّه ﷻ إياها.

ولا شك أن هذا لفت لأنظار المربين إلى ضرورة التوجيه المبكر، والرعاية الأولية للطفولة التي تبدي نبوغًا وفهمًا حيث تعزز فيها الدافعية للتفكير، وتنمي عندهم جوانب الإبداع.

وقد نبه النبي ﷺ من خلال النماذج العملية إلى ضرورة تعزيز الملكات الذهنية للطفولة الموهوبة، فقد روى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا، قال: من وضع هذا؟ فأُخبر، فقال: اللهم فقهه في الدين»[(٢)].

يقول الدكتور علي عجين: "إن مبادرة الغلام لوضع الوضوء للنبي ﷺ دون أن يطلب منه ذلك علامة على فقهه، ودقة ملاحظته، وقوة تركيز

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٦/١٨).
(٢) العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث رقم ١٤٣، (١/١٧٠)، ومسلم (٤/١٩٢٧ رقم٢٤٧٧).

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

فيما يحتاجه النبي ﷺ، ولذلك سأل النبي ﷺ من وضع هذا؟ والعادة أن يضع ذلك أحد الكبار من أهل أو أصحاب، أما أن يبادر غلام صغير لمثل هذا التصرف، فهذه علامة نبوغه، فبادره النبي ﷺ بالدعاء له في الفقه في الدين، لما رأى من استعداد ذاتي للعلم والفقه في شخصية ابن عباس رضي الله عنهما"[١].

وعلى هذا، فإنه لا بد من إتاحة الفرصة للطفل لإظهار موهبته وعدم كبت شخصيته، و(إن عدم اكتراث الوالدين لمواهب الأبناء، وعدم وجود ما يزكيها في البيت، مع عدم تقبل الوالدين أو المجتمع للأفكار الغريبة غير التقليدية لدى المتفوق، علامة على النظرة السلبية للمتفوق، تشكل مشكلةً أساسيةً في طريق الموهوب، قد تكون عائقًا لإبراز موهبته فيما بعد)[٢].

(١) عجين، علي إبراهيم، رعاية الموهوبين في السنة النبوية- ابن عباس نموذجًا، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، عدد ٤، ذو الحجة ١٤٢٩هـ - كانون أول ٢٠٠٨م، ص ١٦٢.

(٢) شقير، زينب محمود، رعاية المتفوقين والموهوبين والمبدعين، ص ٥٧.

المبحث الثالث
مظاهر الرحمة بالطفل في القرآن الكريم

المطلب الأول
الرحمة بالطفل يتيمًا

معنى اليتيم شرعًا: هو المنفرد عن الأب؛ لأن نفقته عليه لا على الأم، وفي البهائم: هو المنفرد عن الأم؛ لأن اللبن والأطعمة منها(1).

وقال الزمخشري: "اليتامى: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم، واليتم: الانفراد، ومنه: الرملة اليتيمة والدّرة اليتيمة، وقيل: اليتم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات"(2).

والطفل اليتيم كغيره من الأطفال له الحق أن يحصل على قدر مناسب من الحب والحنان والعطف والتوجيه والإرشاد. وقد يعاني الطفل اليتيم من مشكلات منها: العوز المادي، كنقص الغذاء والكساء والمسكن، والحرمان الانفعالي من الحب والعطف والحنان، وقد يؤدي عدم الاهتمام به والرعاية السليمة له أن يتشرد ويتخلف، وأن يصبح جانحًا، حيث أظهرت نتائج الدراسات التي أجريت في هذا المجال أن إهمال اليتيم يؤدي إلى التأخر الدراسي، وإلى تكوين العقد النفسية، مثل الشعور بالنقص والدونية.

(1) الجرجاني، التعريفات، ص٣٣١.
(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (١/٤٩٤).

وتؤكد الدراسات على أهمية المؤثرات الأسرية في نمو الطفل وتكوينه الشخصي، عندما يفقد الطفل أحد أبويه في طفولته المبكرة، حيث إن فقدان الطفل لأحد أبويه إن لم يتوفر له البديل المناسب يمكن أن يؤدي إلى مشاعر بعدم الأمن والقلق والاعتمادية بالإضافة إلى تأثيرات في الشخصية يمكن أن تكون خطيرة.

وقد رتب القرآن الكريم للطفل اليتيم حقوقًا ماديةً ومعنويةً؛ رحمةً به وبحالته التي توجب شفقة الآخرين عليه؛ إشعارًا بأن اليتم للطفل ليس شيئًا شائنًا، وليس دليل نقص في إنسانيته، وأخذت الرحمة بالطفل اليتيم في القرآن أكثر من بعد نفسي ومادي، وقد تمثل ذلك فيما يلي:

- **عدم قهر اليتيم:**

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى:٦-٩].

وقد استشعر نبينا ﷺ مرارة اليتم، فكان ذلك حافزًا على إكرام اليتيم، ومراعاة آلامه النفسية ومشاعره في فقد الأب أو الأم أو كليهما.

(والقرآن استعمل اليتيم مفردًا ومثنى وجمعًا، ثلاثًا وعشرين مرة، كلها بمعنى اليتم الذي هو فقدان الأب، ويلحظ فيه اقتران اليتيم بالمسكنة في أحد عشر موضعًا، كما ذكر فيه من آثار اليتم الجور، وأكل المال، وعدم الإكرام، والدع الذي هو: الدفع العنيف مع جفوة)[1].

وفي موضع آخر يعيب القرآن إزعاج اليتيم طفلًا بصورة منفّرة، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون:١-٢]، ومعنى يدع اليتيم: (يدفعه دفعًا عنيفًا بجفوة وأذى، ويرده ردًّا

(١) بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، (١/ ٤٣).

قبيحًا بزجر وخشونة)[١]، وهذا غاية في النهر والقهر، حيث جُمع على اليتيم هنا قهران: قهر مادي، وذلك بدفعه بيديه، وقهر معنوي، بإسقاطه من دائرة الاعتبار، وفي هذا منتهى الإساءة والانتحاء عن الإنسانية.

- **الحض على إطعام اليتيم:**

وجعل عنوان ذلك تقديم الطعام له، رغبةً في إدخال المسرّة إلى قلبه، وإشعارًا بالترحيب به، وأن يُتمه لا يشكل ثقلًا على المجتمع، وأن مجتمعًا يسوده التكافل لا يشعر اليتيم فيه بقهر يُتمه، إذ إن مرارة اليتم تذهبها حلاوة الإحسان، قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [البلد:١١-١٦].

فالإطعام لليتيم طريق يتجاوز بها المسلم العقبة الكؤود، ويفك بها نفسه من النار، فهي قربة منجية، وإذا كان القرآن جعل من اليتيم طريقًا للنجاة من النار، كان ذلك أدعى إلى محبة اليتيم والعطف عليه، وفي تقديم إطعام اليتيم على إطعام المسكين تنويه بأهمية رعايته وشدة احتياجه إليهما، (وفي إطعام هذا جمع بين الصدقة والصلة، وفيهما من الأجر ما فيهما، وقيل إنه لا يخص القريب، بل يشمل من له قرب بالجوار)[٢].

- **جعل مال اليتيم وقفًا عليه:**

لا يجوز أن تطمح الأنظار إليه: فقد أحاط القرآن اليتيم بالحماية والرعاية، ونبه إلى ضرورة الحيطة فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء:٣٤].

والنهي عن الاقتراب من مال اليتيم هنا فيه مفهوم الموافقة أو فحوى

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (٤/ ٨٠٩).
(٢) الآلوسي، روح المعاني، (٣٠/ ١٣٨).

اللفظ[١]، إذ التصرف فيه، وأخذه منهي عنه من باب أولى. وعلى هذا، فإن مال اليتيم حمىً لا ينبغي أن يستباح؛ مبالغةً في التشديد على أهميته، وقد رتب الله ﷻ على ذلك الوعيد البالغ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء].

وهذه صورة بلاغية منفّرة تجعل النفس تتوقف في شأن مال اليتيم قبل التصرّف فيه بحقّه.

قال القرطبي: "سمي أخذ المال على كل وجوهه أكلًا؛ لما كان المقصود هو الأكل، وبه أكثر إتلاف الأشياء، وخص البطون بالذكر؛ لتبيين نقصهم، والتشنيع عليهم بضد مكارم الأخلاق، وسمي المأكول نارًا بما يؤول إليه"[٢].

وقد رتب القرآن في قسمة المواريث حقًّا لمن حضر القسمة من اليتامى بأن يرزقوا منه، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾ [النساء].

والآية هنا فيها تطييب لخاطر اليتيم من حرمانه النفسي والمادي، قال أبو السعود: "وهو أمر ندبٍ كُلف به البالغون من الورثة تطييبًا لقلوب الطوائف المذكورة، وتصدقًا عليهم"[٣].

المطلب الثاني
الرحمة بالطفل مستضعفًا

- لقد رفع القرآن التبعة والمسؤولية عن الطفل قبل بلوغه، وجعله من

(١) وهو: فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده، الغزالي، المستصفى من علم الأصول، (٢/ ١٩٥)، وانظر الشيرازي، اللمع في أصول الفقه، ص ١٧.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٥/ ٣٥).
(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (٢/ ١٤٧).

زمرة المستضعفين، الذين هم أحوج ما يكونون للرحمة والعناية، وقد اشتملت سورة النساء -التي هي عنوان على المستضعفين- على استثنائهم من القتال في سبيل الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

- فقد استثنى الولدان المستضعفين من المشاركة في القتال في سبيل الله ﷻ، وقد بيّن القرآن عذر الولدان المستضعفين في شأن الهجرة في سبيل الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء].

ولنا أن ننظر في لطف التشريعات القرآنية بهذه الفئة من الناس، التي لا تستطيع حيلةً ولا تهتدي سبيلًا، ومعنى ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: "لا يقدرون على حيلة، ولا على قوة الخروج منها، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يعرفون طريقًا إلى الخروج"[1].

المطلب الثالث
مراعاة الطفل رضيعًا

عنى القرآن الكريم بالطفل في حال الرضاع، وفرض له حقًّا في الرضاع؛ لنماء جسده، وإكسابه صحة جسدية ونفسية، قال الله تعالى:

(١) البغوي: معالم التنزيل، (١/ ٤٧٠).

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البقرة:٢٣٣].

وهذه الآية وردت في سياق أحكام الطلاق وحقوق الزوجات، والنهي عن الإضرار بهن، ثم عرض القرآن للحديث عن حقوق الرضيع، وعن حقوق المرأة المرضع أيضًا، قال ابن عاشور: "﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾: والوالدات معناه: والوالدات منهن؛ أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآية الماضية، أي المطلقات اللائي لهن أولاد في سن الرضاعة، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم إلا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة؛ إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في مدة العصمة، وأنها لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب التزويج بزوج جديد بعد فراق والد الرضيع، فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج فيها؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة.

وجملة ﴿يُرۡضِعۡنَ﴾ خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن؛ لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات، ولأنه عقب بقوله ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ﴾ فإن الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق:٦]، ولأنه عقب بقوله ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣] وذلك أجر الرضاعة، والزوجة بالعصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة، وقوله ﴿أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ صرح بالمفعول مع كونه معلومًا إيماءً إلى

أحقية الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه؛ لأن في قوله ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ تذكيرًا لهن بداعي الحنان والشفقة"[1].

كما يتبين من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦]، ظهورًا واضحًا لإيلاء الإسلام الرضاعة حديثًا جاء عقب الحديث عن التشريعات المتعلقة بالطلاق والعدة، وعقب إيصاء القرآن بالتقوى ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥].

كما تؤكد الدراسات أن الأطفال الذين يتم فطامهم في مرحلة مبكرة يصيرون في الكبر أقرب إلى التشاؤم في حين أن الأطفال الذين يتم فطامهم في مرحلة متأخرة، يصبحون في الكبر أكثر ميلًا إلى التفاؤل. وتؤدي القسوة في الفطام إلى ترك آثار نفسية سيئة عميقة في الطفل، قد يكون لها أثرها في المستقبل، وليس غريبا أن يشعر الطفل بقلق دائم لا يعرف مصدره، أو يعوضه عن الثدي بمص أصابعه، وقضم أظافره.

ويتفق الباحثون على التوصية بضرورة إتمام عملية الفطام بالتدريج بتعويد الطفل تدريجيًا على تناول السوائل وغيرها من الأطعمة اللينة مبكرًا وزيادتها بالتدريج[2].

ولذا يجب الاهتمام بنفسية الطفل الرضيع؛ لأنه يتأثر بنفسية والدته ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣]، قال محمد عبده: "العلة في الأحكام السابقة: منع الضرار من الجانبين، بإعطاء كل ذي حق حقه بالمعروف، وهو يتناول تحريم كل ما يأتي من أحد الوالدين للإضرار بالآخر، كأن تقصر هي في تربية الولد البدنية أو النفسية؛

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢/٤٠٩)
(٢) صوالحة وحوامدة سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، ص٤٩-٥٠

لتغيظ الرجل، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانة، فالعبارة نهي عام عن المضارة بسبب الولد، لا يقيد ولا يخصص بوقت دون وقت، أو حال دون حال، أو شخص دون شخص"(١).

إذا نشأ الطفل في جو مشبع بالحب والثقة، فإنه يتحول عند نموه إلى شخص يستطيع أن يحب، لأنه أحب، وتعلم كيف يحب، وسيكون شخصًا يستطيع أن يثق، لأنه عاش في جو من الثقة مع الوالدين. في مثل هذا الوضع يحصل الطفل على إشباع لحاجاته النفسية كالشعور بالأمن والطمأنينة والإحساس بقيمته الشخصية.

ويؤكد الباحثون أنه كلما كانت العلاقة بين الوالدين منسجمة، كلما أدى ذلك إلى جو يساعد على نمو الطفل إلى شخصية كاملة ومتزنة، أما الخلافات والتشاحن بين الزوجين وخاصة عندما يشعر بها الطفل تعتبر من العوامل المؤدية إلى نمو الطفل نموًا نفسيًا غير سليم، كما أن الخبرات المؤلمة ذات الأثر النفسي غير السليم على نمو الطفل وشعوره بما يوجد بين والديه من انعدام الحب والعطف وما تحويه علاقاتهما من خلاف وتشاحن ينشئ صراعا نفسيا بالنسبة للطفل.

إن تنشئة الأطفال في مراحل نموهم الأولى تتطلب الأم المتخصصة المعدة إعدادًا سليمًا للأمومة، وهي التي تستطيع أن تشبع حاجة الطفل إلى الحب والحنان والرعاية، فينشأ نشأته السليمة التي تتوازن فيها نفسه أو يكون لديه الاستعداد للتوازن المناسب، وتلك نقطة البدء الخطيرة في حياة البشرية؛ لأنها هي التي ترسم مستقبل البشرية (٢).

ولا يسقط حق الطفل في الرضاعة على أي حال، فإن من لم ترضعه

(١) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٢/٣٤٦).
(٢) صوالحة وحوامدة، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، ص١٨٩

أمه يستأجر والده مرضعًا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق:٦].

إن أهمية الرضاعة لا تقتصر على مجرد تقديم الطعام للطفل، بل تتضمن أيضا ضرورة شعوره بالطمأنينة والعطف والحنان، وقد أكدت الدراسات على أهمية احتضان الطفل والالتصاق البدني بينه وبين الأم باعتباره عاملا رئيسيًّا يحدد النمو الاجتماعي له؛ حيث إنه من المحتمل أن الالتصاق بين الطفل البشري مع أمه يحدث بشكل مؤكد حينما لا يكون الطفل الرضيع خائفًا [١].

وقد بين القرآن أن الرضاعة للطفل تؤكد لصوق الطفولة بالأمومة وقربها منها، وقد كشف القرآن مشهدًا يؤكد هذا الانسجام، فأشد ما يكون القرب حين تضم المرضعة رضيعها، وهي صورة من التواصل العاطفي والنفسي، وفي يوم عظيم مهول تتخلى تلك المرضعة عن طفلها، إذ سيفر الإنسان من أقرب الناس إليه، ولا يسأل الحميم عن حميمه، وقد اختار القرآن لبيان انقطاع الصلات في ذلك اليوم هذا الانقطاع في اتصال المرضعة برضيعها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج:١-٢].

وهنا سرّ في التعبير بـ(كل مرضعة)، إذ هناك فرق بين المرضعة والمرضع، قال الفيروزآبادي: (أرضعت المرأة، فهي مرضع: لها ولد ترضعه، فإن وصفتها بإرضاع الولد، قلت: مرضعة) [٢].

(١) المرجع نفسه، ص٤٧

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (١/ ٩٣٢)، الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٦٧.

وقال الجمل: (كل مرضعة) أي مباشرة للإرضاع، بأن ألقمت الرضيع ثديها، فهو بالتاء لمن باشرت الإرضاع، وبلا تاء لمن شأنها الإرضاع وإن لم تباشره)[1].

المطلب الرابع
التوجيهات التربوية والأدبية
المستفادة من رحمة القرآن بالطفل

لقد راعى القرآن الكريم توجيه الطفل تربويًّا وأدبيًّا من خلال الإرشادات السلوكية والجوانب الخلقية، وقد سبق الإسلام كثيرًا من النظريات التربوية القديمة والحديثة في وصف خصائص الأطفال، وطرق تنشئتهم والعناية بهم: حيث ينظر الإسلام إلى الطفل الصغير على أنه مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولكنه مزود بحواس وخصائص عقله، قادرٌ على التفاعل مع بيئته، وقابلٌ للتعلم، وتنظيم هذه المعاني من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء]، وقال أيضًا ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل:٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد:٨-١٠].

فهم مزودون باستعدادات وقابليات للخير والشر في آن واحد، ومزودون بقدرات عقلية تمكنهم من التمييز والاختيار والتعلم[2].

(١) الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، (٣/ ١٥١).
(٢) صوالحة وحوامدة، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، (ص ١٨٨)

وقد جاءت رحمة القرآن الكريم بتوجيه الطفل وتربيته، إرشادًا وتقويمًا ضمن أحكام تتعلق بزينة المرأة وآداب الدخول على الوالدين، وقد تناولت هذه الإرشادات والتوجيهات الخلقية والتربوية نوعين من الأطفال: النوع الأول: الطفل غير المميز، والنوع الثاني: الطفل المميز.

فأما ما يتعلق بالطفل غير المميز، فقد جاء التوجيه بشأنه ضمن الآيات التي تتعلق بزينة المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١].

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فذهب الطبري إلى أنهم، "الأطفال الذين لم يكشفوا عن عورات النساء بجماعهن"(١) على معنى أنهم مميزون، ولكن لم يبلغوا الحلم بعد. وذهب الجصاص إلى أنهم: "الذين لا يدرون ما هنَّ من الصغر"(٢).

قال الزمخشري: "اما من ظهر على الشيء، إذا اطلع عليه؛ أي لا يعرفون العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها، وإما من ظهر على فلان إذا قوي عليه؛ أي لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء"(٣).

والذي يظهر أنهم الذين لا يفرقون العورة من غيرها؛ لأن الطفل قد يبلغ عمرًا يميز به العورة من غيرها، ولا يملك قدرة على الوطء لعلة أو ما شابه ذلك، ولأن الطفل غير المميز تأمن المرأة جانبه، بخلاف الذي

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، (٩/ ٣١٠).
(٢) الجصاص، أحكام القرآن، (٥/ ١٧٧).
(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (٣/ ٢٣٧).

قارب أوان البلوغ، زيادةً على أن صغره لا يؤثر في نفسيته، بحيث لا يبقى ذاكرًا لصورة النساء، مما لا يؤثر في سلوكه بعد البلوغ.

وإذا تأمل المتأمل كلمة (الطفل) يرى عدم الحاجة للنساء في هذا الوصف، وهذا يدل على براءة الطفل وسلامته من أثر الزينة التي تكشفها المرأة وتبديها له، وهذا ما رمز إليه ابن عاشور حين قال: "﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لم يطلعوا عليها، وهذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء، وذلك ما قبل سن المراهقة"(١).

وأما ما يتعلق بالطفل المميز، فقد جاء التوجيه القرآني بحقه ضمن الآيات التي تتعلق بآداب الدخول على الوالدين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور].

فهذه آدابٌ في الاستئذان موجهة للعبيد، والإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الأحرار، إذ هناك ثلاثة أوقات ينبغي فيها مراعاة الأدب في الاستئذان، وهي: من قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء؛ إذ هي أحوال ربما انكشفت فيها عورة الرجل والمرأة، ولا يليق الدخول عليهما في تلك اللحظات، وقد سمى القرآن تلك الأوقات بالعورات؛ (لأن الإنسان يختل ستره فيها، والعورة: الخلل، ومن الأعور المختل العين)(٢).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨/ ٢١٢).
(٢) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (٢/ ١٧٣).

ويؤخذ من هذا: أن الطفل لا ينبغي أن يقف مواقف الخلل، أو أن تظهر له المعايب منذ نعومة أظفاره؛ أخذًا به في التربية وتقويم السلوك، وتشير الآية ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٩] إلى أن ما سبق كان تدريبًا وتعليمًا للطفل، وترقيًا به في معارج الأدب، فإذا بلغ الحلم لا بد له من الاستئذان في كل وقت وحين، ولا يكون هذا أدبًا جديدًا بالنسبة له، فقد سبق له أن تأهل لمثل ذلك، قال النسفي: (والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن، وجب أن يفطموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن، والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ [النساء:٨])[١].

وعلى هذا، فإن التوجيهات القرآنية قد أعطت للطفل المميز وغير المميز الإرشاد، الذي يكسبه التوازن في المجال النفسي والخلقي، ويحول بينه وبين الانحراف في الشخصية والسلوك.

(١) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ١٧٤).

الخاتمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، فبعد هذا العرض لموضوع الرحمة في القرآن «الطفل أنموذجًا، أود أن أعرض لأهم النتائج، وأبرز الجوانب التي تناولها هذا البحث، وهي:

أولًا: رفع القرآن الكريم من شأن الطفل، وبين أنه نعمة من نعم الله ﷻ تستحق أن يشكر عليها ﷻ.

ثانيًا: من رحمة القرآن الكريم بالطفل أن راعى إنسانيته وفاعليته في الوجود، فحذر من قتل الأطفال ووأد البنات، وفرض له حقًّا في العيش والحياة، ورغّب في المولود الأنثى، وأرشد إلى حفظ الطفولة من الضياع، ووجه إلى الحفاظ على مواهب الطفل وتعزيزها والعناية بها.

ثالثًا: إن ما أرشد إليه القرآن من حقوق للطفل أخذت به الهيئات الإنسانية، فأصدرت ميثاقًا لحقوق الطفل، تكفل حقه في الحياة والبقاء، واحترام رأيه، وتضافر الجهود من أجل المصلحة الفضلى له.

رابعًا: أرشد القرآن إلى ضرورة تعزيز الطموح للطفل، والابتعاد عن

الضغط النفسي الذي يحد من نشاطه وفاعليته، وأن التوازن النفسي أو الصّحة النفسية للطفل تكون من خلال المشاعر الإيجابية، التي تجعل الطفل في حالة استقرار نفسي.

خامسًا: راعى القرآن الكريم الحالة النفسية والجسدية للطفل رأفةً ورحمةً به، ورتب له الحقوق المادية والمعنوية، فراعاه يتيمًا، وراعاه مستضعفًا، وراعاه رضيعًا.

سادسًا: عني القرآن بتوجيه الطفل وتربيته، وشملت هذه التوجيهات: الطفل المميز وغير المميز؛ حمايةً له من الانحراف في الشخصية والسلوك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع:

١. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبدالعظيم محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د. ط، د. ت.

٢. الآلوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

٣. البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٤. البيضاوي، عبدالله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥. الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، تحقيق، محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

٦. الجمل، سليمان بن عمر، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، دار الفكر، بيروت، د. ط. د. ت.

٧. الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ

٨. حسن، محمود السيد، روائع الإعجاز في القصص القرآني، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ط، د. ت.

٩. ابن خالويه، الحسين بن أحمد، الحجة في القراءات السبعة، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

١٠. الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت.

١١. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
١٢. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
١٣. الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس، د. ط، د. ت.
١٤. الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتعليق: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
١٥. ابن زنجلة، عبدالرحمن بن محمد، حجة القراءات، تحقيق: سعد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
١٦. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق الرزاق المهدي، دار إحياء القرآن العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
١٧. السامرائي، فاضل، لمسات بيانية لسور القرآن، د. ن، د. ط، د. ت.
١٨. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٤م.
١٩. بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، د. ط، ١٩٧٣م.
٢٠. شقير، زينب محمود، رعاية المتفوقين والموهوبين والمبدعين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م.
٢١. صوالحة، محمد أحمد، وحوامدة، مصطفى محمود، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، مكتبة الطلبة الجامعية، إربد، ط١، ٢٠١٠م.

٢٢. الطبري، محمد بن جعفر، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.
٢٣. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، د. ط، ١٩٨٤م.
٢٤. عبده، محمد تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، تعليق تصحيح: سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٢٥. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مراجعة (قصي محب الدين الخطيب)، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٢٦. الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى من علم الأصول، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٢٧. الفيومي، أحمد بن محمد المقري، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، د. ط، د. ت.
٢٨. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع الأحكام القرآن، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ط، د. ت.
٢٩. قنديل، محمد، مدخل الرعاية الطفل، والأسرة، دار الفكر، عمان، د. ط، ٢٠٠٦م.
٣٠. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٣١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، د. ت.
٣٢. الناشف، هدى محمود، الأسرة وتربية الطفل، دار المسيرة، عمان،

ط١، ٢٠٠٧م.

٣٣. النسفي، عبدالله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

- **الدوريات:**

١. عجين، علي إبراهيم، رعاية الموهوبين في السنة النبوية – ابن عباس نموذجًا، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، العدد الرابع، ذو الحجة ١٤٢٩هـ- كانون أول، ٢٠٠٨م.

٢. أبو شبهة، هناء يحيى، ملخص بحث (السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية)، ضمن أعمال المؤتمر العلمي الأول للسنة النبوية (السنة النبوية في الدراسات المعاصرة)، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٩ – ٣٠ ربيع الأول، ١٧ – ١٨ نيسان، ٢٠٠٧م.

٣. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، ١٢/ ٢٣٠.

٤. البخاري، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، د.ط.، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس

(دراسة مقارنة)

إعداد:
د. ليليا شنتوح
أستاذة الفكر والأديان
جامعة الجزائر

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

اتفقت الأديان السماوية قاطبة على مجموعة من القيم الأخلاقية، مثل المحبة والتعاون والرحمة، لما في هذه القيم من أثر في حماية الفرد والأسرة والمجتمع من التدهور والتفكك والتخريب والتفتت، وإن أكثر الأفراد والأسر نجاحا في حياتهم العملية هم أولئك الذين يرتبطون فيما بينهم بآواصر المحبة والتراحم والألفة، وعلى قدر ما يكون صفاء قلب المرء ونقاؤه يكون أكثر قربًا إلى الله وأشد إيمانًا.

وتعتبر الرحمة من القيم الأخلاقية الإنسانية الأكثر ورودًا في الكتب السماوية المقدسة، على اختلاف بينهم -طبعًا- في التفاصيل سعةً وضيقًا، ولئن تحدثت هذه الكتب عن رحمة الإله بعباده، وعن شفقة الأنبياء والرسل على الضعفاء والفقراء والمساكين والمرضى، ودعت إلى تعزيز روابط الرحمة والمحبة بين البشر، وعملت على ترسيخ هذا المفهوم باعتباره مفهومًا تأسيسيًّا من خلال عقد عشرات الملتقيات والمؤتمرات والندوات منذ سبعينيات القرن الماضي، مثل مؤتمر النداء لتحقيق التفاهم الإنساني

ببيروت سنة ١٩٧٢م(١)، الذي خرج بمجموعة من التوصيات كان على رأسها ضرورة تحقيق التراحم بين البشر، وتحويل الدين إلى فضاء محبة، لا واجهة حرب وخصومات، ومؤتمر الملتقى الإسلامي المسيحي سنة ١٩٧٤م بتونس، والذي حث بدوره على تفعيل هذه القيمة وتوظيفها في إسعاد الإنسانية جمعاء، وتحقيق التنمية ودرء العنف(٢).

فإن بعض رواد هذه الكتب قد اهتموا بمفهوم الرحمة في بعده التنظيري المجرد، فظل حبرًا على ورق، نظرًا للسلوكات العدوانية لبعض المنتسبين لهذه الأديان، خصوصا فيما تعلق الأمر باليهود والنصارى، الذين صرحوا بأن الرحمة الإلهية هي قلب كتابهم المقدس من جهة، ومن جهة أخرى اتهموا الدين الإسلامي بأنه دين العنف(٣) والسيف والحرب والقتل والرعب، وبعبارة مختصرة: الدين الذي لا رحمة فيه، ومثال ذلك تصريحات بابا الفاتيكان بنيدكت على لسان الإمبراطور (البيزنطي) مانويل الثاني باليولوغوس، وهو يحاور مسلمًا فارسيًّا، قائلًا: "أرني ما هو الجديد الذي أتى به محمد، وسوف تجد أشياء كلها شريرة وغير إنسانية، من مثل أمره بنشر الدين بالسيف؟"(٤)، وما ذكره المفكر الأمريكي جيفري لانغ (Jeffrey Lang)(٥) الذي أسلم في كتابه (حتى الملائكة تسأل)، قال: "إن الاعتقاد بأن الإسلام يروج للعنف فكرة متأصلة في التجربة الغربية، لدرجة أننا

(١) أشرف على تنظيم هذا المؤتمر مجلس الكنائس العالمي.
انظر: علي مبارك: الرحمة والإحسان في تقاليد الأديان، مجلة الأديان، مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، العدد ٠١، ٢٠١١م، ص٤٣-٤٤.
(٢) علي مبارك: الرحمة والإحسان في تقاليد الأديان، ص٤٤.
(٣) Norman Daniel,Islam et Occident, traduit par Alain Spiess, Eddn Cerf,Paris,1993,p151.
(٤) نقلًا عن جريدة المستقبل اللبنانية، السبت ١٦ سبتمبر ٢٠٠٦م، العدد٢٣٨٨، الصفحة ١٩.
(٥) جيفري لانج: (Jeffrey Lang)، ولد سنة ١٩٥٤، بمدينة برديجبورت، بروفيسور في الرياضيات أمريكي. يعمل حاليًا في قسم الرياضيات في جامعة كنساس، استلم شهادة الفلسفة من جامعة باردو سنة ١٩٨١، وقد كان كاثوليكيا ثم أسلم له مجموعة مؤلفات منها: الصراع من أجل الإيمان، حتى الملائكة تسأل،... انظر ترجمته في:
Lang, Jeffrey ,Struggling to Surrender: Some Impressions of an American Convert to Islam. Beltsville, Maryland,USA, 1994, p04

نستطيع أن ندعو ذلك بديهية ثقافية، واعتقد أن ليس هناك غربي تقريبًا لا يؤمن بالفكرة القائلة: إن الإسلام يحرض على استخدام القوة في سبيل نشر الدعوة"[١]، في حين ذهب علماء الإسلام إلى أن الرحمة سمة من سمات الدين الإسلامي، ومقصد أساسي من مقاصد الشريعة الإسلامية، حث عليها القرآن الكريم في الكثير من المواضع منه.

ومن هنا نروم من خلال هذه المداخلة أن نعقد مقارنة بين حقيقة الرحمة في الكتب السماوية المقدسة، والتي نقصد بها القرآن الكريم والكتاب المقدس، بشقيه العهد[٢] القديم[٣] والعهد الجديد[٤]، ونفترض في البداية أن المقولة الأولى صحيحة، وأن الإسلام دين لا رحمة فيه، وأن الديانتين اليهودية والمسيحية[٥] هما ديانتا الرحمة والمحبة بكل الدلالات التاريخية، والابستمولوجية[٦]، والمصطلحية والمنطقية.. إلخ.

(١) جيفري لانغ: حتى الملائكة تسأل، تر: منذر العبسي، ط١: دار الفكر، ٢٠١٠م، ص

(٢) العهد : يعبر عن العهد في اللغة العبرية (بريت) Berit، ومعنى بريت اتفاق أو عقد بين طرفين.
Dictionnaire encyclopédique du judaisme, Publie sous la direction de Geoffrey wigor édition de l' Encyclopédie, S. éd, les éditions du cerf ;Paeris, 1993, p44.

(٣) العهد القديم: هو الجزء الأول من الكتاب المقدس، ويعرف بالتناخ، وهو كتاب الله الذي يصل بين الله وشعبه، وهو مجموعة مؤلفات–أسفار– كان اليهود يسمونها (الشريعة والأنبياء والمؤلفات أو الكتاب. انظر في ذلك: الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم ص٥٤-٥٥.

(٤) العهد الجديد: هو الجزء الثاني من الكتاب المقدس، الذي تقدسه طوائف النصارى، وأطلقت هذه التسمية العهد الجديد في أواخر القرن الثاني الميلادي، وأخذت من نصوص وردت في العهد القديم: (ها أيام يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهودا عهدًا جديدًا، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم).
انظر في ذلك: أحمد عبدالوهاب: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، ط٢، مكتبة وهبة، ١٩٨٨م ص١٤.

(٥) المسيحية إشارة إلى الديانة الكنسية الحالية، وهي الديانة التي تؤمن بألوهية المسيح، وليست لها علاقة به، ولم تكن المسيحية معروفة خلال حياة المسيح عليه السلام، لأنها ظهرت بعد وفاته بأكثر من عقدين من الزمن من لسان بولس لوصف أتباعه (أعمال الرسل ١١: ٢٦)، ولم يكن المسيح يعلم شيئًا عن عقائد بولس التي نشأت بعده.. والمسيحية كلمة لمفهوم هلنسي تشير إلى شخصية ميثولوجية للمسيح بعد وفاته.
انظر في ذلك: محمد فاروق الزين: المسيحية والإسلام والاستشراق، ط٣، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣م، ص١١١.

(٦) الابستمولوجيا : من الناحية اللغوية متكونة من كلمتين يونانيتين «ابستمي» ومعناها علم، والثانية لوغوس، وهي بمعنى علم أيضًا، فهي إذن معناها اللغوي «علم العلوم» أو «الدراسة النقدية اللغوية»، ويختلف المعنى الاصطلاحي كثيرا عن المعنى اللغوي، فالابستمولوجيا هي نظرية في المعرفة. حسين شعبان: بروشفيك وباشلايير: بين الفلسفة والعلم، ط١: بيروت: لبنان، دار التنوير، ١٩٩٣م، ص١٢٢.

ثم نقارن بين مادة الرحمة وما يرتبط بها في القرآن الكريم والكتاب المقدس، ونعرج بعدها إلى التحليل الكيفي، فالمقارنة النوعية، والموضوعية، والمنهجية،.. إلخ، مما يظهر قيمة الرحمة ومادتها وعوارضها بين ما ورد في القرآن الكريم، وما جاء في الكتاب المقدس.

واعتمد في هذه الورقة الافتراض، والمنهج التحليلي، فالنقدي، ثم المقارنة وتكون النتيجة بعد ذلك، أن يثبت الافتراض أو ينتفي دون تحيز، ولا أحكام مسبقة ولا مصادرة على المطلوب ولا مغالطة، بل سأجهد مداركي لكشف أبعاد الموضوع ومداه، اعتمادًا على الوحي أولًا ثم باعتماد نصوص الكتاب المقدس ثانيًا، والأدلة المنطقية في تحليل موضوع الرحمة.

وقد أردت من خلال هذا البحث أن أسهم ولو بجهد المقل في إماطة اللثام عن جانب الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس (دراسة مقارنة)، خاصة أني لم أقف -مع طول البحث والتقصي- على دراسة تناولت هذا الموضوع بالبحث على الشكل الذي نعزم الكتابة فيه، مما يجعل الحاجة ملحة لدراسته.

وتهدف هذه الورقة إلى تحقيق جملة من الأهداف، هي:

- الرد على كل من يزعم أن الإسلام دين إرهاب وعنف وقتل.
- تصحيح الصور النمطية الخاطئة لدى اليهود والمسيحيين، حول حقيقة الرحمة في الإسلام ومعتقداته.
- بيان معالم عظمة الدين الإسلامي من خلال مقارنته بنقائضه.
- المساهمة في الحوار بين الأديان، خاصة بين الكتب السماوية المقدسة.
- المساهمة في إثراء الدراسات الإسلامية المقارنة بجانب قد أغفل كثيرًا إلا وهو الرحمة في الكتب السماوية المقدسة.

- الدعوة إلى إنتاج خطاب علمي أكاديمي يراعي السياق الغربي المقارن.

إشكالية الدراسة:

أما إشكالية الدراسة فيمكن معالجتها ضمن سؤال رئيس، وهو: هل حثت الكتب السماوية المقدسة على خلق الرحمة؟ وعن هذا الإشكال الرئيس تتفرع تساؤلات فرعية تنظم مسار الدراسة، وتمنهج نطاقها وهي:

- ما هي معاني الرحمة في القرآن الكريم؟ وما هي معانيها في الكتاب المقدس؟
- هل هناك أوجه اتفاق واختلاف بين معاني الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس؟.
- وأخيرًا هل طبقت الرحمة في واقع المجتمعات الإنسانية؟

خطة الدراسة:

للإجابة على هذه التساؤلات تم بناء خريطة البحث، وخطتها على الشكل التالي:

المحور الأول: معاني الرحمة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس.

أولًا: الرحمة في القرآن الكريم.

ثانيًا: الرحمة في الكتاب المقدس.

ثالثًا: مادة الرحمة بين القرآن والكتاب المقدس مقارنة كمية.

رابعًا: موانع وعوارض الرحمة بين القرآن والكتاب المقدس مقارنة الكمية.

خامسا: الرحمة والسيف في القرآن الكريم والكتاب المقدس.

المحور الثاني: نماذج الرحمة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس.

أولًا: الرحمة الإلهية

ثانيًا: قصة آدم عليه السلام.

ثالثًا: تجليات الرحمة الإلهية في النموذج النبوي موسى عليه السلام[١] ومحمد صلى الله عليه وسلم في شريعة الحرب والقتل.

رابعًا: الرحمة بالحيوانات.

المحور الثالث: الرحمة والعنف مقاربات في واقع المجتمعات العالمية.

خاتمة وتوصيات.

(١) موسى الذي تحدثت عنه التوراة ليس موسى عليه السلام المذكور في القرآن الكريم،

المحور الأول
معاني الرحمة بين
القرآن الكريم والكتاب المقدس

أولا
الرحمة في القرآن الكريم

وردت الرحمة ومشتقاتها في القرآن الكريم ثلاث مائة وثمان وثلاثين مرة حسب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم[1]، وقد جاءت بمعان مختلفة:

- تارة بمعنى العفو، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة].
- وأخرى بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].
- وتارة بمعنى الصفح في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].
- والبر، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم].
- ومرة نقيضًا للفساد في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا

(١) فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دط، دب: دار ومطابع الشعب، دت، ص٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧.

فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، وفي قوله أيضًا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس].

- وجاءت نقيضًا للضر في سورة الروم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].
- وجاءت مرتبطة بصفات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة].

يتضح من خلال ما سبق أن الرحمة جاءت في القرآن الكريم بعدة معان، هي الصفح والعفو والمحبة والبر، ونقيضًا للفساد والضر، وكلها معاني متقاربة، فإذا كانت هذه بعض معاني الرحمة في القرآن الكريم، فما هي معانيها في الكتاب المقدس بشطريه العهد القديم والعهد الجديد؟.

ثانيًا
الرحمة في الكتاب المقدس

ورد مصطلح الرحمة في مواضع مختلفة من الكتاب المقدس، وإن كان من العسير علينا تتبع تطور هذا المفهوم في نصوص الكتاب المقدس كاملة

في هذا الحيز الضيق من الدراسة، ولكن سنحاول استقراء بعض المفردات التي تدل على الرحمة في العهدين القديم والجديد، كما يلي:

١. العهد القديم

استخدمت أسفار[١] العهد القديم الرحمة، بتعابير مختلفة، لكل منها معنى يختلف اختلافًا دقيقًا عن الآخر، من حيث علم معاني الألفاظ، ويمكن حصرها فما يلي:

- الرحمة التي تعني المحبة والمساعدة، وقوة التحرر والدفاع عن الآخرين.
- كلمة حسد التي استخدمت أكثر من مئة مرة في أسفار موسى الخمسة، في الكتب التاريخية في الأدب والحكمة والمزامير[٢] والأنبياء، وتستخدم هذه الكلمة في سياق العهد الذي عقده الله مع شعبه المختار، وهي تعني محبة المؤمنين والخير والنعمة والإخلاص، وقد استعملت لفظة «حسد» في العهد القديم للحديث عن الرب، فإنها تشير دائمًا إلى العهد الذي أبرمه الله مع إسرائيل.
- كلمة رحميم، وهي اسم عبري معناه شفوق أو محبوب[٣]، وجاءت باسم Gemilut Hasadim أي بمعنى العطاء، وهو معنى قريب إلى معنى الرحمة، ومعناه تقديم كافة أنواع المساعدة والعون لمن يحتاجها[٤].
- كلمة الرحم، وهي كلمة مشتقة كذلك من الرحيم، ورحم الأم، وتشير

(١) السفر: جمع أسفار، وهو الكتاب أو الدرج،
انظر: جوزيف صابر وآخرون: دائرة المعارف الكتابية، دط، القاهرة: دار الثقافة، دت، ج٤، ص٣٨١.

(٢) المزامير: هذا السفر عبارة عن مجموعة من الترنيمات والأناشيد والمزمورات والقصائد والتسابيح والأغاني المقدسة، يعبر بها عن أشواق وعواطف دينية،
انظر: نخبة من اللاهوتيين: كتاب مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين، بيروت: دد، ٢٠٠٨، ص١٢٦.

(٣) نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير: بطرس عبد الملك وآخرون،

(٤) الحاخام ستيسالتز أجرى: المودة والرحمة، ص ٠٨.

إلى الحشا، الذي فيه يتكوّن الولد وينمو، فالربّ هو أب وأم أيضًا، وفي هذا يقول إشعيا[١] (Isaiah): "إنَّ اللّه يشبه الوالدة، التي لا تنسى من ترضعه، وترحم دومًا ابن بطنها. وإن حصل ونسيته، إلاّ أنّ الربّ لا ينسى من كوّنهم في أحشائه"[٢]، كما تعني هذه الكلمة أيضًا العطف والتعاطف إلى درجة البكاء والحنان والصبر والاستعداد للمغفرة[٣].

- كلمة حنان، وهي تحدد التصرف الذي هو دائم وكريم وسجية، وتدل على إظهار الرحمة والمغفرة من الذنب[٤]، ومن الأمثلة على ذلك: في سفر الخروج "الرب إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب، وغني في الرحمة والإخلاص، واستمرار لطفه إلى ألف جيل"[٥].

والجدير بالذكر هنا أن الرحمة في الكتاب المقدس في أسفار اليهود، تعني أن اللّه يحافظ على عهده ومحبته لشعبه المختار، ففي سفر التثنية[٦] (Deuteronomy) والخروج [٧] (Exodus) على سبيل المثال تبرز رحميم العبرية، التي تعني توق اللّه للإنسان والعمل على إبراز الشعب المختار والخروج من العبودية في مصر.

(١) سفر إشعيا: هو إشعيا بن آموص أحد الأنبياء العبرانيين، وإليه ينسب السفر، ومعنى إشعيا: الرّبّ يخلص.
انظر: نخبة من اللاهوتيين: مرشد الطالبين، ص١٥٧

(٢) إشعيا ٤٩: ١٥

(٣) سفر هوشع ١١: ٨

(٤) http://www. faustyna. pl/zmbm/en/in-the-old-testament/?wide=true#more-145

(٥) سفر الخروج: ٣٤: ٦-٧-١١.

(٦) سفر التثنية: ويسمى بالعبرية ديفاريم، أي الكلمات، وهي أول كلمة وردت في السفر، وهو يعني إعادة الشريعة وتكرارها على جماعة إسرائيل. انظر: عبدالوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٥، ص٩١.

(٧) سفر الخروج: هو السفر الثاني من أسفار موسى عليه السلام، يحتوي على أربعين إصحاحًا، وهو سجل لتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر، متجهين إلى فلسطين، وقد تضمن كذلك الحوادث التي جرت من موت يوسف إلى وقت بناء خيمة الشهادة.
انظر: نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص، ومن اللاهوتيين، بطرس عبدالملك، جون ألكسندر طمسن وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، حرف الخاء/مادة الخروج).

وقمة الرحمة في العهد القديم تبرز من خلال اتصال اللّٰه مع واقع كفر شعب اللّٰه المختار، فهذا الشعب وكما تبرزه نصوص العهد القديم قد عصى اللّٰه مرارًا وتكرارًا وخانوه عندما عبدوا العجل الذهبي وقت عبور الصحراء (١) أو من خلال إظهارهم عدم الثقة في اللّٰه، وهذه الخطايا تعني ضمنيًا انتهاكًا للعهد الذي أبرموه مع اللّٰه، ومن ثم للمعنى الدقيق للكلمة، فاللّٰه لم يعد ملزمًا بتقديم رحمته، أو أن يبارك شعبه، وكان للّٰه الحق في تدمير الأمة اليهودية، ولكن نظرًا لحبه للإنسان يستمر دوما في منحه الخير والرحمة العظيمة والمغفرة غير المحدودة(٢).

فإذا كانت الرحمة في العهد القديم مقترنة في أكثر النصوص بشعب اللّٰه المختار، وهم اليهود، ومن ثم فهي خاصة بهم، فما هي خصائصها في العهد الجديد؟

٢. الرحمة في العهد الجديد:

ارتبطت الرحمة في العهد الجديد بشخص يسوع(٣) المسيح (Jesus Christ) عليه السلام، فقد ذكرت الأناجيل المعترف بها عند النصارى: أن اللّٰه أنزل رحمته ومحبته من خلال المسيح يسوع، وفي هذا السياق يشير البابا يوحنا بولس الثاني قائلًا: "إن يسوع كشف من خلال أسلوب حياته وأفعاله أن الحب موجود في العالم الذي نعيش فيه".

ومن المصطلحات اليونانية، والتي تشير إلى لفظ الرحمة في الأناجيل نذكر:

---

(١) سفر الخروج: ٣٢: ٠٤.

(٢) Alice M. Sinnott ,Mercy Ever Ancient Ever New: Spiritual and Corporal Works of Mercy, PDF, p6-7-8

(٣) لفظ يسوع هي الصيغة اللاتينية المحرفة لاسم يشوع ومعناه "يهوه هو الخلاص"، وهو بنظر المسيحيين الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس المؤلف من الآب والابن والروح القدس، ويرى غير المسيحيين أنه مجرد نبي يهودي وإن أله وعبد.
هنري. س. عبودي: معجم الحضارات السامية، ص ٩١٠-٩١١.

١. Eleos (الإيوس)، والذي يدل على الرحمة والشفقة تجاه المحتاجين، فرحمة اللّه التي تجمع في إضمامة واحدة كل تاريخ الخلاص بقوة فائقة: (وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ)[١].

٢. Splanchna وهو يعادل المصطلح العبري رحميم، الذي يشدد على البعد الداخلي النفسي لسر الرحمة والمودة الداخلية، والتعاطف واللطف.

٣. Oiktirmon وهي تكشف عن قوة رحمة اللّه [٢].

وعلى العموم فرحمة اللّه في الأناجيل تشمل سر تجسد ابن اللّه، وهي مرتبطة أشد الارتباط بشخص يسوع -كما ألمحنا إلى ذلك سالفًا-، وتشير في العديد من النصوص إلى أن اللّه على استعداد من خلال تقديم ابنه يسوع فدية للبشرية وإظهار سعة رحمته، بل إن أعظم تجلياتها جرت على شجرة الصليب، لذا الرحمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسر الخلاص[٣].

ومن هنا ارتكزت رحمة اللّه في الأناجيل على المسيح بتجسده وفدائه، (حسب عقيدة المسيحيين الحاليين، وأنه تحمل عن الآخرين وفدى بنفسه عن ذنوبهم).

والرحمة في العهد الجديد لا تعني فقط التحرر من الخطيئة، ولكن أيضًا الدفاع عن الضعفاء والمظلومين، وشفاء المرضى وغيرها من الأعمال الخيرة، وقد برزت معاني الرحمة في خطبة المسيح على الجبل، التي تعد قمة في هذه المعاني المثالية، حيث قال فيها: "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض،

(١) إنجيل لوقا: ١-٥٠.
(٢) Alice M Sinnott, Mercy in the Bible, p4-5.
(٣) لوقا: ١: ٤٦-٥٤: ٦٨-٧٨

طوبى للجياع والعطشى إلى البر، لأنهم لا يشبعون، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون، طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون"[1].

ونلاحظ من خلال هذه القرائن النصية التي انتخبناها أن الرحمة اقترنت في الكتاب المقدس بمفهوم العهد والملك والرأفة والمحبة والشفقة، وكل هذه المعاني قريبة لمعاني الرحمة في القرآن الكريم واللغة العربية.

بعد هذه الجولة مع مصطلح الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس نصل إلى المقارنة الكمية لهذا المصطلح بين الكتابين كما يلي:

ثالثًا
مادة الرحمة بين القرآن والكتاب المقدس
مقارنة كمية

نحاول أن نقارن بين هذه المادة في مستوى الجذر أولًا، ثم في تصريفاتها إلى الفعل الماضي والمضارع، ثم نقارن بين موانع الرحمة وعوارضها مع التعليق والتحليل للمقارنة الكمية كما يلي:

أولًا: المقارنة الكمية:

على مستوى الجذر والألفاظ المقاربة (حب شفق، رأف، غفر، سلم) نقصد بالمعاني المقاربة هنا تلك المعاني التي تتوافق وتتشابه وتتلائم مع الرحمة: كمصطلح موجود في القرآن الكريم والكتاب المقدس، ولا ريب فإن هذه الكتب تحتوي على ألفاظ صريحة كلفظ الرحمة، وألفاظ مقاربة لهذا المعنى مثل: شفق، وحب، وغفر، رأف وسلم، وقد حاولنا أن

(١) متى: ٥: ٥-٣٩.

نعقد مقارنة بينها في الكتابين فكانت النتيجة:

المادة	القرآن الكريم[١]	الكتاب المقدس[٢]
رحم	١٥٣	١٣٦
حب	٢	٠
شفق	١١	٣
رأف	١١	١٠
سلم	١٠١	٨٣
عفو	٤٩	٢١

والملحوظ من خلال هذه النتيجة الأولية للمقارنة الكمية بين مادة رحمة ومرادفاتها (حب وشفق ورأف..) أن القرآن الكريم يحتل المرتبة الأولى قبل الكتاب المقدس، فقد وردت كلمة رحم في ١٥٣ مرة، ثم الكتاب المقدس بـ ١٣٦مرة، وجاءت كلمة حب في ٢ مرة، وليس بأقل أهمية ما ورد بالنسبة لمادة رأف وسلم وعفو، فإن القرآن يسجل الرقم الأكبر دعوة إلى الرأفة والعفو والسلم.

(١) اعتمدت في عملية الإحصاء بالنسبة للقرآن الكريم على برنامج http://www.alawfa.com/Go.aspx?keyword=%d9%82%d8%aa%d9%84

(٢) اعتمدت في عملية الإحصاء للكتاب المقدس على الموقع الإلكتروني http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/search.php

ثانيًا: المقارنة الكمية: فعل مضارع (صيغة مفرد) (يبر، يغفر):

المادة	القرآن الكريم(١)	الكتاب المقدس(٢)
يرحم	١	٢٣
يحب	٣٩	٨٣
يسلم	٣	١٠٨
يعف	٨	٥
يغفر	٣٠	٢٨

إن الفعل المصاغ من المادة بصيغة المفرد يرحم وترحم ومرادفاتها يحب، يعف، ويسلم، ويغفر، فإنها دالة على توظيف الرحمة في علاقتنا مع الله أو بعضنا مع بعض في إطار الأخوة والمحبة والسلام، وهنا أود أن أشير إلى أن هناك من الألفاظ السابقة على مستوى الجذر ما لم يرد في القرآن الكريم فعلًا مضارعًا، لذا اخترت الألفاظ المستعملة في كلا الكتابين حتى نستطيع المقارنة.

وفي هذا الجدول نلاحظ بداية تقلص الفوارق بالنسبة للكتاب المقدس، حيث يحتل المرتبة الأولى قبل القرآن الكريم، فقد ورد الفعل المضارع يرحم في الكتاب المقدس في ٢٣ موضعًا، في حين ورد في موضع واحد من القرآن الكريم بفارق ٢٢ مرة، والأمر نفسه بالنسبة لكلمة يحب، وهنا أود التنبيه إلى أن كثرة تعداد الكلمة في الكتاب المقدس ليس له دلالة على شيء، لأن العبرة بسياق الكلام الذي وضعت فيه، ومعناه الذي دلت عليه، وليس فقط بكثرة ورودها، فقد صرح صاحب القاموس الموسوعي للعهد

(١) اعتمدت في عملية الإحصاء آيات القرآن الكريم على برنامج http://www.alawfa.com/Go.aspx?keyword=%d9%82%d8%aa%d9%84

(٢) اعتمدت في عملية الإحصاء على الموقع الإلكتروني http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/search.php

الجديد أن كلمة الرحمة Eleos ومشتقاتها ترد حوالي ٤٠٠ مرة في سب[١]، ومن ثم فقد استعملت في غير معناها الحقيقي الذي يدل على العطف والمحبة والرأفة، بل إننا وجدنا كلمة الرحمة ومشتقاتها تستعمل في بعض الأحيان للدلالة على النفي، مثلما هو الحال بالنسبة لهذا النص الإنجيلي: «لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة»، ومن جهة أخرى، فإن معظم تعداد كلمة الرحمة في الكتاب المقدس جاء وصفًا للإله، وهذا مع كثرة تعداده لا يدل إلا على معنى واحد ونوع واحد من الرحمة فقط، فتكراره لا يدل على كثرة الرحمة عندهم، وإنما على رحمة الإله، وهذه صفة إلهية يتفق فيها الجميع، وأخيرًا وحتى لو سلمنا جدلًا بصحة تعداد كلمة يرحم ويحب ويسلم وسياقاتها المتنوعة الدالة على معاني مختلفة، فلا مقارنة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم، لأن الكتاب المقدس عبارة عن مكتبة، أي مجموعة من الكتب (٧٣ كتابًا) التي ألفت خلال قرون متعددة، أما القرآن الكريم فهو كتاب واحد، جمع خلال ثلاث وعشرين سنة فقط، فلا وجه للقياس أُصلا.

رابعًا
المقارنة الكمية: موانع وعوارض الرحمة

نقصد بعوارض مصطلح الرحمة هي تلك الألفاظ التي تؤدي معنى مضاد للرحمة، وهي ألفاظ لا تتناسب مع لفظ الرحمة، وبعد بحث في ثنايا القرآن الكريم والكتاب المقدس، وجدت أن من أهم هذه الألفاظ الأنانية، الفساد، القتال، الضر، الكراهية، ووصلنا في المقارنة إلى ما يلي:

(١) Verlyn. D. Verbrugge, New International Dictionary of New Testament Theology Copyright 2000. By The Zondervan Corporation Michigan, p 209.

المادة	القرآن الكريم	الكتاب المقدس
الأنانية	٠	٢٦٠
الفساد	١٧	١٥٥٩
القتال	١٠	٦٥٠
الضر	١٤	٣١
الضر	٦٠	٥٥٥

ومن خلال المقارنة الكمية لهذه المصطلحات يبدو الفارق جليًا في حرص القرآن الكريم على التحلي بخلق الرحمة من خلال النهي عن عوارضه التي هي الأنانية والفساد والقتال والضر. بل إن عدد مرات ورود لفظ الفساد والقتال أقل بكثير جدًّا مما ورد في الكتاب المقدس، مما يدل على أن الدين الإسلامي ليس دين عنف ولا قتال، ولا كراهية ولا ضر.

خامسًا
الرحمة والسيف في القرآن الكريم والكتاب المقدس

لعل المقارنة الإحصائية للمواد التي لها علاقة بالسيف، مثل: القتل، والاغتيال، وسفك الدماء. إلخ، تساعدنا على معرفة مدى صدق تهمة الإسلام على أنه دين سيف وقتل، وأنه دين لا رحمة فيه:

المادة	القرآن الكريم	الكتاب المقدس
سيف	٠	٢٤٩
قتل	٧٧	٥٧٦
قاتل	٤٢	٦٦
يقاتل	١٥	٦
دماء	٤	٤٤

جهاد	٤	١١
يجاهد	٦	٣
اقتل	٢٠	٣١
المجموع	**١٦٨**	**٩٨٦**

إن القراءة التحليلية للإحصاء الكمي لمادة السيف والقتل بين القرآن الكريم والكتاب المقدس تضع الكتاب المقدس في قائمة الكتب بـ ٩٨٦ بفارق ٨١٨ مرة، ويليه القرآن الكريم بـ ١٧٠ مرة، وهذا الترتيب ينقض تمامًا ادعاء أهل الكتاب المقدس ولا سيما المسيحيين منهم، وعلى رأسهم -طبعا-بابا بنيدكت، ويدفعهم إلى إعادة النظر في حكمهم وإعادة قراءة الكتاب المقدس قراءة متأنية.

وهنا أورد قولًا للقسيس دافيد بنجامين الكلداني[(١)] مخاطبًا رهبان البروتستانت: "أقول إلى رهبان البروتستانت وواعظيهم الذين يدعون أن المسيح جاء بالسلام، إن مدعاكم غلط محض، وإن المسيح قد قال صريحا وتكرارًا إنه لم يأت بالسلام، بل بالسيف والنار، والاختلاف والتفريق بين الناس، فلا مناسبة للسلام بالمسيح.."[(٢)].

وجاء في إنجيل متى: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا"[(٣)]، وفي موعظة أخرى للمسيح نقرأ في الإنجيل: "جئت لألقي نارًا على الأرض، أتظنون أني جئت أعطي سلامًا على الأرض، كلا أقول لكم، بل انقسامًا"[(٤)].

(١) هو دافيد بنجامين الكلداني ولد سنة ١٨٦٨م، كان قسيسا للروم من طائفة الكلدان، وبعد إسلامه تسمى بعبدالأحد داود، خلف مجموعة من الكتب من أهمها: الإنجيل والصليب.
انظر ترجمته في:
David Benjamin Keldan, Muhammad In The Bible, Editea by : David M. Rifat Al-Hanbali, Published by : ESBAH Publshing House, K S A ? P03

(٢) الإنجيل والصليب، د م ن، ص ٣٢.

(٣) إنجيل متى، ١٠

(٤) إنجيل لوقا: ١٢

في حين نجد أن الدين الإسلامي لا يحض على السلبية والاستسلام، وهو في الوقت نفسه يؤكد أن الظلم والجور غير مقبولين شرعًا، مهما كان مبررهما، ولذا فإن أي حرب هي في حقيقتها دفاع عن النفس وحصن للدين، فلها من ثم ما يسوغها شرعًا.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال].

المحور الثاني
مادة الرحمة بين
القرآن الكريم والكتاب المقدس التحليل الكيفي

تتخذ مادة الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس موضوع الدراسة مداخل متعددة، ومقاربات متباينة، أختار نماذج منها، لمعرفة مدى قرب أي مصدر أو بعده عن الرحمة، ومدى اعتماد أي ديانة (اليهودية والمسيحية والإسلام) على الرحمة أو إغفالها لها بناء على التحليل من جهة، وعلى قراءات معرفية من جهة أخرى.

أولا
نموذج الرحمة الإلهية بين
القرآن الكريم والكتاب المقدس

يتصف الإله في الكتاب المقدس بأنه إله الحرب والجيوش[1]، حيث جاء في سفر يشوع (Joshua)[2]: ".. لأن الرب إلهكم هو المحارب

(١) قد يلاحظ البعض أن هذه الصفات لا تليق بالذات الإلهية، كما لا تليق بالأنبياء المكرمين، لكننا هنا نذكر هذه الصفات بحسب ما يؤمنون به من خلال كتبهم المقدسة، التي لا تزال إلى حد الساعة كذلك، في حين أن صفات الخالق ﷻ والأنبياء في القرآن غير ذلك تمامًا، والبون بينهما واسع وشاسع.

(٢) يشوع: هو يشوع بن نون، المشهور الذي خلف موسى قائدا للعبرانيين، وكان اسمه أولاً هوشع، وهو الذي أقطع الإسرائيليين الأردن وقهر الكنعانيين. انظر: نخبة من اللاهوتيين: كتاب مرشد الطالبين، =

عنكم"[1]، وجاء في ذات المصدر: ".. لأن الرب هو المحارب عنكم، كما كلمكم"[2] فالرب حسب الكتاب المقدس ما هو إلا قائد عسكري "يسير أمام المحاربين، لأنه رب الجنود.. يأمر بتدمير المدن، وتذبيح البشر في هجمات بربرية وحشية.. إن بني إسرائيل جعلوه إلهًا غاضبًا ظالمًا قاسيًا يسر لرائحة المحرقات، وينتشي برائحة الدم.."[3]، ولعل أبلغ نص في الكتاب المقدس ما جاء في سفر التثنية: «إذا سننت سيفي البارق، وأمسكت بالقضاء يدي، أرد نقمة على أضدادي وأجازي مبغضي، أسكر سهامي بدم، ويأكل سيفي لحما بدم القتلى والسبايا، ومن رؤوس قواد العدو»[4].

وورد في سفر إشعيا (Isaiah) عن رحمة الله ما يلي: "اقترِبوا واَسمَعوا أيُّها الأمَمُ!، أصغوا إليَّ أيُّها الشُّعوبُ!، لِتَسمَعِ الأرضُ وكُلُّ مَنْ فيها، العالَمُ وكُل ما يُخرِجه، الرّبُّ غاضِبٌ على الأُمَمِ، ساخطَ على كُلِّ جيوشِهم، فحَلَّلَ سَفكَ دمائِهم، ودَفَعهُم دَفعًا إلى الذَّبحِ، فتُطرَحُ قَتلاهُم في الشَّوارِعِ ويفوحُ النَّتَنُ مِنْ جيَفِهِم، تسيلُ الجبالُ مِنْ دِمائِهِم"[5] هذا هو الإله في الكتاب المقدس.

أما إذا جئنا إلى القرآن الكريم فإننا نجد البون شاسعًا بينهما، فهناك الكثير من النصوص الشرعية التي تبين سعة رحمة الله، وسنحاول بيان الاقتصار على البعض منها لضيق المقام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

= ص ٨٤-٨٥، ومعناه في اللغة العبرية (الرب يخلص) وترجمة هذا الاسم يشوع خطأ، والصواب أن يترجم يهوشوع كالأصل العبري، انظر في ذلك: بدر محمد: قواعد اللغة العبرية، ص ١٢٩.
واسمه في الأصل هوشع (انظر سفر العدد ١٣: ٨)، ثم سماه موسى عليه السلام يوشع (انظر: عدد: ١٣: ١٦)، وهو خليفة موسى عليه السلام، ابن نون من سبط إفرايم بن يوسف عليه السلام..

(١) سفر يشوع ٢٣: ٣،
(٢) سفر يشوع ٢٣: ١٠.
(٣) حسن الباشا القرآن والتوراة، ص ١١٣.
(٤) سفر التثنية ٣٢: ٤١-٤٢
(٥) التوراة، سفر إشعيا، إصحاح ٣٤

﴿جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر:٧] وقال تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «قال رجل لم يعمل خيرًا قط: فإذا مات، فحرقوه، واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: لِمَ فعلت؟ قال: من خشيتك وأنت أعلم. فغفر له»(١).

ثم لنذكر مظهرًا واحدًا من مظاهر سعة رحمة الله ﷻ، وهو تجاوزه ﷻ عن الزلل، وشكره للقليل من العمل، وعفوه عن السيئات، ومضاعفته للحسنات، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدةً. متفق عليه(٢).

وقال ﷺ: «إن رجلًا لم يعمل خيرًا قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله ﷻ أن يتجاوز عنا. فلما هلك، قال الله ﷻ له: هل عملت خيرًا قط؟ قال: لا، إلا أنه كان لي

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، ج٩، رقمه ٧٥٠٦ ص١٤٥.
(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، باب من هم بحسنة أو بسيئة، ج٨، رقمه ٦٤٩١، ص ١٠٣.

غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته ليتقاضى قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز لعل اللّه يتجاوز عنا، قال اللّه سبحانه وتعالى: قد تجاوزت عنك(١).

هذه بعض نماذج الرحمة الإلهية في القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية.

ثانيًا
نموذج الرحمة من خلال قصة آدم في القرآن الكريم والكتاب المقدس

إن المتأمل في قصة سيدنا آدم عليه السلام في الكتاب المقدس لاسيما العهد القديم منه يجد أن آدم عليه السلام لما عصى ربه لم يغفر اللّه له، وإنما توعده، ولعن الأرض بسببه، فنقرأ في الكتاب المقدس: وقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ، وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ، الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»(٢).

في حين نجد الكتاب المقدس في عهده الجديد قد رتب على معصية آدم خطيئة لا يمكن غفرانها، وجعل العهد الجديد الخلاص من هذه الخطيئة على يد كائن نصفه إنسان ونصفه إله، نظرًا لتعذر مغفرة هذه الخطيئة، حيث تحتم قتل هذا الكائن، ليتحمل هذه الخطيئة عن البشر، وبذلك يتوب اللّه سبحانه وتعالى على خلقه المخطئين.

---

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، رقمه: ٢٢٢٣، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، ج٢، ص٣٣.

(٢) سفر التكوين ١٧: ٣-١٩.

فنقرأ الآيات التالية في العهد الجديد: "وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ، هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. أَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ. وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ..."(١).

أما في الإسلام، فنجد أن آدم لم يحتج إلى شيء بعد معصية الله إلا إلى التوبة النصوح. فلما تاب توبة نصوحا، تاب الله عليه ورحمه رحمة واسعة. يقول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة].

وفي الآية تقرير لمفهوم التوبة في الإسلام، ففي مسارعة آدم عليه السلام إلى التوبة والإنابة والاستغفار تعليم لجميع بني البشر بما ينبغي أن يكونوا عليه إذا زلوا في أثناء ممارستهم خلافة الأرض، فباب الرحمة والتوبة مفتوح، والله سبحانه وتعالى يحب من عباده إذا أذنبوا أن يستغفروا ويتوبوا إليه.

ثالثًا
تجليات الرحمة في النموذج النبوي بين موسى عليه السلام(٢) ومحمد صلى الله عليه وسلم من خلال شريعة الحرب والقتل

(سنستعين بأحداث السيرة في ذلك).

ذكر الكتاب المقدس في سفرا الخروج (Exodus) والعدد(٣) (Numbers)

(١) سفر يوحنا ١٤: ٣-١٩.
(٢) موسى الذي تحدثت عنه التوراة ليس هو موسى عليه السلام المذكور في القرآن الكريم.
(٣) سفر العدد: هو رابع أسفار موسى الخمسة في العهد القديم، وهو تتمة الأسفار الثلاثة =

قصة موسى عليه السلام في مصر، وكيف أنه فر باتجاه مديان طالبا الأمن والآمان، فوجد عند أهلها، وعلى رأسهم الكاهن يثرون[١] الحضن الدافئ، والأمن والسلام، وكيف تزوج من ابنته... وبعد فترة آثر موسى عليه السلام العودة إلى مصر..، ومرة أخرى خرج من مصر، لكن جاءته آوامر يهوه[٢] الغريبة، التي تقضي بتدمير مديان وأهلها وتخريبها دون أدنى اعتبار لصلة الرحم التي تربطه بها، ذلك أنهم صاروا أصهاره وأخوال أولاده، ناهيك على أنهم أنقذوه من محنته التي مر بها، وليس هذا فحسب، بل إنهم أمنوه على حياته، ثم عدوه واحدًا منهم لما زوجوه، لكن موسى نسي وتناسى كل ذلك، واستمع لأوامر يهوه التي تقول: "وكلم الرب موسى قائلًا: انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين، ثم تضم إلى قومك"[٣].

"ودون أن يستفسر موسى ربه عن سبب هذا الانتقام، فإنه التفت إلى بني إسرائيل وأعطاهم الأوامر الصارمة التي تفيد تنفيذ نقمة الرب الإسرائيلي على مديان، حيث جاء في العهد القديم، فجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر وملوك مديان، قتلوهم فوق قتالهم.. خمسة ملوك مكديان.. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع

= التي قبله، والتي تروي قصة الشعب العبراني، من بدأ الخليقة إلى خروجهم من مصر، ويروي سفر العدد قصة بني إسرائيل في سيناء، ووصولهم إلى موآب، وإشرافهم على أرض الموعد.. انظر: قاموس الكتاب المقدس (حرف العين/ مادة العدد).

(١) يثرون : وورد اسمه في الكتاب المقدس يثرو، يثرون، ورعوئيل وهو النبي شعيب رضي الله عنه.
انظر: سيد سليمان عليان: نساء العهد القديم، ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ص١٢

(٢) يهوه: اسم الإله في التوراة التي بين اليهود، وأصل الكلمة هيه، هوه، أي أنا هو من هو..
انظر: الخوري بولس الفوغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ط١، بيروت: المكتبة البولسية وجمعية الكتاب المقدس، ٢٠٠٣م، ص ١٤١٦.
وقال العقاد: وهذا اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق، فصح أنه من مادة الحياة، ويصح أنه نداء لضمير الغائب، لأن بني إسرائيل كانوا يمنعون ذكره، ويكتفون بالإشارة إليه.
انظر: عباس محمود العقاد: الله، ط٤، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م، ص٧٤.

(٣) سفر العدد، ٣١: ١-٢.

بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.." .(١)

ومن خلال هذا النص، فإنها كانت إبادة تامة شاملة للملوك والرجال، وحتى العقارات والمساكن والحصون، وقد استشاط موسى غيظًا وغضبا بعد ذلك على قادة الجنود، لأنهم تركوا الأطفال والنساء أحياء، حيث ورد في العهد القديم: "فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب، وقال لهم: هل أبقيتم كل أنثى حية"(٢).

وبعد هذا التوبيخ والتقريع الذي لحق بقادة الجيش وجه لهم أوامره الجديدة، التي تقضي بتنفيذ مجزرة جديدة إرضاء ليهوه: "فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلًا بمضاجعة ذكر فاقتلوها"(٣)، هذه المجازر هي التي جعلت ويل ديورانت(٤) يعلق على ذلك بقوله: "ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به"(٥).

وهكذا يصور سفر الخروج موسى بأنّه كان قاسيًا متشددًا إلى الدرجة التي لم يكن ليتوانى عن تنفيذ أي عقوبة حتى على شعبه المميز المختار من الإله يهوه، فقد كانت نزعته العدوانية متفوقة على النزعة الإنسانية، وهذه القسوة والشدة التي ألصقها كاتب سفر الخروج بموسى جعلت منه قائدًا يدرب بني إسرائيل على الوحشية والعدوانية تجاه الشعوب الأخرى.

(١) سفر العدد، ٣١: ٧-١٢.
(٢) سفر العدد، ٣١: ١٤-١٥
(٣) سفر العدد، ٣١: ١٧-١٨.
(٤) ويل ديورانت(١٨٨٥م-١٩٦٢م): فيلسوف أمريكي من أبرز الذين وقفوا جهودهم على تبسيط التاريخ والفلسفة، انتسب إلى كلية القديس بطرس اليسوعية في جيرسي، ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك، امتهن الصحافة ثم تحول لتدريس اللغة اللاتينية والإنجليزية والفرنسية، ثم اشتغل بالفلسفة، حيث نال درجة الدكتوراه سنة ١٩١٧م، من آثاره: الفلسفة والمشكلة الاجتماعية، قصة الحضارة..
انظر ترجمته في: محمد عبدالرحيم: مقدمة قصة الحضارة لصاحب الترجمة، ص٢١ وما بعدها..
(٥) ويل ديورانت: قصة الحضارة، ص ٣٢٧، وانظر في ذلك: عابد الهاشمي: التربية في التوراة، ط١، دب: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م، ص١٢٥.

هذه إذن صورة موسى في الكتاب المقدس، وهي بلا أدنى شك صورة بعيدة كل البعد عن الرحمة والرأفة التي يصورها الحديث النبوي عن الرسول محمد ﷺ عندما رأى امرأة مقتولة في بعض الغزوات، فأنكر قتل النساء والصبيان(١)، وفي موقف آخر؛ قال عن المرأة المقتولة: "ما كانت هذه لتقاتل(٢)"، بل وكان من وصايا الرسول ﷺ لأمرائه، وقادة سراياه: "لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا"(٣)، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أن الغلول هو الخيانة في الغنيمة، وأن الغدر، وهو نقض العهد، وعن التمثيل، وهو تشويه القتلى بقطع الأنوف أو الآذان، أو بقر البطون ونحو ذلك.

فنجد صورة النبي محمد ﷺ في شريعة الحرب والقتل تختلف كل الاختلاف عن صورة موسى التوراتي، الذي لم يسلم منه أحد، سواء النساء أم الأطفال أم الشيوخ.

رابعًا
الرحمة بالحيوان
بين القرآن الكريم والكتاب المقدس

ورد في سفر الخروج وجوب رجم الثور الذي ينطح رجلًا فيقتله، حيث جاء في سفر الخروج: "فإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة، وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه"(٤)؛ وهذا النص صريح في اعتبار الثور أهلًا لاحتمال المسئولية الجنائية، وفي اعتبار رجمه جزاءً بالمعنى

(١) أخرجه البخاري: الجهاد، باب تحريم قتل النساء،، ج٤، ص٧٤، رقمه: ١٧٤٤
(٢) أخرجه أبو داود: الجهاد، رقم ٢٦٦٩،، ج٤، ص٧٤، رقمه: ١٧٤٤
(٣) أخرجه أحمد، ج١، ص ٤٩٣، والبيهقي: في السنن، ج١٣، ص ٣٨٥
(٤) سفر الخروج: ٢١/ ٢٨-. ٢٩

القانوني الدقيق لكلمة الجزاء؛ كما جاء في سفر اللاويين[١] (Leviticus) هذا النص: "إذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فيقتل الرجل وتميتون البهيمة، وإن قربت المرأة حيوانًا وجب قتل المرأة والحيوان"[٢]. والأمر نفسه بالنسبة للتلمود[٣] (Talmud) حيث جاء فيه: "الحيوان الذي ضاجع امرأة أو رجلا، أو ضوجع عن طريق رجل، والرجل والمرأة يعاقبان على مضاجعة البهيمة بالرجم، ويميتون البهيمة، لأنه قد لحقها الخزي والعار"[٤].

ولا تقل هذه النصوص صراحة عن النصوص السابقة في اعتبار الحيوان أهلًا لاحتمال المسؤولية الجنائية وما يترتب عليها من جزاء، بل وُجدت محاكمات خاصة للحيوانات في شرائع اليونان القديمة، ذكر فيها أفلاطون[٥] في (القوانين) أنه إذا قتل حيوان إنسانًا كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء!، وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان، يجب قتله قصاصًا !، وبلغ الأمر عند قدماء الفرس غاية العجب، إذ ورد في أسفار الأبستاق أو الأفستا[٦]: وهي مجموعة الكتب المقدسة

(١) سفر اللاويين Leviticus: سمي بسفر اللاويين نسبة إلى لاوي بن يعقوب عليه السلام، وهو يتضمن الشرائع والنظامات المختصة بالكهنة والذبائح.
انظر: نخبة من اللاهوتيين: كتاب مرشد الطالبين، ص٧٤.

(٢) سفر اللاويين: ٢٠

(٣) التلمود: Talmud هو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية ومدنية وشروح وتفاسير وتعاليم، وروايات كانت تنقل وتدرس شفهيًا ثم دونت بعد ذلك.
انظر: فكري جواد عبد: كتاب التلمود في الفكر اليهودي، مركز لدراسات الكوفة، جامعة الكوفة، العدد ٦، ٢٠٠٧، ص ٢٢٦

(٤) الحاخام عادين شتينزلتس: معجم المصطلحات التلمودية، تر: مصطفى بن عبدالمعبود سيد، العدد ٠٩، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ص٢٣٦

(٥) أفلاطون: هو أحد أهم كبار فلاسفة اليونان، الذين خلدهم التاريخ، وقد تنوع نتاجه الفلسفي، ليضم معظم مجالات المعرفة، وهو أول من وضع مذهبا فلسفيا متسقًا في أفرع الفلسفة جميعا ومنها الميتافيزيقا والطبيعيات والسياسة والأخلاق..
انظر ترجمته في: حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون، العدد ١٠، جامعة الكوفة، مركز دراسات الكوفة، ٢٠٠٨م، ص٢٥٩.

(٦) الأفستا: هو الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية يتجاوز عمره ثلاث آلاف سنة، وهو أقدم وثيقة دينية تاريخية، وثقافية، وأنثروبولوجي تعكس المراسم والطقوس الدينية.
انظر: خليل عبدالرحمن: أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط٢، دمشق: سوريا، روافد للثقافة والفنون، ٢٠٠٨م، ص٠٧.

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

المنسوبة لزرادشت[1] أن الكلب المصاب بالكَلِب (داء الكلب) إذا عض خروفًا فقتله، أو إنسانًا فجرحه قطعت أذنه اليمنى[2]، فإن تكرر منه ذلك قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وفي الرابعة رجله اليسرى، وفي الخامسة يستأصل ذنبه؛ ويعاقب صاحبه كذلك إن كان قد أهمل في اتخاذ ما ينبغي اتخاذه.

وفي القرون الوسطى كانت فرنسا أول أمة أوروبية أخذت في القرن الثالث عشر بمبدأ مسئولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة، ثم أخذت بذلك (سردينيا)، ثم بلجيكا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وفي هولندا وألمانيا وإيطاليا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وظل العمل به قائمًا عند بعض الشعوب حتى القرن التاسع عشر الميلادي. وكانت محاكم الحيوان عند الأوروبيين تقوم على ادعاء المجني عليه أو النيابة العامة، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم، وقد تقضي المحكمة بحبس الحيوان احتياطيًا، ثم يصدر الحكم بعد ذلك، وينفذ على ملأ من الجمهور، كما كان ينفذ على الإنسان. وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجمًا، أو بقطع رأسه أو بحرقه، أو بقطع بعض أعضائه قبل إعدامه.

وليس أدل على ذلك من استمرار المسابقات الوحشية، المعروفة بمصارعة الثيران في إسبانيا واليونان وإيطاليا، تلك المسابقات التي يجتهد فيها المصارع أن يقتل الثور تدريجيًا ليذيقه الموت البطيء، وذلك

(١) زرادشت Zarathustra: هو مؤسس الديانة الزرادشتية، وقد ولد بين سنة ٦٠٠٠ق. م و٦٠٠ق. م، وقد عاش في مناطق أذربيجان وكردستان وإيران، وظلت تعاليمه منتشرة في مناطق واسعة من وسط آسيا إلى موطنه الأصلي إيران حتى ظهور الإسلام.
انظر: ترجمته في: الشفيع الماحي أحمد: الزرادشتية وزرادشت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، ١٩٩٨م، ص١٤.

(٢) راغب السرجاني: حقوق الحيوان في الحضارة الإسلامية، موقع الجمعية الشرعية، مقال منشور، الأربعاء ٢٣ يونيو ٢٠١١م،
انظر الرابط: http://alshareyah. com/index. php?option=com_content&view=article&id=1949: -q-q-&catid=148: issue-59&Itemid=832

عن طريق رمي السهام في جسده حتى الموت، وإن هذه المصارعات تقام في حلبات كبرى يشاهدها الجمهور بحماس، وقد أشارت الإحصاءات إلى ما يقرب من ٣٥ ألف ثور يعذب ويموت سنويًّا في إسبانيا وحدها، ونحو ١٠ آلاف ثور في حلبات أوربا[١].

أما إذا رجعنا إلى الدين الإسلامي، فنجد الفرق كبيرًا في ذلك، فالقرآن الكريم أول كتاب يهتم بأصناف الحيوانات، ويصفها بالنعم والأنعام، وهناك سور عديدة سميت بأسماء عدد من الحيوانات، كسورة البقرة والأنعام... إلخ. كما ذكر القرآن العديد من الحيوانات والطيور، وربطها بالإنسان عامة، وبالكثير من الأنبياء والصالحين خاصة، واستعملها القرآن الكريم كضرب للأمثال، مثل: ناقة صالح، وحوت يونس، وغنم داود، وهدهد سليمان، وطير إبراهيم...، وضرب المثل بالكلب في مواقف، وبالذباب في مواقف، وبالطير في مواقف...،[٢] وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على تكريمه لهذه المخلوقات،

والإسلام هو أول من أَصل لرعاية الحيوان والرفق به في آداب راقية؛ منها ما هو واجب يأثم المرء إن لم يفعله، ومنها ما هو مندوب، لفاعله أجر وثواب ومغفرة، فقد أخبرنا رسول الإنسانية ﷺ عن امرأة أنها استوجبت النار بسبب حبسها لقطة لم تقدم لها الطعام، ولم تتركها تسعى لتأكل من حشرات الأرض وهوامها[٣]؛ وعن بغي من بغايا بني إسرائيل غفر الله لها بسقيها كلبًا كان يلهث من العطش... فيا لعظمة هذا الدين.

وجاء عن النبي ﷺ أنه دخل يوما حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل

(١) راغب السرجاني: حقوق الحيوان في الحضارة الإسلامية، المقال السابق نفسه.

(٢) طارق حسن بن عوف: جريمة القسوة على الحيوان بين أحكام الفقه الإسلامي وادعاءات النظم الغربية، مجلة الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، العدد ٢٣، ٢٠٠٤م، ص٥١.

(٣) انظر البخاري: باب فضل سقي الماء، رقمه، ٢٣٦٥، ج٣، ص١١٢، ومسلم، باب تحريم قتل الهرة، رقمه ٢٢٤٢،، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج٤، ص١٧٦٠،

فلما رأى النبيَّ حنَّ إليه وذرفت عيناه، فأتاه النبيُّ فمسح ذفرته فسكن، فقال: «مَنْ رَبُّ هذا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هذا الْجَمَلِ؟» فجاء فتى من الأنصار، فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: «أَلا تَتقي الله في هذِهِ البَهيمَةِ الّتي مَلَّكَكَ الله إِيّاها، فَإِنَّهُ شَكا لي أَنَّكَ تُجيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[1]؛ كما نهى رسول الله ﷺ عن وسم الحيوانات في وجوهها، بالكي بالنار، أي كيّها بالنار لتمييزها بين الحيوانات الأخرى، فقد مرّ ﷺ على حمار قد وسم وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»[2].

ونهى رسول الله ﷺ كذلك عن قتل أي حيوان دون سبب مشروع أو عذر مقبول، فقد روى النسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قتل عصفورًا عبثًا عجّ إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة يقول: يا ربّ إن فلانًا قتلني عبثا ولم يقتلني لمنفعة»[3]، وفي رواية أخرى: «ما من إنسان قتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها إلاّ سأله الله عزّ وجلّ عنها»[4]، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»[5].

وقد عرفت الحضارة الإسلامية الرفق بالحيوان منذ قامت، واستمر ذلك عبر تاريخها ؛ وسجل الوقف الإسلامي سبقًا في إنشاء دور لرعاية الخيل، وأخرى لرعاية الحيوانات الضالة، وكان هناك أوقافٌ خاصة

(١) أخرجه أحمد: المسند، حديث عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ، رقمه: ١٧٥٥، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ج٢، ص ٣٦٩، والبيهقي: السنن الكبرى، باب نفقة الدواب، رقمه: ١٥٨١٤تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط٣، بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ج٨، ص٢٣.

(٢) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه، رقمه، ٢١١٧، ج٣، ص١٦٧٣.

(٣) أخرجه النسائي: السنن، باب من قتل عصفورًا بغير حقها، رقمه: ٤٤٤٦، ج٧، ص٢٣٩، وأحمد في مسنده، حديث الشريد بن سويد الثقفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط١: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ج٣٢، ص ٢٢٠.

(٤) أخرجه النسائي: السنن، باب إباحة كل العصافير،، رقمه: ٤٣٤٩، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ج٧، ص٢٠٦.

(٥) أخرجه النسائي: باب إباحة كل العصافير، رقمه: ٤٣٤٩ ج٧، ص٢٠٦.

لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافٌ لرعاية الحيوانات المسنة، قبل أن تعرف الحضارة الغربية الرفق بالحيوان بقرون عديدة(١).

ومن هنا تفرَّد الإسلام وعبر تاريخه المجيد بنظرة بالغة الرُّقي للحيوان وحقوقه، حيث جعل من الإحسان للحيوان والرحمة والرفق به، عبادة تُكفِّر الخطايا وترفع الدرجات، كما أن الإضرار بالحيوان وتعذيبه وتحميله فوق طاقته، جريمة توجب غضب الله وعقابه في الآخرة.

هذه جولة مع بعض المقارنات بين الكتابين، وهي تظهر فوارق شاسعة بينهما، وهنا نصل إلى طرح سؤال أخير في هذا الموضوع، وهو: إذا كانت الكتب المقدسة قد حثت على خلق الرحمة في كل جوانب الحياة العقدية والتشريعية، كما مر معنا، فهل طبقت في أرض الواقع؟ هذا ما سنحاول بيانه من خلال العنصر التالي.

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، عمان، دار الوراق للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ص١٨٤.

المحور الثالث
الرحمة والعنف
مقاربات في واقع المجتمعات العالمية

من المؤسف أن القرن الماضي كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية جمعاء، فعوض أن تسعد البشرية بالتطور التقني والآلي، فإنها ذاقت الأمرين جراء تطوير الأسلحة، فكان عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م-١٩١٨م): ١٥ مليون قتيل.

أما الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) فخلفت: ٦٠ مليون قتيل[١]، والحرب الأهلية الروسية ٩ ملايين قتيل وضحايا حكم ستالين ٢٠ مليون قتيل، بالإضافة إلى كارثة هيروشيما وناكازاكي، وغيرها من المآسي في روندا، وكونغو، وأفغنستان، والجزائر والعراق اليوم وفلسطين... إلخ، ثم الملايين الذين يموتون بسبب الدخان والخمر والمخدرات والأمراض المستعصية مثل الأيدز.. مرورا بالإجهاض، وبالأغذية المعدلة جينيًا وآثارها الكارثية على البشرية، وغير ذلك مما نعرف ومما لا نعرف[٢].

فالسؤال المنطقي المطروح هنا هو: من قتل هؤلاء وأولئك؟ بناء على أي ديانة أو كتاب أو شريعة؟؟

هل بناء على القرآن الكريم والشريعة الإسلامية؟ أم بناء على الموروث

(١) محمد موسى بابا عمي مطارحة علمية مع بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، قسنطينة، ٢٠٠٩م، العدد ٠٤، ص ٤٣٧

(٢) محمد موسى بابا عمي مطارحة علمية مع بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، ص ٤٣٨ .

الغربي المزيف المبني على الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والعهد الجديد؟.

لا شك أن الذين قتلوا كل هذا العدد، والذين استعمروا شعوبًا بكاملها، وأبادوا دولًا بأسرها، منسوبون إلى العالم الغربي، وهم أحفاد المزيج اليهودي-المسيحي، فهل بعد ذلك يتهم الإسلام بالعنف والدموية ولا رحمة، وهو الضحية في كل هذا؟

إن هؤلاء يأخذون من الإنجيل ما ينسب إلى المسيح ظلمًا وعدوانًا: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا"[(١)]، وفي موعظة أخرى للمسيح نقرأ "جئت لألقي نارًا على الأرض، أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض، كلا أقول لكم بل انقسامًا"[(٢)] ثم تصدر مقولات على شكل نظريات قاتلة وفتاكة، مثل نظرية داروين، رغم أنها تعارض الديانات في ادعاء التطور عوض الخلق، إلا أنها تلتقي مع المزيج اليهودي-المسيحي في التبرير للعنف والدماء والقتل والفتك، حتى إن عدد الذين قتلوا في القرن الماضي يعدون بـ ١٧٠ مليون إنسان، جراء هذا الفكر الخطير، ذلك أن داروين يقول: "إن تطور الحياة تقوم على أساس من الصراع من أجل البقاء، وهذه المواجهة ستحكم على الأقوياء بالبقاء، أما الضعفاء فمصيرهم الانهزام والفناء"[(٣)].

ولقد تبنى هيتلر فلسفة داروين ليقود العالم إلى هاوية كلفته عقودًا من الحروب والشقاء، فهل بعد هذا توجه أصابع الاتهام للدين الإسلامي بأنه دين لا رحمة فيه[(٤)]..

(١) إنجيل متى ١٠.
(٢) إنجيل لوقا ١٢.
(٣) شارلز داروين: أصل الأنواع، تر: مجدي محمود المليجي دب، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م، ص
(٤) محمد موسى بابا عمي : مطارحة معرفية مع بابا الفاتيكان بندكيت السادس عشر، ص٤٣٨.

الخاتمة

في هذا البحث حاولت أن أجري مقارنة كمية ثم تحليلية وكيفية بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، فتبين لي أن المقولة والافتراض الذي يقول بأن الإسلام دين العنف والقتل والرعب الذي لا رحمة فيه هي أطروحة خاطئة.

ولقد اعتمد هؤلاء وأقصد بهم اليهود والمسيحيين للترويج لهذه المغالطة الكبيرة على جهل الكثير من الناس في العالم بحقيقة الدين الإسلامي والقرآن الكريم، ولا شك أن الحوار العلمي الهادئ، والمطارحة المعرفية الدقيقة كفيلة برد الأفكار إلى نصابها، وبتصحيح الأخطاء من مظانها، وهذا ما اجتهدت فيه قدر المستطاع اتباعًا لمنهج القرآن الكريم الذي يدعو إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ولا يخاف من الحوار حتى وإن تحولت إلى مباهلة... ما كان المقصد منها استجلاء الحق وإظهاره، ووضع الإصبع على الباطل وإبطاله.

ولاشك أن القرآن الكريم بلا ريب هو كتاب الرحمة، والنبي المصطفى بلا شك، هو نبي الرحمة كذلك، ولكن يبقى على المسلمين أن يتصالحوا مع مصدرهم، ويقتفوا أثر نبيهم، حتى يتمكن دين الله في أرضه، ثم يعيدوا دعوة نبيهم إلى أهل الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التوصيات

١. إظهار صورة الإسلام الحقيقية المشرفة أمام العالم، وبيان أنه دين يدعو إلى الرحمة والمحبة والتسامح من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتاريخ الإسلامي المشرف.

٢. رد الطعون الموجهة إلى هذا الدين، ومنها الإرهاب والعنف والتعصب والغلو والتطرف وغيرها، وأن القرآن بريء من هذا كله.

٣. تخصيص محاضرات حول الرحمة في الإسلام والقرآن الكريم تعرض في الجامعات الغربية، ومراكز البحث الإسلامية وفي المساجد والكنائس، لتوضيح حقيقة هذا الدين.

٤. إن هناك حاجة ملحة تفرض علينا توفير مصادر معلومات صحيحة باللغات الأجنبية تكون متاحة ومتوفرة للصحفي والكاتب والمؤرخ الغربي، ومن دون وجود هذه المصادر تبقى جهود التصحيح رسمية كانت أو فردية غير قادرة على تحقيق المراد أو بلوغ المقصود.

٥. إعادة النظر في أساليب طرحنا للإسلام وثقافته وحضارته وطرائق تعبيرنا عن أفكارنا في أثناء مخاطبة الآخر، بما يتناسب وتصحيح الصورة، وتبديد سوء الفهم بأذهان الغربيين.

ثبت المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم برواية حفص

٢. الكتاب المقدس طبعة دار المشرق بيروت.

٣. أحمد بن حنبل:

- المسند، حديث عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ج٢
- المسند، حديث الشريد بن سويد الثقفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط١: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ج٣٢..

٤. أحمد عبدالوهاب: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، ط٢، مكتبة وهبة، ١٩٨٨م.

٥. البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ ج٩، رقمه ٧٥٠٦

٦. البيهقي: السنن الكبرى، باب نفقة الدواب، رقمه: ١٥٨١٤تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط٣، بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية.

٧. الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم.

٨. جيفري لانغ: حتى الملائكة تسأل، تر: منذر العبسي، ط١: دار الفكر، ٢٠١٠م.

٩. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، رقمه: ٢٢٢٣، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، ج٢.

١٠. حسين شعبان: بروشفيك وباشلايير: بين الفلسفة والعلم، ط١، بيروت: لبنان، دار التنوير، ١٩٩٣م.

١١. الحاخام ستيسالتز أجرى: المودة والرحمة.

١٢. خليل عبدالرحمن: أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط٢، دمشق: سوريا، روافد للثقافة والفنون، ٢٠٠٨م.

١٣. الخوري بولس الفوغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ط١، بيروت: المكتبة البولسية وجمعية الكتاب المقدس، ٢٠٠٣م.

١٤. شارلز داروين: أصل الأنواع، تر: مجدي محمود المليجي دب، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.

١٥. سيد سليمان عليان: نساء العهد القديم، ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

١٦. عابد الهاشمي: التربية في التوراة، ط١، دب: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٧. عباس محمود العقاد: الله، ط٤، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

١٨. فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم دط، دب: دار ومطابع الشعب، دت.

١٩. محمد فاروق الزين: المسيحية والإسلام والاستشراق، ط٣، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣م.

٢٠. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، عمان، دار الوراق للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

٢١. نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير: بطرس عبدالملك وآخرون.

٢٢. مسلم، صحيح مسلم، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه، رقمه، ٢١١٧، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار احياء التراث العربي، ج٣.

٢٣. النسائي: السنن، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج٧.
٢٤. هنري. س. عبودي: معجم الحضارات السامية.

المجلات والدوريات:

٢٥. الحاخام عادين شتينزلتس: معجم المصطلحات التلمودية، تر: مصطفى بن عبدالمعبود سيد، العدد ٠٩، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
٢٦. حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون، العدد ١٠، جامعة الكوفة، مركز دراسات الكوفة، ٢٠٠٨م.
٢٧. الشفيع الماحي أحمد: الزرادشتية وزرادشت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، ١٩٩٨م.
٢٨. طارق حسن بن عوف: جريمة القسوة على الحيوان بين أحكام الفقه الإسلامي وادعاءات النظم الغربية، مجلة الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، العدد ٢٣، ٢٠٠٤م.
٢٩. علي مبارك: الرحمة والإحسان في تقاليد الأديان، مجلة الأديان، مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، العدد ٠١، ٢٠١١م.
٣٠. محمد موسى بابا عمي مطارحة علمية مع بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، قسنطينة، ٢٠٠٩م، العدد ٠٤.

المراجع باللغة الأجنبية:

١. Alice M Sinnott, Mercy in the Bible, PDF.
٢. Alice M. Sinnott ,Mercy Ever Ancient Ever New: Spiritual and Corporal Works of Mercy, PDF.
٣. David Benjamin Keldan, Muhammad In The Bible, Editea by : David M. Rifat Al-Hanbali, Published by : ESBAH Publshing House, K S A.

٤. Dictionnaire encyclopédique du judaisme, Publie sous la direction de Geoffrey wigor édition de l' Encyclopédie, S. éd, les éditions du cerf ;Paeris, 1993.

٥. Lang, Jeffrey ,Struggling to Surrender: Some Impressions of an American Convert to Islam. Beltsville, Maryland,USA, 1994.

٦. Norman Daniel,Islam et Occident, traduit par Alain Spiess, Eddn Cerf,Paris,1993.

٧. Verlyn. D. Verbrugge, New International Dictionary of New Testament Theology Copyright. By The Zondervan Corporation Michigan,2000.

المواقع الإلكترنية:

١. http://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/search.php

٢. http://alshareyah.com/index.php?option=com_content&view=article&id=1949:-q-q-&catid=148:issue-59&Itemid=832

٣. http://drghaly.com/articles/display/11532

٤. http://www.alawfa.com/Go.aspx?keyword=%d9%82%d8%aa%d9%84

٥. http://www.faustyna.pl/zmbm/en/in-the-old-testament/?wide=true#more-145

فهرس البحوث

- **بحث : مضامين الرحمة في القرآن الكريم.**

د. سلطان بن مسفر بن مبارك الصاعدي.

المقدمة ١٩

المبحث الأول: الرحمة في القرآن الكريم ٢٤

المبحث الثاني: المضامين التربوية للرحمة في القرآن الكريم ٣٠

المبحث الثالث: المضامين الاجتماعية للرحمة في القرآن الكريم ٣٥

المبحث الرابع: المضامين الدعوية للرحمة في القرآن الكريم ٣٩

خاتمة البحث ٤٥

- **بحث : رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم.**

أ. حمدان بن لافي بن جابر العنزي.

المقدمة ٥٣

التمهيد: ويشتمل على ما يلي: ٥٨

أولاً: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح ٥٨

ثانياً: إنعام الله تعالى وتفضله على نبيه ﷺ بالرحمة ٥٩

المبحث الأول: الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها،

وفيه المطالب الآتية: ٦٢

المطلب الأول: لفظ اللين الموصوف به ﷺ ٦٢

المطلب الثاني: الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ ٦٤

المطلب الثالث: الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه ﷺ ٦٩

المبحث الثاني: أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في القرآن

الكريم، وفيه مطلبان: ٧٢
المطلب الأول: رحمته ﷺ للعالمين ٧٢
المطلب الثاني: رحمته ﷺ للمؤمنين خاصة ٧٥
الخاتمة ٧٨

- **بحث : خُلق الرحمة، ومنهج القرآن الكريم في الترغيب فيه.**

د. خلود شاكر فهيد العبدلي.

المقدمة ٨٩
المبحث الأول : التعريف بخُلق الرحمة، وبيان منزلته في الأخلاق
السلوكية، وفيه أربعة مطالب: ٩٤
المطلب الأول : تعريف الخُلق لغة، واصطلاحا ٩٤
المطلب الثاني : تعريف الرحمة لغة، واصطلاحا ٩٥
المطلب الثالث : تعريف خُلق الرحمة ٩٧
المطلب الرابع : منزلة خُلق الرحمة في الأخلاق السلوكية ٩٨
المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في الترغيب في خُلق الرحمة،
وفيه عشرة مطالب: ١٠٠
المطلب الأول : اعتبار الرحمة مقصدا من مقاصد القرآن ١٠١
المطلب الثاني : ذكر اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة، وتسمية
نفسه بالرحمن، والرحيم، والرؤوف ١٠٣
المطلب الثالث : تكرار الرحمة بتكرار البسملة ١٠٦
المطلب الرابع : تسمية القرآن الكريم كل ما فيه خير ونفع بلفظ
الرحمة أو مشتقاتها ١٠٧
المطلب الخامس : التنويه باتصاف صفوة خلق الله، وخيرة عباده،
وهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام بخُلق الرحمة ١٠٩
المطلب السادس : امتداح المتخلقين بخُلق الرحمة، والثناء عليهم ..١١٢

المطلب السابع : الأمر بالتخلق بخُلق الرحمة، وبيان فضل ذلك، وآثاره ..١١٤
المطلب الثامن : ذكر شمول الرحمة واتساعها لتعم كل المخلوقات ١١٧
المطلب التاسع : ندب القرآن المؤمنين إلى طلب رحمة الله ١٢٠
المطلب العاشر : ذم من لم يتخلق بالرحمة ١٢٢
الخاتمة ١٢٤

• **بحث : خطاب الرحمة في القرآن الكريم. مقاربة في الأبعاد والدلالات.**

أ.د. محمد زرمان.

المقدمة ١٣٥
المبحث الأول : الرحمة المصطلح والمفهوم وفيه مطلبان: ١٤١
المطلب الأول : مصطلح الرحمة قراءة في الإطار المفاهيمي ١٤١
المطلب الثاني : مصطلح الرحمة في الخطاب القرآني ١٤٨
المبحث الثاني : خصائص الرحمة الإلهية وفيه خمسة مطالب: ١٥٥
المطلب الأول : ارتباط الرحمة بالذات الإلهية ١٥٥
المطلب الثاني : سعة رحمة الله وشمولها لكل شيء ١٥٧
المطلب الثالث : رحمة الله مبذولة لجميع الخلق في الدنيا ١٥٨
المطلب الرابع : الرحمة كلها بيد الله ١٥٩
المطلب الخامس : رحمة الله عامة في الدنيا لجميع الخلق
وخاصة في الآخرة بالمؤمنين ١٦٠
المبحث الثالث : مقام الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني وأبرز معالمه ..١٦٦
المبحث الرابع : معاني الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني ١٧١

المطلب الأول : الرحمة بمعنى النبوة ١٧١
المطلب الثاني : الرحمة بمعنى القرآن ١٧٣
المطلب الثالث : الرحمة بمعنى الجنة ١٧٤
المطلب الرابع : الرحمة بمعنى الرزق ١٧٦
المطلب الخامس : الرحمة بمعنى النصر ١٧٦
المطلب السادس : الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان .. ١٧٧
المطلب السابع : الرحمة بمعنى المغفرة ١٧٧
المطلب الثامن : الرحمة بمعنى إجابة الدعاء ١٧٨
المطلب التاسع : الرحمة بمعنى العصمة ١٧٩
المطلب العاشر : الرحمة بمعنى السعة والتخفيف ١٨٠
المبحث الخامس : تجليات الرحمة الإلهية في الخطاب القرآني ... ١٨٢
المطلب الأول : إرسال الرسل والأنبياء ١٨٢
المطلب الثاني : إنزال الكتب ١٨٥
المطلب الثالث : إنزال المطر ١٨٨
المطلب الرابع : تسخير الكائنات للخلق ١٨٩
المطلب الخامس : رفع البلاء عن الخلق ١٩١
المطلب السادس : رفع الحرج عن الناس ١٩٣
المطلب السابع : قبول التوبة ١٩٤
الخاتمة ونتائج البحث ١٩٦

- **بحث : آيات الرحمة في القرآن الكريم.**
دراسة لسانية في البنية والمحتوى.

د . قاسم قادة.

المقدمة ٢٠٧
المبحث الأول : الإطار المفاهيمي للرّحمة ٢٠٩
المبحث الثاني : دلالات اسم الرّحمة في القرآن الكريم ٢١٢
المبحث الثالث : أهم صيغ اسم الرحمة في القرآن الكريم ٢٢٣
المبحث الرابع : تجليات فعل التراحم بين المسلمين في القرآن الكريم ...٢٢٩
الخاتمة ٢٣٣

- **بحث : الدلالة المعجمية في الآيات الواردة في الرحمة.**

د. إيمان «محمد أمين» حسن بني عامر.

المقدمة ٢٤١
تمهيد : تعريفات الدراسة ٢٤٥
أولاً : التعريف بالدلالة المعجمية ٢٤٥
ثانياً : التعريف بالرحمة ٢٤٧
ثالثاً : الألفاظ الدالة على الرحمة في القرآن الكريم ٢٤٨
المبحث الأول: الدلالة المعجمية في الآيات القرآنية الواردة في الرحمة ..٢٥٠
أولاً : الرحمة التي هي صفة الله عز وجل ٢٥٠
ثانياً : الرحمة بمعنى النبوة ٢٥٢
ثالثاً : الرحمة بمعنى الكتب المنزلة ٢٥٤
رابعاً : الرحمة بمعنى الجنة ٢٥٥

خامساً: الرحمة بمعنى المطر ٢٥٦
سادساً: الرحمة بمعنى النعمة والرزق وسعة العيش ٢٥٧
سابعاً: الرحمة بمعنى النصر ٢٥٨
ثامناً: الرحمة بمعنى المغفرة والعفو ٢٥٩
تاسعاً: الرحمة بمعنى العطف والمودة ٢٦٠
عاشراً: الرحمة بمعنى العصمة ٢٦١
الحادي عشر: الرحمة بمعنى الثواب ٢٦٢
الثاني عشر: الرحمة بمعنى إجابة الدعاء ٢٦٣
الثالث عشر: الرحمة بمعنى التوفيق إلى الطاعة والإحسان ٢٦٣
المبحث الثاني: الآثار المترتبة على الدلالة المعجمية للرحمة ٢٦٦
الخاتمة ٢٦٩

- **بحث: الرحمة في القرآن الكريم.**

د. أنور محمود خطاب.

المقدمة ٢٧٧
المبحث الأول: مفهوم الرحمة، وفيه ثلاثة مطالب: ٢٨١
المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي ٢٨١
المطلب الثاني: الرحمة في الاستعمال القرآني ٢٨٢
المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة ٢٨٥
المبحث الثاني: الرحمة صفة من صفات الله تعالى وفيه ثلاثة مطالب: ...٢٨٩
المطلب الأول: معنى الرحمة في حق الله تعالى وأدلة كونها من
صفاته تعالى ٢٨٩

المطلب الثاني : عموم رحمة الله تعالى ٢٩٢
المطلب الثالث : من مظاهر رحمته تعالى وآثارها ٢٩٥
المبحث الثالث: موجبات الرحمة، وأسباب اليأس والقنوط من رحمة
الله، وفيه مطلبان: ٣٠٥
المطلب الأول: موجبات الرحمة ٣٠٥
المطلب الثاني: أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله ٣٠٩
المبحث الرابع: من وُصِف بالرحمة في القرآن الكريم، وفيه خمسة ..٣١٢
المطلب الأول: الكتب السماوية ٣١٢
المطلب الثاني: الرُسُل ٣١٤
المطلب الثالث: المؤمنون ٣١٥
المطلب الرابع: الغيث ٣١٦
المطلب الخامس: التشريعات الإلهية ٣١٧
الخاتمة ٣١٩

- **بحث : الرحمة في القرآن الكريم.**
دراسة تأصيلية موضوعية

د . محمد حامد محمد سعيد.

المقدمة ٣٣١
التمهيد ٣٣٥
المبحث الأول: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في
القرآن الكريم التي وردت بصيغة الفعل ٣٣٦
المبحث الثاني: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في
القرآن الكريم التي وردت بصيغة الاسم والمصدر ٣٤٨

المبحث الثالث: التأصيل القرآني لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في
القرآن الكريم التي وردت بصيغة أفعل التفضيل ٣٦٥
المبحث الرابع: التأصيل اللغوي لألفاظ الرحمة ومشتقاتها في
ضوء المعاجم اللغوية ٣٦٧
الخاتمة ٣٧٠

- **بحث : إستراتيجية الإقناع في آيات الرحمة المبدوءة بـ(قُلْ).**

أ. م. د. عائشة خضر أحمد هزاع.

المقدمة ٣٨١
المبحث الأول : البعد الحجاجي لاستعمال الأدوات اللغوية في آيات الرحمة ٣٩٢
المبحث الثاني : البعد الحجاجي لاستعمال العلاقات شبه المنطقية
(السلم الحجاجي) في آيات الرحمة ٤٠٦
الخاتمة ٤٢٢

- **بحث : الرحمة في القرآن (الطفل أنموذجاً).**

د. عبد الرؤوف أحمد بني عيسى.

المقدمة ٤٢٩
المبحث الأول: أهمية الرحمة في القرآن الكريم ، وفيه مطلبان، هما : ...٤٣٤
المطلب الأول: مفهوم الطفل والرحمة في القرآن الكريم ٤٣٤
المطلب الثاني: القرآن الكريم يدعو إلى الرحمة ٤٣٦
المبحث الثاني: الطفل في معرض الامتنان، وفيه ثلاثة مطالب، هما : ٤٣٨.

المطلب الأول: بيان كون الطفولة نعمةً تستحق الشكر ٤٣٨
المطلب الثاني: تحقيق إنسانية الطفل ومشهده في الوجود ٤٢٢
المطلب الثالث: احترام ذاتية الطفل وطموحاته ٤٤٤
المبحث الثالث: مظاهر الرحمة بالطفل في القرآن الكريم،
وفيه أربعة مطالب، هي: ٤٤٧
المطلب الأول: الرحمة بالطفل يتيماً ٤٤٧
المطلب الثاني: الرحمة بالطفل مستضعفاً ٤٥٠
المطلب الثالث: الرحمة بالطفل رضيعاً ٤٥١
المطلب الرابع: التوجيهات التربوية والأدبيةالمستفادة من رحمة
القرآن بالطفل ٤٥٦
الخاتمة ٤٦٠

- **بحث: الرحمة في القرآن الكريم والكتاب المقدس (دراسة مقارنة).**

د. ليليا شنتوح.

المقدمة ٤٦٩
المحور الأول : معاني الرحمة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس ٤٧٥
أولا : الرحمة في القرآن الكريم ٤٧٥
ثانيا : الرحمة في الكتاب المقدس ٤٧٦
ثالثا : مادة الرحمة بين القرآن والكتاب المقدس مقارنة كمية ٤٨١
رابعا : موانع وعوارض الرحمة بين القرآن والكتاب المقدس
مقارنة الكمية ٤٨٤

خامسا : الرحمة والسيف في القرآن الكريم والكتاب المقدس ... ٤٨٥
المحور الثاني : نماذج الرحمة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس ... ٤٨٨
أولا : الرحمة الإلهية ٤٨٨
ثانيا : قصة آدم عليه السلام ٤٩١
ثالثا : تجليات الرحمة الإلهية في النموذج النبوي موسى عليه السلام
ومحمد ﷺ في شريعة الحرب والقتل ٤٩٢
رابعا : الرحمة بالحيوانات ٤٩٥
المحور الثالث : الرحمة والعنف مقاربات في واقع المجتمعات العالمية ... ٥٠١
الخاتمة ٥٠٣